المركز القومي للترجمة



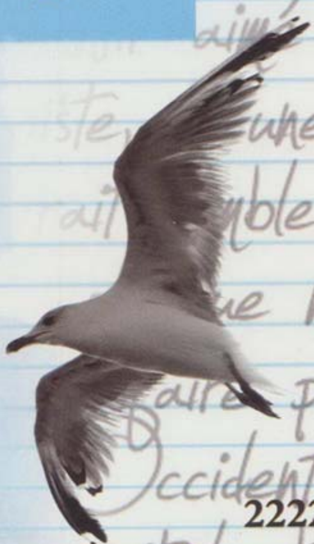


المشروع القومي للترجمة

إيمانويل لابوري

صرخة النورس

ترجمة: دينا مندور



2222

سلسلة الإبداع القصصي

صرخة النورس

رواية

تأليف: إيمانويل لابوري

ترجمة: دينا مندور



2013

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2222
- صرخة النورس
- إيمانويل لابورى
- دينا مندور
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:
Le cri de la mouette
Par: Emmanuelle Laborit

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

لابورى، ايمانويل.
صرخة النورس/ تأليف: ايمانويل لابورى؛
ترجمة: دينا مندور. ـ القاهرة : الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ٢٠١٣.
٢٦٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك ١ ٣٢٧ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الأدباء الفرنسيون.
٢ ـ ايمانويل، لابورى.
أ ـ مندور، دينا. (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٦٧٨/ ٢٠١٣
I. S. B. N 978 - 977 - 448 -327 - 1
ديوى ٩٢٨.٤

المحتويات

- ١ -
اعتراف

كانت الكلمات شيئًا غريبًا بالنسبة لى منذ طفولتى. أقول غريبًا وأقصد ما يكون غير مألوف فى البداية.

ماذا تعنى إيماءات الناس من حولى، وأفواههم المستديرة، أو المنفرجة بتعبيرات مختلفة. وشفاههم ذات الوضعيات المثيرة؟. كنت "أشعر" بشىء مختلف، حين يتعلق الأمر بالغضب، أو الحزن، أو الرضا، ولكن الجدار غير المرئى، الذى كان يفصلنى عن الأصوات المصاحبة لتلك الإيماءات، كان كالزجاج الشفاف والمعتم فى آن. فكنت على ناحية من هذا الجدار، والآخرون على الناحية الأخرى منه . وحين كنت أحاول تقليد تلك الإيماءات كقرد صغير، لم تكن كلمات بعد، ولكن حروفا مرئية. أحيانا، كانوا يعلموننى كلمة من مقطع واحد أو مقطعين متشابهين، مثل "بابا"، "ماما"، "تاتا".

كانت المفاهيم الأكثر بساطة هى أيضًا أكثر غموضًا . الأمس، والغد، واليوم. كان عقلى يعمل فى الحاضر. ماذا يعنى الماضى والمستقبل؟

وعندما فهمت، بمساعدة الإشارات، أن الأمس كان خلفى، وأن الغد أمامى، حينها قمت بطفرة مذهلة. إنه تقدم هائل، يصعب تخيله على بالنسبة للذين يسمعون، أولئك الذين اعتادوا، منذ كانوا فى المهد، فهم الكلمات والمفاهيم التى تتكرر بلا كلل، دون حتى أن ينتبهوا لها.

ثم فهمت أن هناك كلمات أخرى كانت تشير إلى الأشخاص. إيمانويل، كانت أنا. بابا، كان هو. ماما، كانت هى. مارى كانت أختى. كنت أنا إيمانويل، وكنت موجودة، ولى تعريف، أى لى وجود.

أن تكون شخصا ما، وأن تدرك أن المرء كائن حى. انطلاقًا من هنا، استطعت أن أقول "أنا". فمن قبل، كنت أقول "هى" حين أتحدث عن نفسى. كنت أبحث عن مكانى فى هذا العالم، ومن كنت، ولماذا. ووجدتنى. فاسمى هو إيمانويل لابورى.

وبعد ذلك استطعت، شيئًا فشيئًا، تحليل العلاقة بين التصرفات والكلمات التى تشير إليها، وبين الأشخاص وتصرفاتهم. وفجأة أصبح العالم يخصنى وأصبحت جزءًا منه.

كنت فى السابعة من عمرى. عندما ولدت وكبرت فى خبطة واحدة.

كنت فى حالة جوع وتعطش شديدين لأتعلم، وأعرف العالم وأفهمه، وهو ما لم أتوقف عنه منذ ذلك الحين. تعلمت قراءة اللغة الفرنسية وكتابتها. وأصبحت ثرثارة، وفضولية إزاء كل شىء، وأنا

أعبر عن نفسى بلغة أخرى، كغريبة مزدوجة اللغة. اجتزت الثانوية مثل كل الناس تقريبًا. وكنت أخشى التحريرى أكثر من الشفوى. ربما يبدو ذلك غريبًا بالنسبة لشخص ينطق الكلمات بصعوبة، ولكن الكتابة هى أيضًا تدريب صعب.

وعندما أردت إنجاز هذا الكتاب، قال لى بعض الأشخاص:

" لن تستطيعى"

أوه! بلى. فحين أقرر أن أنجز شيئا، فإننى أذهب حتى النهاية. كنت أريد أن أفعلها. وقررت أن أفعلها. فشرعت فى مهمتى الشخصية الصغيرة، مستعينة بالإصرار الذى طالما امتلكته.

وآخرون أكثر فضولاً سألوا كيف سأفعل ذلك. هل سأكتب بنفسى؟ أم سأحكى ما كنت أريد كتابته لشخص يسمع ويترجم إشاراتى؟

لقد فعلت الاثنين. فكل كلمة تكتب، وكل كلمة يعبر عنها بالإشارات، هما أخوان، وربما تكونان توأمين أكثر من أى توأمين آخرين.

كانت لغتى الفرنسية مدرسية بعض الشىء، مثل لغة أجنبية متعلَّمَة، بدون ثقافتها. أما لغة الإشارات فهى ثقافتى الحقيقية. يرجع الفضل إلى اللغة الفرنسية، فى وصف ما أريد التعبير عنه بموضوعية. أما الإشارة، تلك الرقصة للكلمات فى الفضاء، فهى حساسيتى، وشعرى، وذاتى الحميمة، وأسلوبى الحقيقى. والاثنتان

سويا سمحتا لى بوصف قصة حياتى المبكرة فى بعض الصفحات؛ من الأمس، حيث كنت خلف هذا الحائط المعتم الشفاف، إلى اليوم، حيث اجتزت هذا الحائط. كتاب، يعنى شهادة مهمة. فالكتاب يصل إلى كل مكان، وينتقل من يد إلى أخرى، ومن فكر إلى آخر، ليترك بصمته عليهم. كتاب، يعنى وسيلة اتصال نادرا ما تتوفر للصم. فى فرنسا، سأحظى بميزة أن أكون الأولى، كما كنت أول ممثلة كوميدية صماء، تفوز بجائزة موليير للمسرح.

هذا الكتاب بمثابة هدية من الحياة، فهو سيسمح لى بأن أقول ما كتمته طويلاً، للصم والذين يسمعون. إنه رسالة، والتزام فى الكفاح المتعلق بلغة الإشارات، التى لا تزال تفصل عددا كبيرا من الناس. فأنا أستخدم لغة الذين يسمعون، أى لغتى الثانية، لأعبر عن يقينى المطلق بأن لغة الإشارات هى لغتنا الأولى، إنها لغتنا، التى تسمح لنا أن نكون كائنات إنسانية "متواصلة". وكى أقول أيضا إنه لاشىء ينبغى أن يكون مرفوضا بالنسبة للصم، وأن من الممكن استخدام كل اللغات، دون جيتو أو نبذ، كى نخطو نحو الحياة.

- ٢ -
صرخة النورس

كنت أطلق الصرخات، كثيرا من الصرخات، صرخات حقيقية.

ليس لأننى كنت جائعة، أو عطشى، أو خائفة أو مريضة، ولكن لأننى كنت قد بدأت أرغب فى "أن أتكلم"، ولأننى كنت أرغب فى أن أسمع نفسى، فالأصوات لم تكن ترتد إلى مسامعى.

كنت أهتز. فأعرف أننى أصرخ، ولكن الصرخات لم تكن تعنى شيئا بالنسبة لأمى أو أبى. بل كانت، على حد قولهما، صرخات حادة لطائر البحر، مثل نورس يحوم فوق المحيط. وهكذا، أطلقوا على اسم النورس.

كان النورس يصرخ فوق المحيط، مطلقا جلبة لايسمعها، هو ولا هم يفهمون صرخة النورس.

قالت أمى: " كنتِ طفلة جميلة جدا، ووُلدتِ دون أية صعوبات، كنت تزنين ثلاثة كيلوجرامات ونصف الكيلوجرام ، كنت تبكين حين تشعرين بالجوع، وكنت تضحكين، وكنت تثغثغين مثل بقية الأطفال، وتلهين. لم نفهم على الفور. كنا نظنك طفلة عاقلة، لأنك كنت

تنامين نوماً عميقا فى الحجرة المجاورة للصالون حيث كان صوت الموسيقى يكسر الرأس فى ليالى الحفلات مع الأصدقاء. وكنا نشعر بالفخر لأن طفلتنا عاقلة. اعتقدنا أنك "طبيعية"، لأنك كنت تديرين رأسك حين يصفق الباب. لم نكن نعرف أنك كنت تستشعرين الذبذبات عن طريق الأرض، التى كنت تلعبين عليها، وعن طريق إحلالات الهواء. وكذلك، حين كان والدك يدير أسطوانة، كنت ترقصين فى مكانك، حيث تلعبين، محاولة حفظ توازنك وتحريك ساقيك وذراعيك."

كنت فى السن التى يلعب فيها الأطفال على الأرض، على الأربع، ويبدأون فى الرغبة فى قول ماما أو بابا. ولكننى لم أقل شيئا. ألاحظ الاهتزازات عن طريق الأرض. فكنت أشعر بذبذبات الموسيقى وكنت أصاحبها مُطلِقَة صرخات النورس. هذا ما قالوه لى.

كنت «نورسًا» يلحظ ما حوله، وكان لدى سر، كان لدى عالمى. كان والداى ينتميان إلى عائلة من البحّارة. فأمى ابنة، وحفيدة وأخت لآخر البحارة الذين وصلوا لنهاية قارة أمريكا الجنوبية. لهذا أطلقوا علىّ النورس. هل كنت خرساء أم نورس (مُويَت أم مُووَت)؟ هذا التشابه الصوتى المثير يجعلنى أبتسم الآن.

أول من قال: " إيمانويل تصرخ لأنها لا تسمع نفسها" هو عمى فيفو، الأخ الأكبر لوالدى.

قال والدى: "كان هو أول من نبّهنا"

وقالت أمى: "إنه مشهد ثبت فى ذاكرتى إلى الأبد ، كصورة ساكنة."

كانا والداى يفضلان ألا يصدقا ذلك. لدرجة أننى على سبيل المثال، لم أعلم إلا متأخرا جدا، أن جدىّ لوالدى قد تزوجا فى كنيسة المعهد الوطنى للشباب الأصم فى بوردو، والذى كان مديره هو حمو جدتى!! كانا قد "نسيا" ذلك!! ربما ليخفيا قلقهما، وكى لا يواجها الحقيقة. فى المجمل، كانا فخورين بألا يكون لديهما "مزعجة" صغيرة توقظهما مبكرا فى الصباح. وهكذا اعتادا المزاح بتسميتى النورس، كى لايعبرا عن خوفهما من اختلافى.

يقولون: إن المرء يصرخ بما لا يريد أن يفصح عنه، أما أنا فأصرخ لأحاول أن أسمع الفرق بين الصمت وصرختى. لأعوض كل هذه الكلمات التى أراها تتحرك فوق شفاه أمى وأبى، والتى كنت أجهل معناها. وبما أن والدىّ قد أسكتا قلقهما، فربما توجب أن أصرخ لهما أيضا، فمن يدرى؟

قالت أمى:

«الطبيب»، أعتقد أنى مجنونة. ولم يعد يصدقنى. فكانت قصة الذبذبات التى تلاحظينها تتكرر. ولكن حين كان يصفق أحد بجانبك أو خلفك، لم تكونى تديرين رأسك فى اتجاه الصوت. وكان يناديك أحدهم ولا تجيبين. وكنت أشعر تماما بهذه الأشياء الغريبة. وكنت تتفاجئين حتى تقفزى لأعلى، عندما كنت أصل إلى جانبك

تماماً، وكأنك لم ترينى إلا فى اللحظة الأخيرة. اعتقدت، أولاً، أن الأمر يتعلق بمشكلات نفسية، وطالما أن الطبيب لم يكن يصدقنى، إذن فكان يراكِ طوال الشهور؟

«كنت على موعد معه كى أشركه فى مخاوفى مرة أخرى. قال لى صراحة: "سيدتى، أنصحك بكل جدية أن تعتنى أنت بنفسك!»

«وهنا، صفق الباب عمدا، ولأنك استدرت، مصادفة، أو لأنك استشعرت الذبذبات، أو ببساطة لأن سلوكه كان مثيرا لفضولك، فقال: «ها أنت ترين أنه عبث!!»

«كنت غاضبة منه، وغاضبة من نفسى لأننى صدقته، وبعد تلك الزيارة، بدأنا أنا ووالدك فترة من القلق والملاحظة المستمرة. كنا نصفر، ونناديك، ونصفق الأبواب، وكنا نتابعك وأنت تصفقين بيديك، وتتحركين كما لو كنت ترقصين على الموسيقى... كنا نصدق الأمر، ثم لم نعد نصدقه، لقد كنا ضائعين.

" حين بلغت الأشهر التسعة، اصطحبتك إلى متخصص، قال على الفور إنك ولدت صماء صمما عميقا. كانت الصدمة قاسية. لم أكن أستطيع تقبلها، وكذلك والدك. قلنا لأنفسنا إنه خطأ فى التشخيص، وإنه أمر مستحيل". ذهبنا إلى رؤية متخصص آخر، وكم كنت أتمنى أن يبتسم، ونعود إلى منزلنا مطمئنين.

«ذهبنا مع والدك إلى مستشفى تروسو، كنت على ركبتى، وهناك، فهمت. حيث عرّضوك، فى غرفة الفحص، لأصوات قوية للغاية، كادت تجرح لى طبلة الأذن بينما ظللت أنت كالتمثال.

"طرحت بعض الأسئلة على المختص: ثلاثة أسئلة.

ـ هل ستتكلم؟

ـ نعم، ولكن سيستغرق ذلك وقتا طويلاً.

ـ ماذا نفعل؟

ـ أجهزة، وتأهيل مبكر للنطق ، وبالأحرى ممنوع اللغة الحركية.

ـ هل أستطيع مقابلة صمّ بالغين؟

ـ لن تكون فكرة سديدة، فهم ينتمون إلى جيل لم يعرف التأهيل المبكر. وسوف تنخفض معنوياتك وتشعرين بالإحباط.

" كان والدك منزعجا تماما، وكنت أبكى. من أين جاءت تلك المصيبة» ؟ أهو جين وراثى؟ أم بسبب مرض ما أثناء فترة الحمل؟ كنت أشعر بالذنب، وكذلك والدك. وبحثنا فى العائلة دون جدوى عمن يمكن أن يكون أصم من أحد الطرفين."

«إننى أدرك الصدمة التى تلقياها. فالآباء دائما ما يؤثّمون ويبحثون عن المذنب؟ ولكن أن نجعل الآخر ، سواء كان الأب أو الأم ، هو المسئول عن صمم الطفل، لهو أمر رهيب بالنسبة للطفل. ولا يجب أن يفعلاه.

بالنسبة لى، لا يعرف أحد، ولن يعرف أحد أبدا. وهو أفضل بالتأكيد.

قالت أمى إنها لم تعد تعرف ماذا تفعل معى. كانت تنظر إلى، وهى غير قادرة على إيجاد ما يمكن أن يخلق الصلة بيننا. وفى بعض الأحيان، لم تعد تنجح حتى فى اللعب معى. ولم تعد تقول لى شيئا. كانت تفكر: "لن أستطيع بعد الآن أن أقول لها أحبك، لأنها لا تسمعنى."

كانت فى حالة صدمة. لا تحرك ساكنا، ولم تعد تستطيع التفكير.

منذ طفولتى المبكرة، والذكريات كانت غريبة. هناك فوضى فى رأسى، وتتابع من الصور دون علاقة تربط بينها. كما لو كانت مشاهد فيلم تظهر الواحد تلو الآخر، مع أشرطة سوداء طويلة، ومساحات طويلة مفقودة.

فيما بين صفر وسبع سنوات، كانت حياتى مليئة بالفجوات. فلا أمتلك إلا ذكريات مرئية. مثل لقطات من الماضى. وصور أجهل تتابعها التاريخى. أعتقد أنه لم يكن شىء منها فى رأسى، فى هذه الفترة. فالمستقبل، والماضى، كانا على خط المساحة الزمنية نفسه. فكانت أمى تقول الأمس... وأنا لم أكن أفهم أين يكون الأمس، وماذا يكون الأمس. ولا الغد. ولم أكن أستطيع أن أسأل عنه. فقد كنت عاجزة. لم أكن واعية للوقت الذى كان يمر بكامله. كان هناك ضوء النهار، وظلام الليل، وهذا كل شىء.

دائما ما عجزت عن تحديد التواريخ المتعلقة بالفترة من صفر إلى سبع سنين. وكذا عن ترتيب ما فعلته.

كان الوقت لا يتقدم. وكنت أكتشف المواقف فى مكانها. ربما كانت هناك ذكريات غارقة فى رأسى، ولكن دون وجود لصلات العمر بينها، ولم أستطع أن أجدها. الأحداث، وينبغى أن أقول المواقف والمشاهد، لأن كل شىء كان مرئيا. وكنت قد عشتها جميعا كما لو كانت موقفاً وحيدا، هو موقف اللحظة الآنية. وفى محاولة تجميع «بازل» طفولتى المبكرة كى أكتب، لم أجد إلا صورا غير مكتملة.

والمدركات الأخرى، كانت فى حالة فوضى يتعذر تذكرها. كانت غارقة فى تلك الفترة، حيث كنت أعبر دون أن أدرى كيف، مع هذا الغياب للغة والكلمات المجهولة والوحدة وحائط الصمت. تقول أمى:

" كنت تجلسين فى سريرك، وكنت ترينني بدهشة وأنا أختفى وأعود. لم تكونى تعرفين أين كنت أذهب، فى المطبخ، على سبيل المثال؛ كنت صورة لأم تختفى، ثم أم تعود، دون صلة تجمع بين الاثنتين.

- ٣ -
صمت الدُمى

بدأ تعليم التواصل بطريقة بوريل ـ مايسونى، مع سيدة فائقة، متخصصة فى تعليم النطق، عرفت كيف تنصت إلى حزن أمى، وتتحمل غضبها، ودموعها. كانت تلعب معى بالدُمى، والماء والأكل. فأظهرت لأمى أنه من الممكن إقامة علاقة معى، وأن تجعلنى أضحك، كى أواصل العيش كما كان الحال "قبل" أن تعرف أننى صماء.

تعلمت كيف أنطق « أ»، و «ب»، و«س» ، فكانوا يقدمون لى الحروف بحركات الفم واليد .

كانت أمى تَحضَر الجلسات. وكانت موجهة لى بقدر ما كانت موجهة لأمى. ومن خلال التماهى مع هذه السيدة، تعلمت أمى من جديد كيف تتحدث إلى. ولكن طريقتنا فى التواصل كانت غريزية، حيوانية، وهو ما كنت أسميه " سُرِّية". كانت عبارة عن أشياء بسيطة، مثل الأكل، والشرب، والنوم. لم تكن أمى تمنعنى من أن أقوم ببعض الحركات. فيما كانوا قد نصحوها بذلك. ولم يطاوعها قلبها أن تمنعنى عن ذلك. كان لدينا إشارات أخرى خاصة بنا، مبتكرة بكاملها. تقول أمى:

«كنت تجعليننى أضحك وأبكى فى آن، حين تحاولين التواصل معى بشتى السبل! كنت أدير وجهك ناحية وجهى، كى تحاولى قراءة كلمات بسيطة، وكنت تومئين فى الوقت ذاته، كم كان ذلك جميلاً ولا يقاوم."

يا ترى كم مرة أدارت وجهى ناحية وجهها، لتقوم بهذه المواجهة بين الأم والطفل، التى هى رائعة ورهيبة، وتساعدنا فى مسألة اللغة؟

منذ هذه اللحظة، لم يعد أى مكان للآخر، لأبى. وحين كان يعود أبى من العمل، كان الأمر أكثر صعوبة، كنت أقضى بعض الوقت معه، لم يكن لدينا شفرة "سُرِّية"، كنت أنطق بعض الكلمات بشكل متقطع ولكنه تقريباً لم يكن يفهمها قط. كان يعانى من رؤية أمى تتواصل معى بلغة حميمة لم يصل هو إليها. كان يشعر أنه معزول. وقد كان كذلك طبيعيا جدا ، لأنها كانت لغة لا نستطيع تقاسمها نحن الثلاثة، ولا تقاسمها مع أى شخص آخر. كان يريد التواصل معى مباشرة، وهذا الإقصاء كان يثيره. فعندما كان يعود مساء، لم نكن نستطيع تبادل أى شىء. وغالبا ما كنت أجذب أمى من ذراعها لأعرف ما كان يقوله. كم رغبت فى "التحدث" معه. وفى أن أعرف الكثير منه.

كنت قد بدأت أقول بعض الكلمات. مثل كل الأطفال الصم، كنت أضع جهازاً سمعيا، تحملته بشكل جيد تقريبا. كان يحدث ضوضاء

فى رأسى. يستحيل تمييزها، أو استخدامها فى شىء ما، كان مُتعِبا أكثر من أى شىء آخر. ولكن كان يتعين وضعه، وفقا للقائمين على التأهيل!! كم مرة سقطت السماعات فى الحساء؟

تقول أمى إن العائلة كانت تعزى نفسها بالعبارات الشائعة:

"إنها صماء، ولكن كم هى جميلة! "

"ستكون ذكية للغاية! "

كان عندى مجموعة رائعة من الدمى، كم، لا أعرف. ولكننى عندى دمى. كم عمرى؟ لا أعرف. تقريبا نفس عمر الدمى. وموقفى مثل موقف الدمى، صماء. فى وقت الذهاب إلى النوم، ينبغى أن أرتبها، وأن تكون مصفوفة، كنت أغطيها، ولابد أن تكون أيديها فوق الغطاء. ثم أغلق عيونها. كنت أقضى وقتا طويلاً فى الاهتمام بهذا الترتيب قبل أن أرقد. وربما أتحدث إليها، بالتأكيد، بالشفرة ذاتها التى أتحدث بها مع أمى. إشارة النوم. وحين تكون كل الدمى فى السرير، كنت أستطيع الرقاد والنوم.

إنه أمر غريب، أن أرتب الدمى بنظام منهجى، فيما رأسى غير مرتب تماماً. فكل الأشياء كانت مبهمة ومختلطة. وتساءلت لماذا كنت أفعل ذلك. لماذا كنت أقضى قروناً فى ترتيب الدمى . وكانوا يدفعوننى بقوة كى أرقد. يستفز ذلك أبى، ويستفز كل الناس. ولكننى لا أستطيع النوم إذا كانت الدمى غير مرتبة. يجب على صفُّها جيدا، العيون مغلقة، والأغطية مضبوطة تماما، والأذرع

تعلوها. يحدث ذلك بتحديد شيطانى، فيما كل شىء فوضوى فى رأسى. ربما أرتب كل ما عشته فى النهار، وفى الفوضى، قبل الذهاب إلى النوم. ربما أعبر عن ترتيب هذه الفوضى. أثناء النهار، أنا فوضى. وأثناء الليل، أنا مرتبة تماما وفى هدوء، كما الدمية. فالدمية لا تتكلم.

عشت فى الصمت لأننى لم أكن أتواصل. لابد أنه هو، الصمت الحقيقى؟ الظلام التام لعدم إمكانية التواصل؟ بالنسبة لى، العالم بأسره كان صمتا مظلما، ماعدا والدىّ، وبالأخص أمى.

الصمت ذو معنى إذن، ولكن بالنسبة لى فقط، معنى يتمثل فى غياب التواصل. بكلمات أخرى، لم أعش قط فى الصمت التام، فلدى ضوضائى الشخصية، والتى لا يمكن تفسيرها للذين يسمعون. وعندى خيالى، وخيالى له ضوضاؤه المُصوّرة. إننى أتخيل أصواتا ملونة . فصمتى مُلون، وليس أبيض وأسود على الإطلاق.

والضوضاء الخاصة بالذين يسمعون هى أيضا مصورة، بالنسبة لى، هى أحاسيس. فالموجة التى تجرى على الشاطئ، هادئة ورقيقة، هى إحساس بالسكينة، والهدوء. والأخرى التى تهب وتركض، الموجة المستديرة، تمثل الغضب. والرياح، هى شعرى الذى يطير فى الهواء، والنداوة والرقة على جِلدى.

الضوء أمر مهم، فأنا أحب النهار، لا الليل. أنام على أريكة فى صالون الشقة الصغيرة لوالدىّ. والدى طالب فى كلية الطب،

ووالدتى معلمة. لقد أوقفت دراساتها كى تربينى. لسنا أثرياء ، فالشقة صغيرة. هناك مفاهيم أجهلها تماما، فتنظيم المجتمع والعالم للذين يسمعون غريب على تماماً. فى الليل ، كنت أنام وحدى على الأريكة. إننى أرى تماما اليوم، تلك الأريكة ذات الألوان الصفراء والبرتقالى. كما أرى منضدة من الخشب البنى، ومائدة غرفة الطعام، بيضاء ذات قواعد. دائما ما توجد صلة بين الألوان والأصوات التى أتخيلها، لا أستطيع القول إن الصوت الذى أتخيله لونه أزرق أو أخضر أو أحمر، ولكن الضوء والألوان تدعم تخيل الضوضاء، وإدراك كل موقف.

ففى الضوء، أستطيع التحكم فى كل شىء بعينىَّ؛ فالظلام مرادف لعدم التواصل، أى للصمت. غياب الضوء: يسبب الذعر. فيما بعد، تعلمت أن أطفئ الأضواء قبل النوم.

لدى ذِكرَى خاطفة عن ظلام الليل. كنت فى الصالون، ممددة على مرقدى، وأرى عبر النافذة ظلال الإنارات على الحائط. كم أرعبنى ذلك، كل هذه الأضواء التى تجىء وتذهب من جديد .لا أزال أحتفظ بالصورة فى رأسى. لم تكن المساحة بين الصالون وغرفة والدىّ مغلقة؛ إنها حجرة كبيرة مفتوحة، دون باب. يوجد بها كرسى وسرير، والأريكة الكبيرة ذات الوسائد الكثيرة، حيث أنام. أرانى طفلة، ولكن لا أعرف كم عمرى. أننى خائفة. خوف طوال الوقت، من أنوار السيارات، من تلك الصور التى تجىء على الحائط ثم تذهب من عليه.

أحيانا، كان والدىّ يشرحان لى أنهما سيخرجان، لكن هل كنت أفهم حقا، قصة الخروج تلك؟ بالنسبة لى، كان رحيلا، أى تَركا. فالوالدان كانا يختفيان ثم يعودان. لكن هل سيعودان؟ ومتى؟ لم يكن لدى مفهوما متى. لم أكن أمتلك الكلمات لأقول لهما، فلم أكن أمتلك لغة، ولا أستطيع التعبيرعن القلق. إنه الرعب.

أعتقد أننى ربما كنت أخمن بعض العصبية فى سلوكهما لأنهما سوف "يختفيان"، ولكن دائما ما كان رحيلهما مفاجأة بالنسبة لى، لأننى كنت ألاحظهما فى الليل. فكانا يقدمان لى العشاء، ويرقداننى، وينتظران حتى أنام، وعندما يفترضان أننى غرقت فى النوم، كانا يعتقدان أن بإمكانهما الرحيل، وأنا، لم أكن أعرف ذلك. وكنت أستيقظ وحدى. ربما كنت أستيقظ بسبب هذا الرحيل. وكنت أخاف من الأنوار، كما لو كانت أشباحا على الحائط.

لم أكن أستطيع أن أقول هذا الخوف، ولا أن أشرحه. لابد أن والدىّ كانا يعتقدان أن لا شىء يمكن أن يوقظنى، لأننى كنت صماء! ولكن الأضواء كانت أصواتا متخيلة، ومجهولة، وتثير قلقى بشكل كبير.

لو كنت أستطيع أن أفهم بنفسى، ما كانا ليتركانى وحيدة. فلابد من وجود أحدهما بجانب الطفل الأصم فى الليل، مع طفل أصم، بالتأكيد لابد من أحد.

عندى كابوس فى رأسى. أنا داخل سيارة، فى الخلف، وأمى تقود السيارة. أنادى على أمى، وأرغب فى سؤالها بعض الأسئلة، وأريد أن تجيبنى، أنادى، وهى لا تدير رأسها. أصررت. وحين استدارت فى النهاية لتجيبنى، وقعت الحادثة، وانتهت الحال بالسيارة فى مسيل مائى. أرى الماء حولى رهيبا. وغير محتمل. وقعت الحادثة بسبب خطأ منى، وهو ما أيقظنى فى قلق بالغ.

أثناء النهار، غالبا أنادى أمى كى نتواصل. أريد أن أعرف ما يحدث، أريد أن أكون دائما فى مجريات الأمور، إنه احتياج. فهى الوحيدة التى تفهمنى حقيقة، بهذه اللغة المبتكرة منذ البداية، هذه اللغة "السُرِّية"، الحيوانية، هذه الشفرة الخاصة، الغريزية، المكونة من إيماءات وحركات. لدىّ الكثير من الأشياء المختلطة فى رأسى، والكثير من الأسئلة، بحيث أحتاج إليها طوال الوقت. هذا الكابوس حيث لم تكن تُجيب فيه، ولاتدير رأسها لتنظر إلىّ، كان يمثل قلقى العميق فى هذا العمر.

بالنسبة للأطفال الذين يتعلمون لغة الإشارات فى وقت مبكر جدا، أو من لديهم والدان صم، الأمر مختلف. فهم يحرزون تقدما ملحوظا. وأُذهل من التطور الذى يحققونه. أما أنا، فكنت متأخرة تماما، فلم أتعلم هذه اللغة إلا فى سن السابعة. أما قبلها، كنت بالتأكيد كـ "المعتوهة" بعض الشىء أو الغجرية.

إنه جنون، كيف كان ذلك يحدث من قبل؟ فلم يكن لدى لغة. كيف استطعت تكوين نفسى؟ كيف فهمت. كيف كنت أتصرف لأنادى الأشخاص؟ كيف كنت أتصرف لأطلب شيئا؟ غالبا ما أرى نفسى أومئ.

هل كنت أفكر؟ بالتأكيد. لكن فى أى شىء؟ فى غضبى من التواصل بشكل مطلق. فى هذا الإحساس بأن تكون محبوسا خلف باب هائل، والذى لم أكن أستطيع فتحه كى أفهم الآخرين.

وكنت أجذب أمى من كمّها، ومن ثوبها، وأريها أشياء، أشياء عديدة، كانت تفهم، وتجيب.

كنت أتقدم ببطء. وكنت أيضا أحاكى كلمات. "ماء" على سبيل المثال، هى الكلمة الأولى التى نطقتها. كنت أحاكى ما كنت أراه على شفتى أمى. لم أكن أسمع نفسى، ولكننى كنت أؤدى "أو" ، الفم يُؤدى "أو". ال "أو" توجد اهتزازا فى الحلق أى ضوضاء خاصة بالنسبة لأمى. وهكذا أصبحت الكلمات كلماتى بالنسبة لى ولها، بحيث لا يمكن أن يفهمها أحد. كانت أمى تريد أن أجبر نفسى على الكلام، وكنت أحاول أيضا لأساعدها، ولكن بالأحرى كانت عندى رغبة فى الإظهار، والإشارة لكى أعبر عن رغبتى فى التبول، كنت أشير إلى الحمام، وكى آكل، كنت أشير إلى ما أريد أن آكله، وكنت أضع يدى على فمى.

حتى سن السابعة، لم تكن هناك كلمات، ولا عبارات فى رأسى. بل صور فقط. وعندما كنت أجذب أمى، لأقول لها شيئا، كنت أريد

ألا تنظر فى مكان آخر، فقد كنت أنا، وجهى، ولا ينبغى لها أن تنظر إلى شىء آخر. أتذكر ذلك، أى أنه كان هناك فكر، لأننى كنت "أفكر" فى التواصل، وأريده.

كانت هناك مواقف خاصة. على سبيل المثال، عند اجتماع العائلة. هناك أناس عديدة تتحرك أفواههم كثيرا. كنت أشعر بالملل. وأغادر إلى حجرة أخرى، لأنظر إلى الأشياء. كنت أمسكها بيدى كى أراها جيدا. وبعد ذلك، كنت أعود وسط الناس وأجذب أمى. أن أجذب أمى، يعنى أن أناديها. كى تنظر إلىّ، وكى تفكر فىّ. كان ذلك صعبا فى وجود الناس: فكنت أفقد التواصل معها. وكنت وحيدة على كوكبى، وكنت أريد أن تعود إليه. فهى كانت الصلة الوحيد بينى وبين العالم. كان أبى ينظر إلينا، ودائما لا يفهم شيئاً.

أرى أبى غاضبا. أرى تعبيرا خاصا. فأسأل:

" لست على ما يرام"

كنت أقوم بإيماءات تعبر عن غضب أبى. وهو يجيب:

"كلا، كلا، أنا بخير!"

فى بعض الأحيان، أجذب أمى كى تترجم، لأننى كنت أريد أن أعرف المزيد، أريد أن أفهم ما يحدث. لماذا، لماذا ... أرى الغضب على وجه أبى. ولكنها لا تستطيع الترجمة طوال الوقت. حينئذ أجد نفسى فى الصمت المظلم.

حين يكون هناك أناس، أنظر كثيرا إلى الوجوه. وألاحظ كل اللزمات. فهناك أناس لا ينظرون إلى جارهم على المائدة وهم يتحدثون. ويلعبون بأدوات المائدة. وخصلات الشعر. إنهم صور تؤدى أشياء. لا أستطيع قول ما أشعر به. إننى أرى. أرى أنهم سعداء، أو غير سعداء. أرى ما إذا كانوا عصبيين. أو ما إذا كانوا لا ينصتون إلى الآخرين. فلى عيون لأسمع بها، ولكنها محدودة. أرى جيدا أنهم يتواصلون فيما بينهم عن طريق الفم؛ وهنا يكمن اختلافى بلا شك. فهم يحدثون ضوضاء بأفواههم. أما أنا، فلا أعرف ماذا تعنى الضوضاء. ولا الصمت أيضا. فهاتان الكلمتان، بلا معنى.

إلا أنه، ما من صمت داخلى. فأنا أسمع صفيرا حادا جدا. وأعتقد أنه يأتى من مكان آخر، من خارج نفسى، ولكن كلا، إنها ضوضائى، فلا يوجد غيرى الذى يسمعها. هل أنا ضوضاء داخلية، وصمت خارجى؟

كان لابد من تثبيت جهاز سمعى لى عند سن تسعة أشهر. فالأطفال الصغار الصم غالبا ما يضعون جهازا ذا سماعتين موصولتين بشريط، ذى مكبر على الصدر ؛ إنه جهاز أحادى الصوت. لا أتذكر أننى قد سمعت شيئا به. ربما ضوضاء؟ ولكنها ضوضاء أسمعها أيضا، مثل ذبذبات السيارات المارة فى الشارع، وذبذبات الموسيقى؛ ومع الجهاز تصبح قوية بشكل غير محتمل. ولكن ضوضاء الأطفال، كلا. فالألعاب كانت خرساء.

أرهقتنى تلك الضوضاء القوية جدا، تلك الضوضاء التى لا دلالة لها، والتى لا تحمل لى شيئا. كنت أخلع الجهاز لأنام، فالضوضاء كانت تقلقنى. ضوضاء قوية بلا اسم، ولا صلة، كان ذلك يضغط علىّ. تقول أمى:

"اختصاصية النطق قالت لنا ألا نقلق، وإنك قد تتكلمين. لقد أعطونا الأمل. إنك ربما " تسمعين" بمساعدة إعادة التأهيل والأجهزة السمعية. متأخرة بالتأكيد، ولكنك قد تصلين إلى ذلك. كنا نتمنى أيضا، ولكن أن تنتهى بك الحال تسمعين فعلاً فى يوم ما، أمر غير منطقى على الإطلاق،. إنه لسحر، كان صعبا جدا تقبل كونك ولدت فى عالم مختلف عن عالمنا».

- ٤ -

بطن وموسيقى

انطلاقا من تركيب الجهاز السمعى لى، بدأت أميز الفرق بين الذين يسمعون والصم، ولكننى أجهل متى. ببساطة، لأن الذين يسمعون لا يضعون جهازا. فكان هناك من يضعون الجهاز، وهناك الآخرون. كان تمييزا بسيطا.

كانت لدىّ الرغبة فى أن أقول أشياء، أشياء كثيرة، لكن كان هناك هذا الحائط، لذلك، كنت حزينة، وكنت أرى والدى حزينا، وكذلك أمى. كنت أشعر حقا بالحزن، وكنت أريد أن يبتسم والداى، وأن يكونا سعيدين، كنت أريد أن أمنحهما السعادة. ولكننى لم أكن أفهم كيف أمنحها لهما. كنت أقول لنفسى: "ماذا لدى، أنا؟ لماذا يشعران بالحزن بسببى؟ " لم أكن قد فهمت بعد أننى صماء. فقط أفهم أن هناك اختلافا ما.

الذكرى الأولى؟ ليس هناك ذكرى أولى ولا أخيرة عن طفولتى فى حالة الفوضى داخلى. هناك أحاسيس. وهناك العيون والجسد لتسجيل الإحساس.

إننى أتذكر البطن. أمى حامل بأختى الصغرى، أشعر بالذبذبات بقوة كبيرة. أشعر أن هناك شيئا ما. الوجه غائص فى بطن أمى، إننى "أسمع" الحياة. يصعب على تخيل أن هناك طفلا فى بطن أمى. بالنسبة لى، مستحيل. فأنا أرى إنسانا، أيوجد إنسان ثان داخل الإنسان نفسه؟ قلت إن هذا غير حقيقى. إنها نكتة. لكننى كنت أحب بطن أمى، وضوضاء الحياة داخلها.

أحب أيضا بطن أبى، فى المساء،حين يتناقش مع أصدقاء، أو مع أمى. أشعر بالتعب، أتمدد بالقرب منه، رأسى مقابل بطنه، وأشعر بصوته. فصوته يمر عبر بطنه حيث أستشعر الذبذبات. يهدئنى ذلك، ويطمئننى، إنه مثل الهدهدة. فأنام مع هذه الذبذبات كما لوكانت أغنية أطفال تتردد فى رأسى.

إن الإدراك الجسدى للخلافات، مختلف: فأمى تضربنى على ردفى. أتذكر الضربة. كان لا بد أن أفهم لماذا يضربوننى على ردفى، لا أتذكر ذلك. أمى تذهب بعدها، تؤلمها يداها ، وأنا تؤلمنى ردفاى. تبكى اثنتانا. لم يضربنى والدى قط، إذن أعتقد أنها كانت غاضبة جداً، ولكننى أجهل لماذا. إنها الذكرى الوحيدة عن العقاب.

بكلمات أخرى، علاقتى بالخلافات مع أمى كانت معقدة. على سبيل المثال، لا أريد أن آكل شيئًا. تقول أمى:

"لابد أن تنتهى من طبقك."

وأنا لا أريد. حينها، تلعب لعبة الطائرة بالملعقة الصغيرة. ملعقة لأبى، وأخرى لجدتى... أفهم تماما قصتها... وملعقة لى. أفتح فمى وأبلع. ولكن قد يحدث أننى لا أريد أن آكل. لا يمكن إطلاقاً. فأتشاجر معها. إن النورس غاضب. وحين يفيض بى الكيل، كنت أترك المائدة. ويظنون جميعاً أننى أمزح، ولكن كلا. كنت أرتب حقيبتى، وأضع فيها الدمى، كنت غاضبة حقا. وأريد الرحيل.

الحقيبة كانت حقيبة دُمى. فلم أضع فيها معطفى، بل وضعت معاطف الدمى معهم. لا أعرف لماذا. ربما كانت الدمى هى أنا، وأننى كنت أريد أن أُظهر أن من يرحل هو أنا. كنت أذهب إلى الشارع. وأمى تشعر بالذعر، وتلحق بى. كنت أفعل ذلك حين أكون فى حالة غضب شديد، وحين نتشاجر. إننى إنسانة، ولا يمكن أن أكون مطيعة طوال الوقت. ينبغى أن أكون متفقة دائما مع أمى، ولكننى أريد أن أكون شخصا مستقلا. فإيمانويل مختلفة. وكلانا مختلف، هى وأنا.

ألعب مع والدى، نتسلى، ونضحك كثيرا، لكن هل كنا نتواصل حقا؟ لا أعرف. ولا هو كذلك. وهو يعانى من ذلك. عندما عرف أننى صماء، تساءل على الفور ماذا قد أفعل لأسمع الموسيقى. وحين اصطحبنى معه إلى الحفلات الموسيقية، وأنا صغيرة ، كان يريد أن ينقل لى ولعه، أو ربما كان "يرفض" كونى صماء. عن نفسى، كنت أجد ذلك شيئا رائعا. فإن عدم وضع عوائق بينى وبين الموسيقى لأمر رائع على الدوام. كنت سعيدة لكونى معه. واعتقدت أننى كنت

أستقبل الموسيقى بعمق؛ ليس بالأذن: بل بجسدى . طالما احتفظ والدى بالأمل؛ فى أن يرانى أفيق من سبات طويل. مثل بطلة "الجمال النائم". وكان مقتنعا أن الموسيقى ستفعلٍ هذا السحر؛ لأننى كنت أهتز على صوت الموسيقى، وكان هو مهووسا بالموسيقى الكلاسيك، والجاز، والبيتلز، فكان يصطحبنى إلى الحفلات الموسيقية، وكبرت وأنا أعتقد أن بإمكانى مشاركته فى كل شىء.

فى ليلة ما، كان عمى فيفو ، الذى كان موسيقيا ، كان يلعب الجيتار. إننى أراه، الصورة صافية فى رأسى. والعائلة بكاملها تستمع. أراد أن أن يجعلنى أشاركه فى الجيتار. قال لى إن أعض على يد الجيتار. وعضضت، وأخذ هو يلعب. بقيت أعض لساعات. وشعرت بكل الذبذبات فى جسدى، بكل الأصوات الحادة والأصوات الخفيضة. دخلت الموسيقى إلى جسدى، واستقرت، وأخذت تلعب داخلى. وأمى تنظر إلى، فى حالة ذهول تام. وتحاول أن تفعل الشىء ذاته، ولكنها لا تحتمل. تقول إن له صدى رنانا فى رأسها.

كما كانت هناك علامات أسنانى على جيتار عمى.

كم كنت محظوظة لأتعرف الموسيقى فى طفولتى. فبعض آباء الأطفال الصم يقولون لأنفسهم، إن الأمر لا يستحق العناء، ويحرمون الطفل من الموسيقى. وبعض الأطفال الصم يسخرون من الموسيقى. أما أنا، فأعشقها. إننى أشعر بالذبذبات. كما يؤثر فى مشهد الحفل. وآثار الضوء، والجو العام، والجمهور فى الصالة، هم

أيضا ذبذبات. كنت أشعر أن الجميع هنا من أجل هدف واحد. الساكسفون الذى يبرق بلمعات ذهبية، كم هو رائع. ونافخو البوق الذين تنتفخ أوداجهم. والنغمات الخفيضة. إننى أحس بقدمى وجسدى بأكمله إذا تمددت على الأرض. وأتخيل الضوضاء، دائما ما أتخيلها. فمن خلال جسدى ألحظ الموسيقى. الأقدام حافية على الأرض، تتشبث بالذبذبات. بهذه الطريقة أراها، ملونة. فالبيانو ملون، وكذا الجيتار الكهربائى، والطبل الأفريقى، وصوت الطبل. إننى أهتز معها. لكن الكمان لم أستطع إدراكه. لا أستطيع استشعاره بقدمى. فالكمان يحلق عاليا، لا بد وأنه حاد مثل العصفور، مثل أغنية العصفور، يتعذر إدراكه. إنه نوع من الموسيقى العالية، المتجهة نحو السماء، وليس نحو الأرض. فالأصوات فى الهواء لابد وأن تكون حادة، والأصوات فى الأرض لا بد وأن تكون رخيمة. والموسيقى هى قوس قزح، تتراقص ألوانه. أحب الموسيقى الأفريقية من أعماقى. تم- تم، إنها موسيقى تأتى من الأرض. أستشعرها بقدمى، ورأسى، وجسدى كاملاً. أما الموسيقى الكلاسيكية، فصعبة بالنسبة لى. إنها عالية جدا فى الهواء، لا أستطيع إدراكها.

والموسيقى هى لغة عالمية ، تتخطى الكلمات. إنها الفن الأكثر جمالاً، والذى ينجح فى جعل الجسد الإنسانى يهتز. من الصعب معرفة الفرق بين الجيتار والكمان. وإذا كنت جئت من كوكب آخر، وقابلت بشرا يتحدثون بطريقة مختلفة، فإننى على يقين من أننى

كنت سأفهمهم، من خلال ملاحظتى لمشاعرهم. ولكن حقل الموسيقى واسع جدا، وهائل، غالبا، ما أضيع فيه. فهو ما يحدث داخل الجسد. إنها علامات توضع من أجل الرقص. مثل نار المدفأة. النار ذات الإيقاع، صغير، كبير، صغير، أسرع، أبطأ... ذبذبات، عاطفة، وألوان فى إيقاع سحرى.

إن الأصوات الشادية غموض، ولمرة واحدة انحل هذا الغموض. لا أعرف متى، ولا فى أى سن. يبدو كأنه الآن، حين رأيت كالا Callas فى التليفزيون. كانا والداى يتفرجان وأنا جالسة معهما أمام الشاشة. رأيت امرأة قوية، تبدو ذات شخصية قوية. وفجأة، ظهرت صورة مكبرة، وهنا شعرت فعلاً بصوتها. وأنا أنظر إليها بتركيز، أدركت كيف يمكن أن يكون صوتها. إننى أتخيل أغنية ليست مبهجة، لكن أرى جيدا أن الصوت يأتى من العمق، من بعيد، وأن هذه السيدة تغنى من بطنها، من أحشائها. أثّر فىّ ذلك بشكل رهيب. هل سمعت حقا صوتها؟ لا أعرف مطلقا. لكننى أحسست بالفعل بعاطفة ما. إنها المرة الوحيدة التى يحدث فيها مثل هذا. لقد لمستنى ماريا كالا. إنها المرة الوحيدة فى حياتى التى أشعر فيها بصوت يغنى وأتخيله.

لا يؤثر فىّ المطربون الآخرون على الإطلاق. حين أنظر إليهم، فى كليب على التليفزيون، أشعر بكثير من العنف، صور كثيرة تتلاحق، ولا نفهم شيئا. ولا أنجح حتى فى تخيل الموسيقى

المصاحبة للصور، فهى تمر سريعا جداً. ولكن هناك بعض المطربين، مثل كارول لور، جاك بريل، جون جاك جولدمان، والذين... عرفت كلامهم.

ومايكل جاكسون! حين أراه يرقص، أشعر أنه جسد كهربائى، وإيقاع الموسيقى كهربائى، يرتبط عندى بالصورة الكهربائية، وأشعر أنه كهربائى.

الرقص، إنه فى الجسد. وأنا فى سن المراهقة، كنت أعشق الخروج إلى النوادى الليلية مع أصحابى الصم. إنه المكان الوحيد الذى يمكن أن ندير فيه الموسيقى دون الاكتراث بالآخرين. كنت أرقص طوال الليل، والجسد ملتصق بالحوائط، والجسد يهتز مع الإيقاع. والآخرون، الذين يسمعون، كانوا ينظرون إلى، مندهشين. لابد وأنهم يظنوننى مجنونة.

- ٥ -

قط أبيض - قط أسود

كان أبى يذهب بى إلى الحضانة، كنت سعيدة أن أذهب إليها معه. ثم كنت أجد نفسى وحيدة فى ركن، بصدد صنع رسومات. فى المساء، كنا نصنع رسومات كثيرة ، أنا وأمى. كما أتذكر لعبة الكوتشينة. كل منا له ألوانه. كانت أمى ترسم رسما وأنا أضيف إليه عينا أو أنفا كنت أعشق ذلك. كانت هناك رسومات فى كل مكان.

أرى أيضا صالة، وقرصا غريبا يدور، وعليه فرخ ورق. وأنا أعرض رسومات بكل الألوان على الورق، وكذلك أمى، وتتبعثر الألوان مع سرعة القرص، بشكل عشوائى. لا أفهم مطلقا كيف يحدث ذلك. لكنه جميل.

كما نشاهد رسوما متحركة فى التلفاز أو السينما. وأتذكر تيتى وجروسمينى Titi et Grosminet بعد مضى ربع الساعة من الفيلم وأنا منخرطة فى البكاء، والنشيج ، لدرجة أقلقت أمى. كنت أرى الآخرين يضحكون من إذلال جروسمينى Grosminet، أما أنا فلم أفهم لماذا يجدون ما يحدث مضحكا. كنت أعانى كثيرا من قسوة الأطفال تلك. فمن الظلم أن يمسكوا جروسمينى ويسحقوه

بالحائط. هكذا كنت أرى الأمر. ربما كنت شديدة الحساسية. كما كنت أحب القطط كثيرا.

كان عندى قط أبيض. بالنسبة لى ، لم يكن له اسم، هذا القط. لكننى كنت سعيدة لوجوده معى. كنت أنططه فى الهواء، وألعب به كما لو كان طائرة. وكنت ألعب بالهليكوبتر معه. وأجذبه من ذيله. بالتأكيد، كان لعبا جهنميا، ولكنه كان يعشقنى. كنت أقضى وقتى فى إزعاجه، ولكنه كان يعشقنى أيضا.

فُتِحَت بطنه، لا أدرى كيف، ولا متى. كان ذلك فى الريف وقد اهتم به والدى ، الذى درس الطب؛ حين التجأ إليه، ولكن الحال لم تسر على ما يرام. مات القط. وسألت عما جرى. وأجاب والدى: "انتهى الأمر". كان ذلك يعنى أنه اختفى، أنه قد رحل. وأننى لن أراه مجددا.

لم أكن أعلم ما يعنيه الموت. ففى الأيام اللاحقة، واصلت السؤال عن مكان القط. وشرحوا لى ثانية أن الأمر انتهى، وأنه لن يعود مجددا أبدا. "أبدا"، لم أكن أفهم. وكذلك لا أفهم الـ"موت". فلم أكن أفهم إلا شيئا واحدا فى النهاية: موت، انتهى الأمر، انتهى. كنت أظن أن الكبار لا يموتون. الكبار يرحلون ويعودون. ولا ينتهون أبدا.

ولكن لا تنطبق الحال علىَّ، فقد "أرحل" مثل القط. فلم أكن أرانى أصبحت كبيرة. بل أرانى سأظل صغيرة جدا. طوال حياتى. كنت أظننى محصورة فى حالتى الراهنة. وبالأحرى، كنت أظن

نفسى الوحيدة، الوحيدة فى العالم. إيمانويل صماء، وما من أحد آخر كذلك. إيمانويل مختلفة، إيمانويل لن تصير كبيرة أبدا.

لم أكن أستطيع التواصل مثل الآخرين، أى أننى لم أكن أستطيع أن أكون مثل الآخرين، مثل الكبار الذين يسمعون. إذن فقد "أنتهِى". وفى بعض الأوقات، حين لا أنجح مطلقا فى التواصل، ولا فى قول ما أريد أن أطلبه، ولا أن أفهم، أو عندما لا يكون هناك إجابة، حينها كنت أفكر فى الموت. كنت أشعر بالخوف. أعرف الآن لماذا: فلم أر قط بالغين صما. لم أر إلا أطفالا صما، فى الفصل المختصص بالحضانة التى كنت فيها. لهذا، كان فى ذهنى أن الأطفال الصم لا يكبرون أبدا. سوف نموت جميعا، كما نحن، صغيرين جدا. وأعتقد حتى إننى لم أكن أعرف أن الكبار الذين يسمعون كانوا صغاراً من قبل!! فلم يكن هناك أى مرجع متاح.

وعندما رأيت أن القط لم يعد له وجود، وأنه "رحل"، حاولت، بالفعل، أن أفهم، بكل قواى. قطعا، كنت أريد رؤيته ثانية، هذا القط، كى أفهم. أن أرى، لأن وحدها عينىّ هما ما تجعلاننى أفهم الأشياء. لم يجعلونى أرى القط الميت. بقيت مع فكرة "الرحيل". كم كان ذلك معقدا.

حين ولدت أختى الصغيرة، كان هناك قط آخر أسود. أعطيناه اسما، كان يدعى" بوبين". أبى هو من اختار الاسم، متذكرا "فورت دا" لفرويد، على حد قوله. كان يلعب طوال الوقت ببكر الخيط، كان يعرف أننى صماء. وأنا كنت أعلم أنه يعرف. كان ذلك واضحا.

عندما يجوع بوبين، كان ينادى أمى، ويموء وراءها، ويلف حولها، ويقفز فى مرأى عينيها، ولكنها كانت تسمعه بالتأكيد. فى البداية، حاول معى، وفهم أننى كنت لا أجيب، وهو ما أزعجه. حينئذ، وقف أمامى تماما، ليموء فى وجهى. كان ذلك واضحا: كان قد فهم أنه يتعين عليه أن يغوص بعينيه الخضراوين الجميلتين فى عينى كى أسمعه. كانت لدى الرغبة فى التواصل معه. أحيانا، وأنا على السرير كان يأتى ويداعب قدمى كى نلعب. كنت أرغب فى أن أقول له إنه " مزعج". كنت أحاول عن طريق بعض الحركات، كنت أقول له: " توقف، إنك تضايقنى." لكن بلا فائدة. كنت أفهم حين يكون غاضبا: حينها، لم يكن يجيبنى. فيبدو تمثالاً قط.

حين رأيت Titi et Grosminet تيتى وجروسمينى، ورأيت كل هذا العنف ضد القط المسكين، كنت مرعوبة من تيتى Titi ، فقد كان غير مكترث، وكان يشاغب القط. يا له من صغير جميل مسكين، فهو لم يكن يفهم شيئا وناله ما يكفيه. فهو ساذج، وتيتى وقح.

أبحث عن استقلالية صعبة فى هذا العالم الصعب. وصلت بصعوبة إلى نطق كلمة "صعب" " ديفيسيل" ولكننى قلتها:

" إنه تيفيتى"

من "تيفيتى" ؟ ، أن تقول "تيفيتى"

إنه "تيفيتى" أن أكون موجودة وحدى ، دون والدتى. جربت أن أغامر وأصنع أشياء دون مساعدة حبلى السرى. وحدى تماما؛ كى

أقلل شعورى بالملل. كنت فى أى عمر؟ تلك المغامرة كانت قبل أم بعد موت القط؟ لا أدرى. قلت:

"سوف أذهب بمفردى إلى الحمام."

فى الحقيقة، لم أقل لوالدتى. فهى جملة قلتها فى رأسى. عادة، كنت أنادى والدتى لأفعل ذلك. ولكننا كنا عند أصدقاء، وكانت مشغولة بالثرثرة، ولن تهتم بى، إذن سأتصرف وحدى

دخلت الحمام، وأغلقت على نفسى الباب بالمزلاج مثل الكبار. يستحيل أن أخرج ثانية. ربما أننى أقفلت المزلاج، أغلقته بشكل خاطئ. لا أعرف. أخذت أصرخ، وأخبط على الباب . إننى محبوسة، لن أستطيع الخروج مجددا: إنه القلق. أمى كانت موجودة خلف الباب؛ سمعت الضربات، ولكننى لم أكن أعرف، بالتأكيد. وفجأة، انقطع التواصل تماما. كان هناك حائط بين أمى وبينى حقيقة، إنه لأمر مرعب.

إننى متأكدة أن أمى تحاول طمأنتى، لابد وأنها قالت: " لا تقلقى، ابقى هادئة." لكن، فى هذه اللحظة، لم أستطع أن أسمعها، لأننى لم أكن أراها. واعتقدت أنها ظلت تثرثر مع صديقتها. وأننى وحيدة. كنت أشعر بخوف رهيب. سوف أظل طوال حياتى حبيسة هذا المكان الصغير، وأن أصرخ وسط هذا الصمت!

أخيرا رأيت ورقة تتسلل أسفل الباب. صنعت أمى رسما، لأننى لا أعرف القراءة. كان هناك صورة طفل يبكى، شطبت هى عليه.

وبجانبه، صورة طفل يضحك. فهمت أنها خلف الباب وأنها تقول لى أن أبتسم، وأن كل شىء سيكون على ما يرام. ولكنها لم ترسم أنها قد تفتح هذا الباب. قالت إننى يجب أن أضحك، وألا أبكى. وأنا كنت مذعورة طوال الوقت. وأشعر أننى أصرخ. أشعر بذبذبات أحبالى الصوتية. إذا أطلقت صوتا حادا، لا تهتز الأحبال الصوتية أبدا. لكن حين أصرخ أستخدم الطبقة العريضة، فأشعر بالذبذبات. كنت أهتز حتى كاد نفسى ينقطع.

قبل أن يصل الحداد ليفتح هذا الباب، أى هذا الحائط الذى كان يعزلنى عن أمى، لابد وأننى صرخت طويلاً، مثل نورس غاضب فى العاصفة.

- ٦ -

«تَأْب»[1]

كل شىء صعب، فأبسط الأشياء بالنسبة لطفل يسمع تمثل صعوبة بالنسبة لى.

دراستى فى الحضانة، فى فصل لتأهيل الطفل الأصم. زملائى الأول، حياتى الاجتماعية بدأت هنا.

معلمة النطق نجحت فى أن تجعلنى أنطق بعض الكلمات المسموعة. وبدأت أعبر عن نفسى بمزيج من النطق والحركات على طريقتى. تقول أمى: " حتى سن الثانية، كنت تذهبين إلى مركز إعادة تأهيل، يقع أعلى مركز استشارى للأمراض التى تنتقل عن طريق العلاقات الجنسية. كان ذلك يغضبنى. هل الصمم؛ مرض مخجل؟ بعد ذلك، ألحقناك بحضانة الحى. فى يوم ما، جئت أبحث عنك، كانت المعلمة تحكى قصصا للأطفال، لتعلمهم اللغة. وكنت

(١) «تَأْب» هو النطق غير السليم لكلمة «صعب» حيث كانت إيمانويل لابورى تنطق بعض الكلمات بشكل غير صحيح. وقد استخدمت فى النص الأصلى لفظ tiffiti باعتباره النطق غير السليم لكلمة difficile أى صعب. (المترجمة)

أنت فى ركن، وحيدة، جالسة إلى طاولة، ولا يهتم بك أحد على الإطلاق، وترسمين، ولا يبدو عليك أنك سعيدة ".

ما من ذكرى خاصة عن هذه الفترة. صحيح، أننى أرسم. فالرسومات مهمة بالنسبة لى، فهى تحل محل التواصل. فبإمكانى التعبير عن بعض مما يملأ رأسى من أسئلة بلا إجابات. ولكن هذه الحضانة، بفصلها المدعو مختلطا ، نسيتها. أو أُفضِّل نسيانها. إنها حقاً للتأهيل. كل هؤلاء الصبية الجالسين فى دائرة حول المعلمة لتحكى لهم قصة؟

ما الذى أفعله هنا، وحيدة تماما، أمام رسوماتى؟ ماذا أتعلم هنا؟ فى رأيى، لا شىء. ما فائدة ذلك؟ ويُسعِد من؟ فأنا ألعب فى الفناء لعبة نط الحبل.

لدى بعض الصور. واحدة على الأخص. إنها استغاثة طفل. جاء أبى ليبحث عنى. كنت أغسل يدى عند الصنبور فى الفناء. قال:

" أسرعى، سنذهب."

لا أدرى كيف قال ذلك، كيف فعلها ليوصل لى معلومة أن أسرع كى نذهب، ولكننى استشعرتها. ، لابد وأنه دفعنى قليلاً، ولابد وأنه قد بدا عليه التعجل ، ولم يكن هادئا. على أية حال، خمنت الموقف من سلوكه: "ليس أمامنا وقت كثير. أما أنا فكنت أريده أن يفهم موقفا آخر، موقفا يعنى: " لم أنته من غسل يدى." وفجأة، لم يعد موجودا. بكيت دموعا حارة. فقد حدث سوء فهم. ولم نفهم بعضنا

بعضا. إنه رحل، واختفى وأنا بقيت هنا، وحدى تماما، أبكى. هل أبكى بسبب سوء الفهم بيننا أم لأننى وحيدة؟ أم لأنه اختفى؟ أعتقد أننى كنت أبكى بالأحرى، بسبب سوء التفاهم.

هذا المشهد الصغير هو مثال رمزى لسوء التفاهم الدائم تقريبا، بينهم وبيننا، بين الذين يسمعون والصم. فأنا لا أفهم المعلومة إذا لم أرها. بالنسبة لى، هو مشهد أمزج فيه الأحاسيس الجسدية وملاحظة الإيماءات. وإذا تم التعبير عن الموقف بسرعة، فيصعب على التأكد من أننى قد فهمته. ولكننى أحاول الإجابة عنه بالإيقاع ذاته. أبى فى هذا اليوم أمام الصنبور وأنا أغسل يدى، لم يفهم إجابتى. أو أنا التى لم تفهمه جيداً. وعاقبة سوء الفهم هذا، هى أنه رحل!

بالتأكيد، عاد ليبحث عنى، بعد بعض الوقت الذى لا أستطيع تحديده، ولكنه كان وقتًا من الوحدة واليأس. وبعد ذلك، لم أستطع أن أشرح له دموعى. لأنه فى أعقاب موقف غير مفهوم، يتعقد كل شىء. موقف آخر يحدث، هو أيضا من الصعب إدراكه مثل سابقه.

كم هى غريبة، هذه الصورة. فلا أعرف إذا كانت ذكرى حقيقية أو إذا كنت أتخيلها. إلا أنها رمز صارخ، على صعوبات التواصل مع أبى فى هذه المرحلة.

"تئب" هى كلمة طفولية، ولدت من هذه الصعوبة. فى يوم ما، لابد وأننى كنت أكبر، كنا وحدنا، هو وأنا. كان يطهو لحمًا. أراد أن

يعرف إذا كنت أريدها مطهوة جدًا، أو ليست مطهوة تماما... وأرى أنه يحاول أن يشرح لى الفرق بين المطهو والنىء، والفرق بين البارد والساخن بمساعدة جهاز التدفئة. فهمت ماذا يعنى البارد والساخن، لكننى لم أفهم المطهو والنىء. استغرق ذلك وقتاً طويلاً. وأخيرا، غضب وقام بطهو قطعتى اللحم بالطريقة ذاتها.

مرة أخرى، وفى سن أخرى، كان يطالع التلفاز. وإحدى شخصيات الفيلم كان يدعى لابورى Laborie مثلنا لكن ب e وانخرط على قطعتين من الورق ليشرح لى الفرق بين " t " التى هى فى نهاية اسمنا وبين "e " فى نهاية اسم الشخصية. كان أمرا يتعذر فهمه، فأجبته بلا توقف:

" إنه تئب. تئب" وهو لا يفهم ما أنطقه، وبعد أن أنهكت، تركنا الأمر نحن الاثنين، فى انتظار أن تصل أمى. حينها، سألها عما كنت أريد أن أقوله، وانفجرت هى فى الضحك:

"إنه صعب"!

كان "تئب" بالنسبة إليه أيضا كما بالنسبة لى، وكان يتحمله بصعوبة. وفى الحقيقة، أنا أيضا. إن طفولة طفل أصم، بها من الانكسار والحساسية أكثر مما عند أى طفل آخر.. أعرف أننى غالبا ما كنت أنتقل من الغضب إلى الضحك.

غضب، حين أكون على الطاولة، على سبيل المثال، ولا يهتم أحد بالتواصل معى. كنت أخبط على الطاولة، بعنف. أريد أن "أتكلم".

أريد أن أفهم ما يُقال. لم أعد أطيق أن أظل حبيسة حاجز الصمت، الذى لا يحاولون كسره. إننى أبذل مجهودا طوال الوقت، أما بالنسبة لهم فما يفعلونه ليس كافيا. فالذين يسمعون لا يبذلون ما يكفى من المجهود. أريدهم أن يبذلوه.

أتذكر سؤالاً كان فى رأسى: كيف يفهمون بعضهم حين يديرون ظهورهم لبعض؟ كان "تتب" بالنسبة لى التأكد من إمكانية التواصل دون أن تكون الوجوه فى مواجهة بعضها بعضا. أما أنا، فلا أستطيع الفهم إلا حين أكون فى مواجهة من يكلمنى. ولا أستطيع مناداة أحدهم إلا بجذبه من طرفه. من الكم، أو من أسفل الثوب، أو البنطلون. وحين أقوم بذلك، فإننى أريد أن أقول: "انظر إلىّ، أرنى وجهك، وعينيك، حتى أفهم."

أن أرى، فدون الرؤية، أضيع. فينبغى لى أن أرى تعبير النظرة، وحركات الفم.

وأنادى بصوتى أيضا، أنادى والدى عندما يلعب على البيانو. أنبح "بابا، بابا"، كى ينظر إلى فى النهاية. ولكن بالنسبة له ماذا يقول؟ لا أدرى.

و"أخبط" أيضا، أخبط على أمى، وأدير رأسها بقوة نحوى.

عندما يأتى الطبيب، يبحث عن المكان الذى يؤلمنى، فيضغط، حتى أصرخ. وهكذا يكون تواصلى الطفولى مع الطبيب عندما أكون مريضة.

فعلت أشياء كثيرة فى الخفاء. قمت بكل تجاربى.

أعشق الدواء الشراب. وأنهى كل الزجاجات فى الخفاء، وهو ما يجعلنى مريضة. فلم يخبرنى أحد أنه مضر. كيف أفهم أنه مضر، وهو حلو المذاق، وطيب، ويستخدم فى شفاء المرض لأن الطبيب هو من يصفه!

أعشق " السوسيس" وأسرقه، وأخفيه فى دولابى، بين صف الثياب، وفى أى مكان. كانت أطراف السوسيس المقضومة بأسنان نهمة هى ما أطلقت الرائحة النفاذة التى نبهت أمى. فالسوسيس بالنسبة لى هو حلوى الطفولة.

ربما أننى قد بلغت الخامسة أو السادسة من عمرى. أذهب الآن، إلى المدرسة مع أطفال صم. والمعلمة تعرف أننى صماء ، فلم أكن معزولة. تعلمت العد بالدومينو. وتعلمت الأبجدية، وكنت أرسم. إن الذهاب إلى المدرسة يمثل متعة، الآن.

عندى صاحب صغير أصم، يأتى ليلعب فى المنزل. كانوا يضعوننا فى حجرة. إن التواصل أسهل بيننا. فلنا إشاراتنا وإيماءاتنا الشخصية.

نحن نلعب بالنار، والشموع. لأنه ممنوع. أحب تجربة ما هو ممنوع.

كنا نشاهد Goldrock ونحاكيه بإيماءاتنا ، ونلعب بالعرائس، ونتشاجر ونحن نحرك قدمينا باستمرار.

أشاهد كثيرا والدىّ فى معيشتهما، وأحاول أن أستعيد ذلك فى ألعابى. أنا، ألعب دور الأم المسئولة عن المنزل. الوجبات، والطبخ. وهو يهتم بالأطفال، بالعرائس. يعود من العمل. ونومئ:

-"أنت، افعل هذا. وأنا، أفعل هذا."

- كلا، أنا سأفعل هذا."

ونتشاجر ثانية، هكذا كانت اللعبة.

إدراك الفرق بين امرأة ورجل، هو أيضا "تتب". فقد رأيت تماما أن والدتى لديها ثديان، وأبى ليس لديه مثلهما. ويرتديان بشكل مختلف، فأحدهما ماما، والآخر بابا.

أريد أن أعرف أيضا الفرق بين صديقى وبينى.

كنا فى إجازة فى الريف، فى لير Lurs ونلعب فى الماء نحن الاثنان، ولأننا كنا صغارا، فلم نكن نرتدى مايوهات. حينئذ، كان الفرق مرئيا بينه وبينى. وجدت ذلك مضحكا. إنه أمر بسيط، فقد فهمت: نحن طفلان أصمان، ولكننا لسنا متماثلين تماما.

أنا، أشبه والدتى، ولكنها تسمع، وأنا لا. هى كبيرة، وأنا لن أصبح كبيرة. صاحبى الصغير وأنا سريعًا ما "سننتهى". فهو الوقت الذى لم نر فيه صمًا بالغين بعد. ومن المستحيل بالنسبة لنا أن

نفكر فى أن المرء يمكن أن يصير كبيرا وهو أصم. ما من أى مرجع، ولا أية مقارنة تسمح بذلك. إذن "سنرحل"، و"ننتهى" سريعا. سنموت فى النهاية.

وحين سأموت، أعتقد أن "روحى" ستذهب إلى جسد طفل آخر، ولكن هذا الطفل سيكون يسمع. ولم يكن لدى تفسير لهذا التحول الغريب. كيف عرفت أن لدى روحا؟ وكيف كنت أسمى الروح فى هذا العمر؟

فهمتها على طريقتى حين شاهدت رسوما متحركة فى التليفزيون. إنها قصة بنت صغيرة. على الصور، لم نعد نرى والديها لوقت طويل. إذن، وبالنسبة لى، فهما قد رحلا، كما رحلت القطة البيضاء... الرحيل يساوى الموت. أعتقد إذن أنهما ماتا. ثم وجدت البنت الصغيرة والديها. كانوا الأشخاص الموجودين أنفسهم فى البداية، كان واضحا؛ أنها تاهت منهم، ببساطة. أما أنا، فحكيت لنفسى حكاية أخرى: الوالدان عادا من الموت واندمجا فى أجساد أخرى. هذا هو ما أسميه روحا: "الرحيل والعودة" . هذا هو الروح، شىء يمتلكه الإنسان أو يكونه الإنسان، شىء يرحل ويعود.

عند الخامسة أو السادسة، يبقى تعليم المفاهيم صعبا حتى بالنسبة لطفل يسمع؛ وبالنسبة لى ، لا يمكن أن يقوم إلا على صور مرئية. ونتيجة ذلك هى أنه عندما "سأنتهى" ، وأرحل فى دورى، وكذلك صاحبى الصغير، ستعود أرواحنا فى أجساد أطفال أخرى.

ولكنهم، سيسمعون. وإذا كنت كطفل أصم قد قررت فى رأسى أن الطفل الآخر الذى سيأخذ مكانى سيسمع، فربما يرجع ذلك إلى أننى فى هذه السن كنت أعانى من كونى لا أسمع. وأننى لم أمتلك بعد لغة تجعلنى حرة.

تعين على أن أمزج اختفاء القطة البيضاء بهذه الرسوم المتحركة لأُكوِّن لنفسى فكرة عن الموت.

وتعين أن أطلب من صاحبى الصغير أن يرينى عضوه الصغير، على البلاج، كى أفرق بين الآباء والأمهات. وفى هذا، لا أعتقد أن هناك فرقا كبيرا بين الصم والذين يسمعون.

إنه "تثب" أن أفهم العالم، ولكننا نتدبر أمرنا.

الفرق الرئيسى فى هذا العمر، قبل لغة الإشارات، يتمثل بالنسبة لى فى عنصرين: الحتمية المطلقة لأن أرى كى أسمع. أسمع بالمعنى القديم لأن أفهم. وحين أرى ، يكون من المستحيل أن أرى بطريقة أخرى. أو أن يتكون موقفان انطلاقا من العنصر المرئى ذاته. على سبيل المثال، أحب كثيرا أجدادى لأمى . ولم يكن التواصل سهلاً، ولكنهم كانوا يهتمون كثيرا بى، عندما كنت فى سن الحضانة. وإذا بحثت عن الذكرى الأولى المصورة عنهم، أجدها كلبا!

هل هذا الكلب فى ذاكرتى قبل موت القطة البيضاء؟ أم بعده؟ فى جميع الأحوال، إنه موقف فى الذاكرة يرتبط بالأجداد، والفهم

الخاضع لمفهومين لاثنين من الذين يسمعون إلى موقف أصم بالنسبة لى.

الموقف الأول: هذا الكلب، سمين أحمر، وموجود مع سيده. إنه لطيف، وباستطاعتى مداعبته.

الموقف الثانى: رحل سيده إلى العمل، الكلب بمفرده فى السيارة. اقترب من السيارة، وافتح الباب، وهو ينبح فى وجهى. وكشف عن أنيابه، أشعر بالذعر. من قبل، كنت أداعبه، والآن يريد أن يعضنى! لم أكن أستطيع، حينئذ، أن أتخيل سلوكين مختلفين لصورة الحيوان ذاتها. بالنسبة للموقف الأول، لم يشرح لى أحد المفهومين "لطيف أو شقى" بخصوص الكلب.

استشعرت الخطر، وأخذت أجرى، والكلب يجرى خلفى ، عضنى من كتفى وسقطت. وصل والدى، وهرب الكلب.

أراد والدى أن يعطينى حقنة. ولم أكن أريد، فذلك يفزعنى. تعرف أمى أننى أخاف من ذلك، وهى تريد أن تطمئنى. فى أعلى رأسى، كانا يشوحان، أحدهما يريد الحقنة والآخر يطمئننى. ومناقشة تدور بينهما، ولا ألاحظ فيها سوى تهديد تلك الحقنة المفزعة. كنت أريد أن أنجو بنفسى عند أجدادى. كانت صورتهم تمثل الحماية الكاملة. بحثت عن ملجأ أحبه. (ومع ذلك أخذت الحقنة).

هذا التفكير فى الهرب، يراودنى فى كل مرة يريدون فيها فرض شىء ما علىّ، أو حين لا أفهم. حين يتعلق الأمر بأن أنهى طبق الشوربة، أو بالحقنة، أو بعوائق أيًا ما كانت، كنت أعترض قدر استطاعتى، لأننى لا أستطيع الكلام. فالفعل يحل عندى محل الكلام. وفى الحقيقة يجب أن أقول، إن شخصيتى تمتزج مع هذا السلوك من الهرب أمام الأوامر. فأنا مستقلة، ذات إرادة ومتصلبة الرأى. ووحدة الصمت ربما هى ما جعلتنى كذلك. "تئب" أن أقول ذلك.

- ٧ -

أنا أدعى «أنا»

تعلمت أن أقول اسمى فى المدرسة. إيمانويل. لكن إيمانويل كانت شخصا غريبا عنى بعض الشىء. أو كازدواج. وحين أحدّث نفسى، أقول:

"إيمانويل لا تسمعك ...."

"إيمانويل فعلت هذا، أو ذلك.."

أحمل داخلى إيمانويل صماء، وأحاول أن أتحدث إليها، كما لو كنا اثنتين.

كما أعرف أن أقول بعض الكلمات الأخرى. ونجحت فى نطق البعض على نحو جيد تقريبا، وكلمات أخرى لم أنجح. والطريقة النطقية تقوم على وضع اليد على حنجرة المعلم بهدف استشعار الذبذبات المصاحبة للنطق. علمونى ر ، ال ر تهتز مثل "را ". وعلمونى الـ ف، و تش. الـ "تش" كانت مشكلة بالنسبة لى، لم ينضبط نطقها قط. من الساكن إلى المتحرك، وبخاصة الحروف الساكنة، وننتقل إلى الكلمة بأكملها. نكرر الكلمة ذاتها لساعات.

أحاكى ما أراه على الشفاه، وأضع يدى على رقبة معلم النطق، كنت أعمل كقرد صغير.

فى كل مرة تُنطق فيها كلمة، يُدوَّن تردد معين على شاشة جهاز. خطوط صغيرة خضراء تتراقص أمام عينىّ، تشبه خطوط جهاز رسم القلب الإلكترونى فى المستشفيات. ينبغى تتبع الخطوط الصغيرة التى تصعد وتهبط وتتمدد وتقفز ثم تسقط من جديد.

ماذا تمثل الكلمة بالنسبة لى، على هذه الشاشة؟ تمثل جهدا لابد من عمله كى يصل خطى الأخضر الصغير إلى درجة ارتفاع خط معلم النطق. إنه أمر مُتعِب، فنكرر كلمة تلو الأخرى، دون فهم أى منها. إنه تدريب للحنجرة. إنها طريقة بغبغاء.

الصم لا يصلون جميعا إلى النطق بوضوح، تمييز الحروف عند نطقها، وتأكيد العكس يُعد كذبا. وإذا بلغوا النطق الصحيح، يظل التعبير محدودا.

فى عيد ميلادى المقبل سأكون فى السابعة من عمرى، ولا أزال فى الحضانة. ولكن وجودى، والعالم المحصور حيث أقضى معظم الوقت فى صمت، سوف يُضَاءُ بضربة واحدة.

سمع والدى شيئا فى الراديو، هذا الشىء يعد معجزة تتحقق، ولم أتوقعها قط. فالراديو شىء غامض يتحدث إلى الذين يسمعون، ولا أنشغل به. لكن فى هذا اليوم، وعلى محطة فرنسا الثقافة، قال أبى، هذا الذى يتحدث أصم!

وشـرح أبى لأمى أن هـذا الـرجل، هـو ممـثل ومـخـرج ، يـدعى ألفريدو كورادو، ويتحدث لغة الإشارات فى هدوء. إنها لغة كاملة، ويتم التعبير بها فى الفراغ، بالأيدى، وتعبيرات الوجه، والجسد!

ومترجم، أمريكى هـو الآخر، يترجم بصـوت عـال، بـالفرنسية، للمستمعين. قال: هذا الرجل، أنشأ المسرح المرئى العالمى-IVT In-ternational Visual Theatre-) فى عـام ١٩٧٦ ومـسـرح الـصم فى فينسن Vincennes. ألـفـريـدو كارادو يـعمل فى الـولايات المتحدة الأمريكية. يوجد فى واشنطن جامعة، جامعة جالودى، المخصصة للصم، وأتم فيها دراسات جامعية.

كان والدى تحت تـأثيـر الصدمة. أصم قـادر على إتمام دراسة جامعية، فى الوقت الـذى يكاد يـصل فيه الأصم ،فى فـرنسا، إلى السنة الأولى من المرحلة الثانوية!

وكان سيُجن من البهجة والغيظ فى آن.

من الغيظ، بما أنه طبيب كان يثق فى زملائه المعالجين. وORL ومعلمى النطق، وكل المربين أكدوا له أن تعليم اللغة المنطوقة فقط هـو مـا قـد يـعيننـى عـلى الخـروج من الـعزلـة. ولـكن لم يـعطه أحد معلومة عن لغة الإشارات. إنها المرة الأولى التى يسمع فيها كلاما عنها، وعلاوة على ذلك، يسمعه من أصم.

ومن البهجة، لأن فى فينسن، بالقرب من باريس، ربما، يوجد حل مؤكد لى! يريد أن يصطحبنى إلى هناك. فهو يعانى كثيراً من عدم القدرة على الكلام معى، وهو مستعد لخوض التجربة.

تقول أمى إنها لا تريد أن تصطحبه. فهى تخشى أن تتشوش، وربما تخشى أن تصاب بخيبة الأمل. إنها على وشك الولادة، ستترك أبى يصطحبنى إلى فينسن. تشعر أن الطفل الذى تحمله الآن ليس أصم. فهى تشعر بالفرق بين هذا الطفل الذى لا يزال مختبئاً فى بطنها وبينى. فهو يتحرك كثيرا، وله ردة أفعال على الضوضاء الخارجية. أما أنا، فكنت أنام فى هدوء شديد، فى منأى عن الضوضاء. ووصول الطفل الثانى فى العائلة ، بعد سبعة أعوام تقريبا من ميلادى، هو اهتمامها الأول فى هذه اللحظة. إنها تحتاج إلى الهدوء، وإلى التفكير قليلاً فيه. أتفهم أن المشاعر المصاحبة لهذا الأمل الجديد عنيفة جدا بالنسبة لها؛ فهى تخشى من خيبة أمل جديدة. ثم أننا ، هى وأنا، لدينا نظامنا المعقد فى التواصل، والذى أسميه "سُرّىّ". لقد اعتدناه. أما أبى، فليس لديه شىء. هو يعرف أننى خلقت لأتواصل مع الآخرين، وأننى أرغب فى ذلك بشدة، طوال الوقت. وتلك الإمكانية التى هبطت عليه من السماء عن طريق الراديو، تملأه حماسة.

أعتقد أنها المرة الأولى التى تَقَبّل فيها صممّى، بشكل حقيقى، مقدما لى هذه الهدية التى لا تقدر بثمن. ومقدمها لنفسه، فكم رغب، بلا أمل، فى التواصل معى.

بالطبع، أنا، لا أفهم شيئا، ولا أعرف ما يجرى. كانت علامات التشوش على وجه أبى، تلك هى الذكرى الوحيدة عن هذا اليوم المؤثر بالنسبة له، والرائع بالنسبة لى: الراديو ووجهه.

فى اليوم التالى، اصطحبنى إلى قصر فينسن. أستعيد بعض الصور عن هذا اليوم.

نصعد السلم، فى برج المنطقة. ندخل إلى حجرة كبيرة. وأبى يتناقش مع اثنين ممن يسمعون. اثنين بالغين لا يضعان أجهزة، بالنسبة لى، ليسا صمًا. فأنا لا أتعرف الصم، فى هذا العصر، إلا بأجهزتهم. أى، أحدهما أصم، والآخر لا. أحدهما يدعى ألفريدو كورادو، والآخر يدعى بيل مودى، إنه شخص يسمع ويترجم لغة الإشارات

أرى ألفريدو وبيل يؤديان إشارات فيما بينهما، أرى أن أبى يفهم بيل عندما يتحدث. لكن تلك الإشارات لا تعنى شيئا بالنسبة لى، فقد كانت مدهشة، وسريعة، ومعقدة. فالشفرة المُبسطة التى اخترعتها مع أمى ترتكز على الإيماءات وبعض الكلمات المنطوقة. إنها المرة الأولى التى أرى فيها ذلك. أطالع هذين الرجلين وفمى فاغر. وأرى أيادى، وأصابع تتحرك، والجسد أيضا، وتعبيرات الوجه. كم هو جميل، وساحر.

من هو الأصم؟ من الذى يسمع؟ الأمر ملتبس. ثم قلت لنفسى: "إنه شخص يسمع يتناقش مع الأيدى."

ألفريدو كورادو هو رجل جميل، طويل، ذو أسلوب إيطالى، شعره شديد السواد، وجسده رفيع. والوجه حاد بعض الشىء، ذو شارب. بيل له شعر متوسط الطول، مجعد، عينان زرقاوتان،" شكله حلو". إنه شخص مستدير، ولطيف. يبدو أنهما فى عمر أبى نفسه .

وجون جريميون كان موجودا أيضا، مدير ومؤسس المركز الاجتماعى والثقافى للصم، الذى استقبلنا.

ألفريدو جاء أمامى وقال لى:

"إننى أصم مثلك، وأستخدم الإشارات. إنها لغتى."

أومأت:

" لماذا لا تضع جهازا على أذنك؟"

ابتسم، فمن الواضح، بالنسبة له، أن الأصم لا يحتاج إلى جهاز. فيما يمثل هذا الجهاز سمة مرئية بالنسبة لى.

ألفريدو أصم إذن، دون جهاز، وأكثر من ذلك، إنه بالغ. أعتقد أننى قضيت بعض الوقت لأتفهم تلك الغرابة الثلاثية.

فى المقابل، فإن ما فهمته على الفور، هو أننى لست الوحيدة فى العالم. إنه كشف صادم. وافتتان. أنا التى كنت أظن أننى وحيدة وسأموت طفلة لامحالة، كما يتخيل كثير من الأطفال الصم. اكتشفت أن لى مستقبلا محتملا. لأن ألفريدو كان بالغا وأصم!

هذا المنطق القاسى يدوم، طالما لم يقابل الأطفال الصم بالغين صما. فهم بحاجة إلى هذا التماهى فى البالغين، إنه احتياج حتمى. ينبغى إقناع آباء الأطفال الصم بأن يجعلوهم على صلة ببالغين صم بأقصى سرعة ممكنة، منذ ولادتهم. فلابد وأن يمتزج العالمان، عالم الأصوات وعالم الصمت. فالتطور النفسى للطفل الأصم سيتحقق

أسرع وأفضل كثيرا. وسيتشكّل متخلصا من هذه الوحدة المقلقة الناتجة عن اعتقاده أنه الوحيد فى العالم، دون فكر مُتشكّل ودون مستقبل.

فلتتخيلوا أن لديكم قطا ولم تجعلوه يرى أى قط كبير. ربما سيعتقد أنه سيظل قطا صغيرا مدى الحياة. وتخيلوا أن هذا القط الصغير لا يعيش إلا مع الكلاب. فسوف يعتقد أنه القط الوحيد فى العالم. وسيُنهَك من محاولات التواصل ككلب. وسينجح فى أن يجعل الكلاب تفهم بعض الإيماءات. الأكل والشرب والخوف والحنان، الخضوع أو العدوانية. لكنه كان ليصبح أكثر سعادة وتوازنا مع من هم مثله صغارا وكبارا. وهو يتحدث كقط!

فمن خلال تقنية النطق التى فرضوها على والدىّ منذ البداية، لم أحظ بفرصة أن أقابل بالغا أصم، لأتماهى فيه، وهو ما نصحوا به والدى . ولم يكن لى علاقة إلا بالذين يسمعون.

هذا اللقاء الأول، المذهل، والذى بقيت فيه فاغرة الفم أطالع حركات اليد، لم يترك لى ذكريات محددة. فأجهل ما قيل فيه بين أبى وبين الرجلين. لم يكن هناك سوى الذهول من رؤية أبى يفهم ما كانت تقوله أيدى ألفريدو وفم بيل. كما كنت لا أزال أجهل، فى هذا اليوم، أننى سوف أمتلك جواز المرور إلى لغة بفضلهم. لكن أصبح فى رأسى الكشف الرائع، المتعلق بأن إيمانويل يمكن أن تصبح كبيرة! وهذا هو ما رأيته بعينى.

اصطحبنى والدى إلى فينسن فى الأسبوع التالى. إلى "أتيليه للتواصل بين الآباء والأبناء". هناك الكثير من الآباء. بدأ ألفريدو يعمل مع الأطفال، الذين جلسوا فى دائرة حوله. كان يشير بالإشارات، والآباء ينظرون ليتعلموا فى الوقت ذاته. أتذكر إشارات بسيطة، على سبيل المثال: "منزل"، "يأكل" ، "يشرب" ، "ينام"، "طاولة".

وعلى الأفرخ الورقية للسبورة، رسم منزلا وأظهر لنا إشارته. ثم رسم شخصا بالغا، وهو يقول لنا:

" هذا أبوك، أنت بنت أبوك؛ هذه أمك، أنت بنت أمك."

كما رسم شخصا يبحث عن شىء ما. بالإيماء أولاً، ثم بالإشارة. وسألنى:

" أين تكون أمك؟"

أشرت:

" أمى هناك."

حينئذ صحح لى.

" أمك أين؟ أمك تكون فى المنزل. استخدمى إشارة الأم والمنزل."

جملة كاملة: "أمى تكون فى المنزل." أخيرا، فى عمر السابعة، ها أنا أعبر، بيدى الاثنتين، عن أمى وعن المكان الموجودة فيه!

عيناى فى عينىّ ألفريدو، وأنا أكرر بيدى الفرحتين: " أمى تكون فى المنزل"

فى الأيام الأولى، أتعلم كلمات الحياة اليومية، ثم أسماء الأشخاص. هو ألفريدو، وأنا إيمانويل. إشارة إليه، وإشارة إلىّ. إيمانويل: " هى الشمس التى تنبعث من القلب." فأنا إيمانويل بالنسبة للذين يسمعون، والشمس التى تنبعث من القلب بالنسبة للصم."

إنها المرة الأولى التى أتعلم فيها أنه من الممكن إعطاء اسم للناس. هذا أيضا، شىء رائع. لم أكن أعرف من له اسم فى عائلتى، باستثناء أبى وأمى. كنت أقابل ناسا، أصدقاء لوالدى، وأفراد العائلة ولكنهم كانوا بلا اسم بالنسبة لى، وبلا تعريف. كنت مندهشة للغاية من اكتشاف أنه يدعى ألفريدو ، والآخر يدعى بيل... وأنا، بخاصة، أنا، إيمانويل. فهمت ، أخيرا أن لى هوية. أنا : إيمانويل.

حتى هذه اللحظة، كنت أتحدث عن نفسى كما لو كنت أتحدث عن شخص آخر، شخص لم يكن "أنا". يقولون دائما : "إيمانويل صماء." كانت العبارة : "إنها لا تسمعك، إنها لا تسمعك." لم يكن هناك "أنا". أنا كنت "هى".

بالنسبة لهؤلاء الذين ولدوا، وأسماؤهم فى رؤوسهم، حين يردد الأب أو الأم اسما ما، فإنهم يديرون رؤوسهم عند النداء باسمهم. ربما من الصعب تفهم ذلك. فهويتهم تمنح لهم مع الميلاد. ليسوا

بحاجة إلى التفكير فيه. ولا طرح تساؤلات عن ذواتهم. فقد كانوا "أنا"، وكانوا" "أنا الذاتية، وأنا الفاعل"، بشكل طبيعى، ودون مجهود. فهم يعرّفون أنفسهم، ولهم هوية. ويقدمون أنفسهم للآخرين برمز يمثلهم. لكن إيمانويل صماء ولم تكن تعرف أنها كانت "أنا الفاعل" و"أنا الذاتية". بل اكتشفته عن طريق لغة الإشارات، والآن هى تعرفه. إيمانويل يمكن أن تقول: "أنا أدعى ايمانويل."

هذا الاكتشاف يمثل سعادة، حيث لم تعد إيمانويل هذا الازدواج، الذى يتعين من خلاله أن أشرح بصعوبة الاحتياجات والرغبات والرفض والقلق. لقد اكتشفت العالم من حولى، وأنا فى قلب العالم.

واعتبارا من هذه اللحظة أيضا، مع مخالطتى المنتظمة للبالغين الصم، توقفت تماما عن الاعتقاد أننى سأموت. لم أعد أفكر فى ذلك مطلقا. ووالدى هو من قدم لى هذه الهدية الرائعة.

إنه ميلاد جديد، الحياة التى تبدأ. وأوَّل حائط يسقط. لايزال حولى حوائط أخرى، ولكنه أول ثغرة تنفتح فى سجنى، سوف أفهم العالم بعينىّ ويدىّ. وسأخمنه كذلك. إننى لا أطيق صبراً!

أمامى، يوجد هذا الرجل المبهر الذى علمنى العالم. بالنسبة لأسماء البشر والأشياء: هناك إشارة لبيل، وإشارة لألفريدو، وأخرى لجاك، وأبى، وأمى، وأختى، والمنزل، والطاولة، والقط... سوف أعيش! ولدى الكثير من الأسئلة التى أريد طرحها. الكثير والكثير. إننى شرهة وعطشى للإجابات، حين يستطيع أحدهم أن يجيبنى!

فى البداية ، كنت أمزج وسائل التواصل جميعها. الكلمات التى تخرج منطوقة، والإشارات، والإيماءات. كنت مشوشة بعض الشىء، ومتعثرة. لغة الإشارات تلك هبطت فوقى فجأة، منحوها لى فى عمر السابعة، لابد وأن أنظم نفسى، وأن أفرز كل المعلومات التى تصلنى. التى ليست قليلة. انطلاقا من اللحظة التى أستطيع أن أقول فيها، باستخدام الأيدى، وبلغة أكاديمية سليمة :" أنا اسمى إيمانويل، أنا جائعة. أمى تكون فى المنزل، أبى يكون معى. صديقى يدعى جول، قطى يدعى بوبين..." اعتبارا من هذه اللحظة، يكون هناك كيان إنسانى متواصل، وقادر على أن يبنى نفسه.

لم أتعلم فى يومين، بالتأكيد. فى المنزل، واصلت استخدام اللغة الأمومية قليلاً، بمزجها بالإشارات. وأتذكر أنهم كانوا يفهموننى، ولكننى لا أتذكر الجملة الأولى التى استخدمت فيها لغة الإشارات وفهمنى أحد.

واحدة بواحدة، رتبت الأشياء فى رأسى، وبدأت فى أن أكون فكرا خاصا بى. وتفكيرا منظما. وبخاصة، أن أتواصل مع أبى.

ثم صحبتنا أمى إلى فينسن. ستخرج هى الأخرى، من النفق الذى احتُجِز فيه والدىّ منذ ميلادى حين أعطوهما معلومات مغلوطة وآمالا كاذبة. إنها صدمة لأمى. مكان للقاءات بين الصم. مكان للحياة، للإبداع، لتعليم الصم. مكان للقاء آباء غارقين فى الصعوبات ذاتها ومتخصصين فى الصمم والذين يدينون المعلومات والممارسات الطبية. لأنهم قرروا أن يتعلموا لغة. لغة الإشارات. وليس شفرة، وليس لغة غير مفهومة؛ كلا، بل لغة حقيقية.

تقول أمى عند تذكرها فينسن فى المرة الأولى:

"كنت خائفة بشكل رهيب. كان مثل إجراء كشف تشخيصى ثان. كل هؤلاء الناس كانوا دافئين، ولكننى أنصت لقصص معاناتهم مع أطفالهم. والعزلة الرهيبة الذين عاشوا فيها من قبل. وصعوباتهم كبالغين، وكفاحهم المستمر. لقد تقيأت بسبب ذلك. لقد كنت مخدوعة، خُدِعت حين قالوا لى: " مع إعادة التأهيل والتعليم، ستتكلم..."

يقول أبى:

" كان الأمر سيسير على ما يرام إذا لم أسمع، فى هذا الوقت، أو لم أرغب فى أن أسمع عبارة "يوما ما، ستسمع."

فينسن هى عالم آخر ، عالم واقع الصم، دون تساهل بلا فائدة، ولكنه أيضاً عالم الأمل بالنسبة لهم. بالتأكيد،الأصم يصل إلى الكلام، بشكل جيد أم سيئ، ولكن هذا ليس إلا تقنية ناقصة بالنسبة للكثير بيننا، نحن المصابين بالصمم العميق. فكنت أستشعر فى نفسى، أننى سأقوم بتقدم خارق باستخدام لغة الإشارات، علاوة على النطق والإرادة الجارفة للتواصل.

أول شىء، هو هذا النصر الكبير، وأنا على وشك السابعة من عمرى : أنا أدعى "أنا".

- ٨ -

ماري ـ ماري

عند ميلاد أختى الصغيرة، سألت عن اسمها. إنه ماري.

ماري، ماري، كنت أتذكره بصعوبة. فقررت أن أكتبه على ورقة، عدة مرات، كما نكتب السطور فى المدرسة. غالبا ما كنت أعود إلى أمى لأسألها ثانية عن اسم أختى الصغرى، كى أتأكد... وأكرر: ماري، ماري، ماري...

أنا أكون نفسى، إيمانويل؛ هى تكون هى، ماري.

ماري، ماري، ماري...

"ما اسمها ثانية ؟"

كتبته أكثر من مائة مرة، حرفا تلو الآخر، كى أتذكره مرئيا بشكل جيد. لكن نطقه لا يزال صعبا بالنسبة لى. إننى أعانى كى أنطق اسمها.

اصطحبنى والدى إلى المستشفى كى أرى أختى الصغرى. أشعر بالرعب من المستشفى، فقد رأيت أمى يأخذون منها دما وهى

حامل، كنت مرعوبة لدرجة أننى اختبأت تحت السرير. حتى الآن لا أحتمل رؤية الدم. وأصاب بالرعب من الحقن. مستشفى يعنى حقنة ودما... مستشفى يعنى مكانًا للتهديدات.

كانت أختى فى الحضّانة. هى ليست مبتسرة، لكن لأنه لم يكن هناك تدفئة فى المستشفى، وضعوها هناك، مع آخرين، ببساطة كى لا تبرد.

لا أعرف إن كنت قد شعرت بالسعادة عند رؤيتها. إنها صورة غامضة. ها أنا أرى الحضّانة، وشيئا صغيرا جدا داخلها. من الصعب تخيل شىء ما يتعلق بها. خلف هذا البلاستيك. لم أعد أعرف جيدا. ولكن مشاعرى لم تكن واضحة فى هذه اللحظة. وتساءلت: " هل نحن متماثلتان؟"

لا أعرف إذا كنت طرحت السؤال. كانت المفاجأة هى المسيطرة أمام هذه الرضيعة. وقلقًا غامضًا: هل ستكبر؟

عادت أمى إلى المنزل، وبطنها لم تعد منتفخة، بل مستوية. أعتقد أننى لم أكن أفهم كيف خرج الرضيع منها. كان هناك طفل، وأين ذهب الطفل؟ العلاقة بين الرضيع الذى رأيته وبين بطن أمى المستوية لم تكن واضحة تماما؛ ربما أنه خرج عن طريق الفم، هذا الرضيع؟ أو عن طريق الأذن؟ إنه أمر ملتبس، وشديد الغموض.

العائلة بكاملها كانت تريد أن تعرف ما إذا كانت ماري صماء، بالتأكيد. أما أمي فكانت مطمئنة بالفعل، فأثناء حملها كانت ماري تتحرك كثيرا. وحين تصفق أمي بابا، على سبيل المثال، كانت تشعر بالطفل يصدر رد فعل، ويرفسها بقدمه...

رأيت تماما أن ماري مختلفة عني. ولكن أمي طلبت من متخصص أن يؤكد لها، فلم تكن غريزتها تكفيها. كانت تريد أن يقول لها أحدهم ذلك.

أختي الصغيرة تسمع. لدي أخت صغيرة تسمع "مثل الآخرين".

أفهم أنها مثل والديّ، وأني وحيدة في مقابل ثلاثة.

أعتقد أنني فكرت في البداية في أنها: "ربما ستكون مثلي، وربما سنكون أكثر قوة." أشعر أنني غريبة بعض الشيء ، وسط عائلتي، في هذه المرحلة العمرية. فليس لدي شريك يشبهني، ولا أستطيع التماهي».

هل أعاني من هذا الفرق؟ كلا.

عندما عادت أمي إلى المنزل معها، كنت سعيدة لرؤية هذا الرضيع الصغير بين ذراعيها. وضعوها بين ذراعي، مع إعطائي قائمة من التوصيات، كأن أمسك رأسها، لأنها هشة؛ كنت أخشى من أن أكسرها، فكنت أحملها بحرص.

ما أراه هو أن هذه "الآلة" الصغيرة حيَّة، وأنه ينبغى الانتباه إليها، وعدم هزها بأى شكل مثل العرائس. كنت خائفة بعض الشىء.

قبلها، كان والدىَّ يدلاننى كثيرا، وكان كل اهتمامهم مُنصَبًّا علىّ. أما الآن، فهذا الاهتمام ينصب عليها؛ وأرى جيدا أن الأمور قد تغيرت.

ففى كل مرة تبكى فيها مارى، كانت أمى تركض، وتقفز نحو مهدها. فهى تسمعها، وتفهم متى تكون جائعة ومتى لا تريد أن تنام. أما أنا فكنت متعثرة فى ذلك.

أقول لأمى إننى لا أريد أن يكون لدى أطفال فيما بعد، حين أكون كبيرة. لم تفهم فورا رد فعلى؛ ما الذى يحدث فى رأسى؟ هل أشعر بالغيرة من أختى، لأن أختى ليست مثلى؟

كلا. فالسبب الذى دفعنى وأنا فى السابعة من عمرى أن أقول ذلك هو أكثر بساطة وأكثر أهمية. نجحت، بصعوبة، فى أن أجعل أمى تفهم سبب خوفى، وهو أننى لن أستطيع سماع بكاء طفلى، وبالتالى لن أستطيع الركض مثلها، كى أهدئه، وأساعده حين يكون بحاجة إلى. إنها مشكلة لا يمكن تجاوزها. إذن، لن أنجب طفلاً.

تقول أمى:

"الأم تشعر إذا بكى طفلها. فالأم تربطها روابط خاصة بطفلها. وليست بحاجة إلى أن تسمعه بالضرورة."

«أن أشعر، بالنسبة لى لم تكن إجابة، وكنت أفضِّل أن أسمع طفلى. كم أنا خائفة ".

لم تنجح أمى فى إقناعى بالتخلص من هذا الرفض، فنصحتنى بأن أتحدث فى الأمر مع البالغين الصم فى فينسن:

"فهم سيجيبونك أفضل منى ومن والدك."

فاجأتنى ببساطة إجابتهم: يكفى أن تضعى مكبر صوت صغيرًا أسفل أذن الرضيع. هذا المكبر يصدر إشارة ضوئية حين يبكى الطفل.

فهمت. يوم ما سأصبح أما. فأنا أيضا لى مستقبل كأم.

لو كنت أستطيع تذكر آلاف الأسئلة من هذا النوع والتى تملأ رأسى، لصنعت منها قائمة عن طيب خاطر. ولكن كان ذلك يستحيل علىّ.

علاقتى بالعالم الخارجى كانت شديدة الخصوصية، فى هذه السن. غالبا ما كنت وحيدة، أشعر بالملل وسط عالم يتحدث من حولى. وأحيانا أتعصب لأننى لا أفهم. ويبدو لى أن الآخرين لا يبذلون أى جهد للتواصل، باستثناء والدىّ، والعالم يتوقف عندهما، وعند مارى، التى لا تزال لا تتحدث، ولكنها تثغثغ وتبكى، وتضحك، وتكون محورا للاهتمام كله. أحيانا أقول:

" أنا هنا، أنا! "

ويجيبونني:

"ولكنك لست وحدك. هناك طفل آخر، ويجب أن تتعلمي المشاركة."

في البداية، لم يكن الأمر سهلاً تقسيم مشاعر الوالدين. فقد كنت أريد أن أظل مدللة كثيرا كما كان الحال من قبل.

كنت سعيدة مع الأطفال الصم الآخرين. في المدرسة حاولت أن أعلمهم لغتي الجديدة، لكن ذلك كان ممنوعا. فنحن في فصل نطقيّ، يجب إذن أن أمارس الإشارات في الفسحة. حاولت أن أشرح لأصحابي الصغار أن "بابا" و"ماما" لا يتكلمان كما نفعل في مكان تعليم النطق، ولكن بإشارات. كان من الواضح ، أن الأمر لا يعنيهم. ورأوا أن ما أخبرهم به هو حماقة. هؤلاء الأطفال في عمري نفسه، لكن بالنسبة لهم، قول "بابا" بالشفرة أو الإشارة لا يختلف كثيرا. فيما أشعر أنا باختلاف. إنه تغيير ليس واضحا تماما بعد، ولكنني لم أعد كما كنت في السابق. فثورة صغيرة قد حدثت داخلي، وأرغب كثيرا في مشاركتهم إياها. أرغب في أن أثَوِّر الصم من حولي، وأن أفتح لهم عالما جديدا كما حدث معي. وأن أمنحهم إمكانية التعبير عن أنفسهم بحرية، وأن يصنعوا بأيديهم "زهورا في الفراغ" كما يقول ألفريدو كورادو.

بدأت استخدم الإشارات جيدا. وبين دروس الـIVT ومدرسة الاندماج، كنت أتقدم في الـIVT أكثر من المدرسة، حيث تعلمت

أيضا أن ثلاث عربات صغيرة، بالإضافة إلى عربة صغيرة يساوى أربع عربات؛ وأن أكتب A,B إلى مالا نهاية؛ وأن أقرأ على الشفاه؛ وأن أنهك نفسى فى تكرار المقطع ذاته آلاف المرات مع معلم النطق. أعتقد أن البالغين الذين يسمعون ويحرمون أطفالهم من لغة الإشارات، لا يفهمون مطلقا ما يدور فى رأس طفلهم الأصم. فهناك الوحدة، والمقاومة، والتعطش إلى التواصل، والغضب أحيانا، إلى جانب الإقصاء داخل العائلة، وفى المنزل، حيث الجميع يتكلم دون أن يهتم بك. إذ يتعين أن تطلب دائما، وأن تجذب أحدهم من كُمِّه أو من ثوبه كى ينتبه، قليلاً، قليلاً جدا، إلى ما يدور حوله. وإذا لم تفعل، فإن الحياة تكون فيلما صامتا، بلا عناوين فرعية.

أما أنا، فمحظوظة بوالدىّ. والد هرول إلى فينسن ليتعلم اللغة نفسها التى أتعلمها، وأم تَبِعَت المسيرة ذاتها، ولم تكتف بالتربيت على يدى دون أن تفهمنى حين أشِير لها قائلة:

"أمى، أنا أحبك."

معظم الأطفال فى فصلى كان آباؤهم من أنصار طريقة تعليم النطق. ولن يلتحقوا بدروس تعليم لغة الإشارات فى فينسن. سيقضون أعواما فى محاولة صنع خزنة رنين من حناجرهم، وصناعة كلمات لا يعرفون معناها دائما.

لم أكن أحب معلمات الفصل المسمى " اندماج" فى هذه المدرسة. فهن يردن أن يجعلننى أشبه الأطفال الذين يسمعون. ويمنعننى من

استخدام الإشارات، ويجبرننى على الكلام. فمعهن، كان لدى الشعور بأنه يجب إخفاء كونى صماء، وتقليد الآخرين كما لو كنت إنسانا آليا صغيرا، كما أننى لا أفهم نصف ما يقولونه فى الفصل. لكن فى IVT مع الأطفال والبالغين الصم، أكون فى حال أفضل.

فى تلك السنة، كانت هناك أوقات مرحة وسط عائلتى. مثل: سنتى اللبنية الأولى. فى اليوم الذى وقعت فيه، حكى لى أجدادى قصة الفأرة الصغيرة التى تضع قطعة نقود معدنية أسفل الأذن. وتخيلت الفأرة الصغيرة كما هو الحال فى الرسوم المتحركة ، بأذنيها الصغيرتين الجميلتين. كنت أصدق القصة، مثل كل الأطفال فى سنى. فهى ليست حكاية، بل هى الحقيقة. علاوة على أننى سأتحقق من ذلك.

فى المساء، وضعت، بعناية، سنتى الغالية تحت أذنى، ونمت متمنية أن تفى الفأرة الصغيرة بالموعد. ولم أكن مذعورة على الإطلاق من فكرة أنها ستأتى متسللة إلى سريرى. فى اليوم التالى، حالما استيقظت، وجدت قطعة نقود معدنية من فئة خمسة فرنكات. مع رسم يمثل الفأرة. جاءت، بالفعل، لرؤيتى. لقد كنت جزلة بسبب الحدث، وقررت أن أعيد الكرة فى المساء ذاته، لأننى احتفظت بسنتى. وذلك، فيما أعتقد، بدافع من فكرة التحقق مما إذا كانت الفأرة الصغيرة هى فعلاً فأرة صغيرة.

فى اليوم التالى، وجدت قطعة نقود جديدة، لكن سنتى لم تعد موجودة! ركضت أسأل أجدادى عما حدث. وشرحوا لى أن الفأرة الصغيرة أخذتها معها، بكل بساطة.

كنت ساخطة، أولاً لأنها سنتى. وثانيا لأننى كانت لدى النية فى تكرار التجربة.

ساخطة بالفعل. سنتى!

صورة أخرى لن أنساها أبدا. فى أحد المساءات، كنا مدعوين لدى أصدقاء لوالدى. كان ثوبى جميلاً، وكل شىء معدًا جيدا. جهزت أمى الرضيعة. أعطتنى إياها لأرعاها فيما تجمع هى بعض الأغراض. وفجأة بدا على الرضيعة الدهشة، وشعرت أنها تقضى حاجتها. وفيما أنا جاهزة تماما بثوبى الجميل، وفعلتها الرضيعة فوقى! انتابنى غضب؛ إذ ينبغى أن أبدل ثوبى، وأغير لمارى الحفاضة! لم أكن سعيدة مطلقا.

لن تمحى هذه الصورة مطلقا من ذاكرتى، دون أن أعرف السبب. ربما لأنها مواجهتى الأولى مع حقيقة كائن آخر، مسألة أن تأخذ فى اعتبارك حياة شخص آخر، داخل الفقاعة التى تمثلها العائلة، والتى كانت حتى هذه اللحظة محجوزة لى.

أقول رضيعة، حين تكون مارى صغيرة جدا، لأننى أنسى. أنسى كيف ينطق اسمها صحيحا. ففى معظم الأحيان كنت أريد أن أقول لها: " مارى، انظرى إلى"، لكى أكلمها قليلاً بالإشارات، ولكننى لم

أنجح فى ذلك؛ لأنها صغيرة جدا، ولأننى لم أكن ماهرة جدا بعد. حاولت التواصل معها كما يفعل والداى، بالكلام قليلاً، بكلماتى التى أنطقها بطريقة غير صحيحة.

" ما- رى، ما-رى، ما-رى."

- ٩ -

مدينة الصم

لم أكن إلا فى بداية تعلم لغة الإشارات، وها نحن سنترك مارى فى فرنسا لنسافر إلى واشنطن، "مدينة الصم" الرائعة.

كنت أشعر ببعض الخزى بسبب هذا البعد؛ فإذا توجب عليهما أن يصطحبانى، هذا يعنى أنى سأحرمها من والدينا لشهر كامل. اتخذا قرارهما بأن يعهدا بها لجدى وجدتى، ومع أننى لست أنا المسئولة عن هذا الموقف ولكنه ضايقنى بعض الشىء. فهما يبذلان جهدا من أجلى، ويذهبان إلى هناك لتعلم لغة الإشارات، تاركين الرضيعة.

واشنطن، أولاً الطائرة. إنها المرة الأولى التى أستقل فيها طائرة، ولا أعرف إلى أين أذهب. أعرف أنى مسافرة إلى الخارج، ولكن أين؟ من الذى بإمكانه أن يشرح لى واشنطن؟ فى لحظة الذهاب، لا أحد. ولكنى فهمت لاحقا، عند الوصول.

بيل مودى هو من نظّم هذه الرحلة، مترجم ألفريدو كورادو، مع مجموعة IVT كان هناك متخصص فى علم الاجتماع، برنارد موتى،

ومعلم نطق، دومينيك أوف، وبالغون صم لرعاية الأطفال الصم. كان الهدف من الرحلة اكتشاف الطريقة التى يحيا بها الصم الأمريكيون، وللتعرف على جامعتهم جالودى، وكيف يتصرفون فى الحياة اليومية.

كلير هى الطفلة الوحيدة التى كانت فى نفس عمرى فى هذه المجموعة. إنها بنت صغيرة شقراء، وصماء مثلى، وستصبح صديقتى التى لا أنفصل عنها. لن أنسى ،أبدا، المرة الأولى التى رأيت فيها وجهها. إنها شديدة الحيوية على قدر ما كنت أنا متحفظة وخجولة، ولكن نظراتنا التقت بقوة، وامتدت الصلة بيننا فورا. ها نحن نذهب سويا، إلى مغامرة غير مألوفة، والتى لا نزال نجهل ،أنا وهى،السعادة المصاحبة لاكتشافها.

كان الإقلاع يخيفنى. الأرض ترتج، والعجل يتأرجح. أشعر أن الطائرة تهتز، ثم مررنا بمنطقة مطبات هوائية، كما لو كنا فى مصعد يصعد بسرعة كبيرة. أشعر أننى مسحوقة فى مقعدى.

ونحن فى الهواء ، كان الأمر على ما يرام. مع كلير، كنا نقرأ ميكى ، ونجلس فى سكون، ثم ننام، حتى الهبوط. حينها، شعرت بألم مرعب فى أذنىّ، لدرجة أننى عضضت مسند الكرسى. كانت معاناة حقيقية تماما، وشعرت أننى على وشك الانفجار. قالوا لى أن آكل علكة، أخذت أمضغ وأمضغ، دون تحسن. لم تشعر كلير بشىء من هذا، بل كانت ستُجَن من البهجة.

بعد الهبوط على الأرض، تحسنت ببطء، وتلاشت معاناتى. نحن فى نيويورك؛ لا يعنى ذلك بالنسبة لى شيئًا محددا. لا أتذكر سوى ناطحات السحاب. ثم نرحل إلى واشنطن، بالسيارة، هذه المرة.

الجو مشمس حار ورطب. وصلنا إلى مقر إقامة كبير، حيث استأجر والدىّ شقة فيه، كما فعل والدا كلير.

فى الشارع، كان المشهد يمثل صدمة فورية بالنسبة لى. بل أكثر من صدمة، إنه ثورة! وهنا، فهمت: إننى فى مدينة الصم؛ حيث يستخدم الناس لغة الإشارات فى كل مكان: على الأرصفة، فى المحلات وحول جامعة جالودى. الصم موجودون فى كل مكان. البائع فى المحل يشير مع من تشترى، والناس يحيون بعضهم، ويتناقشون بالإشارات. إننى حقا فى مدينة الصم. أتخيل أن كل الناس فى واشنطن صم. يبدو الأمر كما لو كنت قد هبطت على كوكب آخر، فيه كل الناس مثلى.

" انظر يا أبى، انظرى يا أمى، إنهم صم يتكلمون!"

كان هناك اثنان، وثلاثة، وأربعة يتناقشون سويا، ثم خمسة وستة... أننى لا أصدق عينىّ! كنت أطالعهم فاغرةً فمى ومندهشة، مشوشة، ومرتبكة. فهى مناقشة حقيقية تدور بين عدد من الصم، إنها صورة لم أكن قط قد رأيتها من قبل.

أحاول أن أفهم أين أنا، وما الذى يدور هنا، ولكننى لم أفهم. ما من شىء يمكن فهمه، لقد هبطت وسط عالم من الصم، فى عمر السابعة، بكل بساطة.

الخطوة الأولى فى الجامعة، شرح لى ألفريدو كورادو أن ليس كل الناس هنا صما. وإن كان لدى هذا الانطباع، فذلك لأن هناك الكثيرين من الأساتذة الذين يسمعون، والذين يتكلمون بلغة الإشارات. أما عن كيفية التعرف عليهم، فهم لا يرتدون لاصقة على جباههم؟ لم يكن ذلك مهما، فهم يبدون سعداء، وعلى راحتهم تماما. لم يكن هناك ذلك التحفظ، الذى استشعره حتى فى مدرسة فينسن؛ فالناس يشعرون بالحَرَج، لا شعوريا، ويفضلون الاختباء، كما لو كان الصمم شيئا مخزيا بعض الشىء. رأيت صما يعانون طوال طفولتهم من ذاك الخزى، ولا تتطور لغتهم إطلاقا حتى الآن. نشعر أن الماضى كان صعبا. ربما لأن لغة الإشارات كانت ممنوعة فى فرنسا حتى العام ١٩٧٦م؛ إذ إنها كانت تُعتبر كحركات بذيئة، ومثيرة، وحسية، وتوقظ الجسد.

لكن فى واشنطن، لا شىء من هذا. ما من أى مشكلة، راحة خلابة تغمر كل الناس. فاللغة تمارس بشكل طبيعى، ودون تعقيدات. دون أن يختبئ أحد أو يشعر بالخزى. على العكس يشعر الصم ببعض الفخر، فعندهم ثقافتهم ولغتهم، مثل كل الناس.

كان بيل يتنزه معنا فى المدينة، إنه يترجم عن الإنجليزية والفرنسية فى آن واحد، ASL – Americain Sign Language أى لغة الاشارات الأمريكية وlsf – langue des signes fran caise أى لغة الإشارات الفرنسية. إنها رياضة ساحرة. فكل بلد لها لغة الإشارات الخاصة بها، كما أن لها ثقافتها، لكن إذا تحدث اثنان غرباء من الصم فسيستطيعان سريعا أن يفهما بعضهما. فلدينا نوع من الشفرة الأساسية العالمية التى تسمح لنا أن نتفاهم بطريقة سهلة نسبيا. على سبيل المثال، الناس يأكلون حتما عن طريق الفم، وليس الأذن، إذن إشارة الفم المفتوح والأصابع المنفرجة تكون واضحة تماما. والمنزل، نفس الشىء. فى المرة الأولى التى قال لى أحدهم"منزل" لم أفهم ، لكن حالما أشار بإشارة المنزل التى هى على شكل سقف، اتضح الأمر. وبالنسبة للباقى ـ للمجردات، والفروق طفيفة، فكل لغة إشارات تتطلب تكيفا كما لو كانت لغة أجنبية.

بقينا شهرا فى واشنطن، فى مقر الإقامة القريب من جامعة جالودى. داخل المبنى، كل السكان يشيرون. نأخذ الوجبات بأنفسنا. بعد أن نعلن الرقم الذى نحمله مستخدمين لغة الإشارات.

إننى فخورة، كما لم أكن من قبل.

تضم الجامعة أطباء صما، ومحَامين صما، وأساتذة علم نفس... كلهم أتموا دراسات عليا؛ بالنسبة لى، كانوا يمثلون عبقريات فذة، وآلهة! ليس لهم مثيل فى فرنسا.

هناك لقاء مؤثر وملهم مع سيدة صماء وعمياء. كيف يمكن التواصل معها؟

قالوا لى أن أتهجى اسمى بالإشارات فى راحة يدها. ابتسمت لى وكررت اسمى فى راحة يدى. كنت مضطربة بشكل عميق بسبب هذه السيدة. كم هى رائعة! كنت أعتقد أن كل العميان عيونهم مغلقة؛ فى الواقع، بدت نظرتها كما لو كانت "تنظر" إلىّ وترانى بالفعل. سألتها ماذا تفعل لكى تتكلم، لأنها لا تستطيع أن تتهجى كل الكلمات من تحسس راحة الشخص. شرحت بلغة الإشارات:

" أنت تستخدمين لغة الإشارات، وأنا أضع يدىّ حول يديك، كى ألمس كل إشارة، وأفهمك."

إنه أمر غامض بالنسبة لى؛ فأنا أحتاج لعينىّ كى أفهم الإشارة، وينبغى أن أكون فى مواجهة من يشير. هل تفهم حقا؟ حقا؟ أعيد طرح السؤال.

"لا تقلقى، إننى أفهمك، ما من مشكلة."

وأتساءل كيف كَبُرت، وكيف تعلَمَت؟ تلك السيدة التى تغلف يداها يدىّ برقة، وتتتبّع فى الفراغ رسم كل إشارة، لقد أثرت فىّ بشكل رهيب. إن صعوباتها أكثر من صعوباتى، وموقفها أصعب من موقفى، ومع ذلك فإنها تتواصل!

إن الأمل الذى منحنى إياه الناسُ فى واشنطن، وهذا الجانب الإيجابى، هدانى إلى اكتشاف مهم للغاية عن نفسى: فقد فهمت أننى صماء. لم يقل لى أحدهم ذلك من قبل.

فى أحد المساءات، فى واشنطن، دخلت كهبّة ريح، إلى غرفة والدىّ، جذلة للغاية، ككرة حقيقية من الأعصاب. ولأننى كنت أشير بسرعة كبيرة جدا فلم يفهما شيئا؛ فكررت بشكل أهدأ. " إننى صماء!"

إننى صماء لا تعنى: "أنى لا أسمع." بل تعنى: " إننى أفهم أنى صماء."

فهى عبارة إيجابية ومحددة. إننى أقبل مسألة أن أكون صماء، وأفهم ذلك، وأحلله، لأنهم أعطونى لغة تسمح لى بذلك. أفهم أن لوالدىّ لغتهما، وسيلتهما فى التواصل، وأننى لدى وسيلتى. أننى أنتمى إلى محيط ما، ولدى هوية حقيقية. ولدى رفاق.

فى واشنطون، قال لى الآخرون: " أنت مثلنا، صماء." وأظهروا لى إشارة تعبر عن الصمم. لم يقل لى أحد من قبل.

الثورة تكمن هنا. لأننى لم أكن قد كونت هذا المفهوم فى رأسى. كان لدى تعريف نوعى لذاتى وهو:" إيمانويل لا تسمع"

بعد إدراك الـ"أنا"، أنا أُدعَى إيمانويل، فهمت فى ذاك اليوم، بوضوح تام: "أننى صماء."

الآن ، أعرف ماذا أفعل، سأفعل مثلهم، لأننى صماء مثلهم. سوف أتعلم، وأعمل، وأعيش، وأتحدث، لأنهم يفعلون ذلك. وسأكون سعيدة، لأنهم سعداء.

لأننى أرى حولى أناسا سعداء، ولديهم مستقبل. إنهم بالغون، ولديهم عمل؛ وأنا أيضا، يوما ما، سأعمل. لدى مؤهلات تكشَّفت فجأة، وقدرات، وإمكانات، وأمل.

فى هذا اليوم، كبرت فى رأسى إلى حد كبير. وأصبحت كائنا بشريا وُهِب اللغة. الذين يسمعون يستخدمون الصوت، مثل والدىّ؛ أما أنا، فأستخدم يدىّ. أى أننى، بكل بساطة، أمتلك لغة أخرى. وكلير تمتلك نفس اللغة، ومجموعة من الناس لديهم اللغة ذاتها.

بعد ذلك، تتابعت الأسئلة. أولاً: ماذا أفعل كى أتواصل مع الذين يسمعون؟ مع والدىّ؟ ما من مشكلة، لأننى محظوظة بكونهما يتقبلاننى بلغتى ويجتهدان لتعلم لغتى أيضا. لكن ماذا عن الباقين؟

الإجابة واضحة. لابد أن أواصل تعلم الكلام، وأن أبذل جهدا، أنا الأخرى، لأتقبل الذين يسمعون كما تقبلنى والداى. فهما يشيران، وأنا سأتكلم بصوت عال، كما يتعلم المرء لغة أجنبية.

كان بيل مودى رائعا بالنسبة لنا؛ إنه يساعد والدىّ لاكتشاف عالم الصم، وهو صبور، واضح ، ومتواجد. عيناه زرقاوتان ومعبرتان، ويداه الماهرتان المحددتان جعلتا منه أستاذا ومرشدا بارزا.

تعلمت أن أشير دون توقف. كنت أردد أمام مرآة، وأرى إشارات فى كل مكان. رأسى أصبحت مليئة بها. كنت أحيانا أجد نفسى مجبرة على أن أغلق عينىّ كى أتذكر؟ فأخلق مساحة السواد حتى تعود الصورة. وصل الأمر إلى حد أننى لم أفهم نفسى حين أنظر إلى نفسى. أردت أن أقول شيئا، وهذا يحدث سريعا جداً. إننى أتكلم بشكل غير مفهوم ، كما أن هناك إشارات اخترعتها لأننى لم أكن قد تعلمتها بعد، ولأننى أريد التعبير عما أريده بشكل مطلق. وعندما لا يفهم أحد أشرح لنفسى بطريقة الإشارات:

ـ «بالنسبة لى هذا يعنى ذلك".

ـ هذا المعنى لا يقال هكذا، بل يقال بهذه الإشارة!

ـ آه، حسنا.

أصبحت أضيف إشارات بنهم مدهش. وتعلمتها بسرعة تجاوزت سرعة والدىّ. فهى صعبة بالنسبة لهم أكثر منى. استغرق الأمر منهما سنتين، ومنى ثلاثة أشهر.

ـ ومع اكتشاف لغتى، وجدت المفتاح الرائع للباب الكبير الذى يفصلنى عن العالم. فأستطيع أن أفهم عالم الصم، وكذلك عالم الذين يسمعون. وأفهم أن هذا العالم لا يتوقف عند والدىّ، وأنه ليس هناك إلا هما اللذان يهتمان. لم يعد لدى هذه المساحة من السذاجة التى كانت من قبل. فأنا أرى الموقف على حقيقته. وتفكيرى يتشكل. وكلى احتياج للكلام، لقول كل شىء، وحكى كل شىء، وفهم كل شىء.

إنه جنون، لقد أصبحت ثرثارة. أعتقد حتى أننى أعترض كل الناس بالقوة لأطرح عليهم أسئلة. "ماذا قلت؟"

عندما عدنا إلى باريس، كانت مارى متزعزعة؛ لقد تركناها وبات كل الناس يتكلمون معها شفهيا، ووجدتنا نتكلم بلغة الإشارات! بعد هذه الرحلة قررت بشكل واضح أن أعلمها لغة الإشارات فى أقرب فرصة ممكنة. إننى أنظر إلى يديها الصغيرتين بنفاد صبر، تلتهمنى الرغبة فى أن أراها تكلمنى، وأن أكون معلمتها. أتوق لأن تكبر، كى أستطيع المناقشة معها.

سوف تصبح مارى أكثر من أخت لى، بل ستكون موضع سرى المحبب، ومترجمتى. شيئا فشيئا ستنتقل العلاقة الخاصة بينى وبين أمى إليها.

الآن، ينبغى أن أبذل مجهودا كى أتحدث معها وأن أتقبل فكرة أننى لم أعد وحدى. وأن أتشارك معها.

نحن نستحم سويا. وأعاكسها، وأرميها بلعبة، وهى ترش على المياه، وأنا أيضا، وتجذبنى من شعرى، وأنا أيضا. أعشق أن أغيظها، وكذلك هى. أعشق أن أنظر إلى أسنانها الصغيرة التى تلمع حين تبكى لتنادى أمى. كان ذلك يضحكنى. وأمى تأتى غاضبة، وتنهرنى، وأبكى أنا هذه المرة، وهو دور مارى كى تقرقع ضاحكة.

بلغة الإشارات، مارى هى الأيدى المتشابكة على البطن.

كم أعشق مارى!

- ١٠ -

زهرة تبكى

لا أعرف فى أى سن بدأت أدرك الفرق بين الخيال والحقيقة. مع علاماتى المرئية، بشكل أساسى، أعتقد أنها قد بدأت عن طريق الأفلام . على سبيل المثال، شاهدت طرزان وأنا صغيرة، طرزان بالأبيض والأسود، لجونى ويسملر. كان قد بدا لى أنه حقيقى تماما. فطرزان لم يكن يستطيع الكلام، لذلك كان واقعيا بالنسبة لى. أثّرت فىّ الصورة، وقارنتها بالأصم الذى لا يستطيع الكلام، وتخيلت أنه مثلى، غير قادر على التواصل. وانتابتنى كوابيس تتعلق بهذا الفيلم. فالمشهد الذى تأتى فيه قبيلة الغجر السود، وهم يصيحون، ويصرخون ويرقصون حول طرزان قد أخافنى بشدة. لم أستطع فهم ما جرى، ولهذا انتابتنى الكوابيس. حاول والدىّ أن يشرحا لى، ولكننى لم أفهم السيناريو. لاحقا، عرفت أن طرزان المسكين قد فقد والديه، وأن قبيلة "الأشرار" السود كانت غاضبة. ولكن عرفت ذلك متأخرا جدا. من وقت لآخر، كنت أصنع كوابيس. ربما لأننى كنت أتماهى فى طرزان الأخرس. كان ذلك قبل تعلم لغة الإشارات؛ حيث كان هناك الكثير من التشويش فى رأسى.

ثم انخرطت في اكتشاف معنى الكلمات. لقد نسيت كيف فهمت. بالنسبة للطفل الذى يسمع، بإمكانه أن يقارن الكلمة المكتوبة بالصوت الذى يسمعه، ثم بالمعنى.

وكان ينبغى أن أكتب كلمة ماما عشرين مرة. هل فهمت حقا، فى تلك اللحظة، معنى ماما؟ ماما بالنسبة لى، التى أراها أمامى؟ أم كانت شيئا آخر؟ هل الكلمة تعنى الطاولة؟ كيف تعلمت العبارات، والمعنى، والتركيب؟ لا أتذكر.

كنت أعشق أن يحكى لى أحد الحكايات. بعد ذلك، تعلمت القراءة وقرأت. كنت غارقة دوما وسط القواميس، لأبحث، ولأتذكر. كنت أقرأ أستريكس وأوبليكس Astrix et Obelix المصور أولاً دون أن أفهم النص. كان أخرس.

وفى الحياة كنت أشعر دائما بانفصال عن المشاهد التى كانت تدور أمام عينىّ. إنه الشعور بأننى لست جزءا من الفيلم ذاته مثل الآخرين. وهو ما كان يثير عندى فى بعض الأحيان ردود أفعال غير متوقعة.

شهدت حفلة فى منزلنا من جديد؛ الجميع يتحدثون، لم يكن هناك سوى أشخاص يسمعون، إننى معزولة، كما هو الحال دائما فى مثل هذه الحالات. غموض التواصل المتاح بين هؤلاء الناس، كان يجعلنى أرتبك. كيف يتكلمون كلهم فى الوقت ذاته، وهم يديرون ظهورهم لبعض، والجسد فى أى وضعية أيا ما كانت؟ ماذا تشبه

أصواتهم ياترى؟ لم أسمع قط صوت أمى أو أبى أو الأصدقاء. شفاههم تتحرك، وأفواههم تبتسم، تنفرج وتنغلق. بسرعة جنونية. ألاحظ بكل قواى، ثم أتعب. يلُفنى الملل، الملل العميق، وصحراء العزلة. فجأة، جاء إلىّ، صديق مُغنٍ موريس فانون، عمى هو من دعاه لقضاء السهرة، وقدم لى زهرة. أخذت الزهرة وذرفت دموعا غزيرة. أخذ كل الناس ينظرون إلى. وتساءلت أمى عما جرى لى.

ما الذى حدث، فى أعماقى؟ لا أعرف. مشاعر قوية. قوية جدا فى عزلتى؟ لا أستطيع التعبير عنها بطريقة أخرى غير الدموع؟ والانفصال بينهم وبينى، والمواقف، وما يفعله الأشخاص جميعهم. كانت أشياء غير مفهومة بالمرة! ربما.

كما تساءلت لماذا أبكى أمام هذه الزهرة بكل هذه القوة. كنت أود لو أعرف، ولكنه أمر لا يمكن تحديده.

مؤكد، تنتابنى كوابيس كثيرة. بين صفر وسبعة أعوام. كل ما لا أفهمه أثناء النهار يظل يتأرجح فى رأسى. والعلاقات بين الأفكار بعضها بعضًا كانت تتم بشكل فوضوى.

الفضل يعود إلى أبى، الذى فتح لى العالم فى فينسن وواشنطن، فهو من قال لى:

"تعالى! سنتعلم لغة الإشارات سويا! "

عند عودتنا من الولايات المتحدة، قرر والدى، بصفته طبيبا للأمراض النفسية، أن يهتم بالصم. سوف يفتح فى سانت ـ آن المركز الاستشارى الأول ، وأراد أن يمارس جميع العاملين فى المركز لغة الإشارات، ابتداءً من الشخص الذى يستقبل المرضى عند الباب.

هل يعانى الصم من مشاكل نفسية؟ نعم، مثل كل الناس.

حين كنت طفلة، كانت الصورة التى أحتفظ بها لوالدى هى صورة مثقف. إنه طبيب أمراض نفسية. فى البداية، كنت أقول للآخرين:

"والدى يعمل مع المجانين!"

كما كانت أمى معلمة أطفال ممن يعانون من مشكلات نفسية، كنت أقول الشىء ذاته عن أمى:

"أمى تعلم المجانين."

كنت أجد صعوبة فى فهم ما تمثله مهنتاهما. شيئا فشيئا، فهمت. قال لى أبى:

" إننى طبيب أمراض عقلية ونفسية. إننى أقابل أناسا وأمارس التحليل النفسى.

ـ هل محلل نفسى، ليس مثل طبيب أمراض عقلية ونفسية؟

ـ كلا، مهنة طبيب الأمراض العقلية والنفسية مختلفة؛ إذ ينبغى

الحصول على شهادة من كلية الطب كى أكون طبيب أمراض عقلية ونفسية، وأستطيع وصف الأدوية، أتفهمين؟ أستطيع علاج المرضى بالدواء. وبإمكانى العناية بالناس عن طريق العلاج ، ولكننى أمارس كذلك التحليل النفسى!"

وددت كثيرا لو أعرف ما الذى تعنيه هذه الكلمة، لقد شَرَح لى وبقيت الكلمة غامضة. غالبا ما أتكلم مع والدى، عن كل هذه الأمور.

فى يوم ما، كلمنى عن فرويد. وحكى لى عن اكتشاف مفاهيم التحليل النفسى للطفل، من البهجة، والمتعة، والصعيد الشرجى، والصعيد الشفاهى. كنت فى الحادية عشرة... وكان ذلك "صعبا تيفيتى".

وفهمت فى نهاية الأمر، لكن لوقت طويل كنت أشير واصفة عمل أبى لزملائى الصم بإشارة " طبيب المجانين" عفوا، يا أبى.

كما كنت أخلط بين "ج " التى هى فى بداية اسمه مع الإشارة التى نفعلها على جانب الرأس والتى تعنى "فى القمر". غالبا ما كان الأمر يثير الضحك. أبى ، هو " جاك القمر".

يعطى الصم ألقابا خاصة للناس جميعا. فى فينسن، قرر الصم أن يسموا أمى "أسنان الأرنب"، بسبب أسنانها العريضة الأمامية. كانت أمى تقول:

- "ولا كلمة. لا يجوز، أرفض تسميتى بأسنان الأرنب."

فأعطيناها اسما آخر، والذى أعجبها جداً:

"آن التى تخبّط". كنا نشير لحرف" A بالذراع المرفوع والإبهام بعيد وقبضة اليد مضمومة للأمام. وهو ما يضحك أمى، والتى ترى نفسها تكاد تغنى نشيد " إنه الكفاح الأخير."

وآخرون أطلقنا عليهم "الشعر الكثيف"، أو "الأنف الكبير". صديقى العزيز بيل مودى، مترجم ألفريدو فى واشنطن، أُطلِق عليه " إبهام أسفل الأنف". فهو يقضى وقته يمسح بإبهامه الخط الذى يسيل عند طرف أنفه دائما!

فى الواقع، فإننا باستخدام لغة الإشارات، نعطى الناس سمات مرئية ترتبط بسلوك ما، أو لزمات، أو خصوصية جسدية. فهو أسهل بكثير من تهجى اسم بالفرنسية فى كل مرة. أحيانا يكون غريبا، وأحيانا يكون شعِريا، ودائما ما يكون محددا. الذين يسمعون لا يحبون ذلك كثيرا وبعضهم يشعر بالغيظ. ولكن الصم لا يفعلون.

الرئيس ميتران يُشار إليه بالفهرس والإصبع الصغير، الذين يشكلون نابين على واجهة الفم. مثل أسنان مصاص الدماء. (فنحن نعرف أنه بَرَدَ نابيه. وكان لديه نابان كبيران من قبل.) ريموند بار، هو "الخدان المنتفخان". جيرارد دوبارديو، إنه الأنف الكبير ذو النتوءين. جاك شيراك، إنه الأنف ذو الطرف المدبب بال V التى تعبر عن النصر. إنها أمثلة على خصوصيات جسدية. ولكن لى صديق يدعى "المُضيف"، فهو شخص يضيف طوال الوقت حين

يحكى شيئا ما. يمكن مقارنة ما نفعله بالأسماء التى اعتاد الهنود أن يطلقوها. مثل "منقار كبير معقوف"، "عين أوس".

إن " شعب" الصم مرح. ربما لكثرة ما لاقوه من معاناة فى فترة الطفولة. يشعرون بالسعادة فى التواصل، وتعتريهم البهجة. ففى حصة الإبداع أو فى مطعم، إذا تكلمت مجموعة من الصم، يموج الكلام بالحياة بشكل لا يصدق. نتكلم، ونتكلم، ونعبر عن أنفسنا لساعات فى بعض الأحيان، كما لو كان تعطشا هائلا لقول أشياء، من أكثرها دقة إلى أكثرها ضخامة.

كان بإمكان الصم أن يطلقوا علىّ " زهرة تبكى"، إذا لم أعبر إلى محيطهم اللغوى. انطلاقا من سن السابعة أصبحت ثرثارة وبراقة. كانت لغة الإشارات هى شعاعى البراق، وشمسى، لم أكن أتوقف عن التعبير، كانت التعبيرات تخرج وتخرج، كما لو كانت تخرج من انفراجة نحو النور. لم أعد أستطيع أن أتوقف عن كلامى مع الناس. لقد أصبحت "شمسا تنبعث من القلب".

إنها إشارة جميلة.

- ١١ -

ممنوع المنع

غالبا ما أطرح على البالغين الصم الأسئلة ذاتها، التى طرحتها على والدىّ. إذ ينتابنى دائما الشعور بأن إجاباتهما غير كافية، وغير مرضية. وأحيانا لا أتلقى إجابة من الأساس. ومع ذلك، فإن علاقتى بأمى دائما ما كانت قوية جدا، خاصة فيما يتعلق بالتربية وتعليم الكلمات. فكنت أقول، بطريقة رمزية: " تربوى، بنيوى". مع والدى، الأمر يتخطى الانبساط ، والموسيقى، واللعب، كنا " نمرح". وبالنسبة لبقية الأشياء، فهو مثقف. يقرأ كثيرا، وحين كنت صغيرة كنت أشعر أنه لا يضع نفسه مطلقا فى مستواى. وحين أصبحت كبيرة، بت أفهمه تماما. كل شىء فى علاقتنا تغير تماما.

وبفضل والدىَّ، لم أكن متأخرة فى المدرسة. بل تقدمت كثيرا.

وأنا فى الحادية عشرة، أراد والدى أن ألتحق بالصف السادس فى مدرسة موليير. وقوبلت بالرفض. الرفض. فيما كنت قد نجحت فى امتحان القبول!

"ابنتك صماء صمما عميقا، مستحيل».

كان والدى ساخطين على إدارة المدرسة الأهلية، وأنا، كنت بلا حماسة تماما. ماذا سأفعل لأواصل دراستى؟

هذا الرفض هو الظلم الحقيقى. وهو تصرف عنصرى. فأن ترفض تعليم طفل لأنه شديد السواد، أو شديد الصفرة، أو شديد الصمم، يكشف عن أسوأ عزل ممكن من نوعه فى دولة تُعتبر ديمقراطية.

فى باريس، يوجد فصل خاص واحد متخصص فى تعليم الصم حيث يمكن قبولى. اجتزت الامتحان، وتم قبولى. أنا وصممى العميق. تقول أمى فى حذر:

" يجب أن تعرفى، يا إيمانويل، أن هذه المدرسة للتعليم الشفوى. ولا يوجد استخدام للغة الإشارات. ستكونين مجبرة على تتبع الدروس وأنت تقرأين الشفاه، ومجبرة على الكلام. ليس لك الحق فى استخدام يديك. أتفهمين؟

فى تلك اللحظة، اعتقدت أننى فهمت الرسالة، وفى الحقيقة لم أعرها اهتماما كبيرا. فكلمة "ممنوع"، إذا كانت قد نُطقت، لا تقلقنى، فقد اجتزت الامتحان، وفى الحادية عشرة، كنت أعشق أشياء أخرى، وأهتم بأشياء أخرى.

ما أعشقه أولاً. تعلمت أن أشير مع مارى. كانت قد تخطت الثلاثة أعوام بقليل، علمتها كيف تكتب بعض الكلمات، تمثل أشياء بسيطة من الحياة اليومية، والإشارات المتعلقة بها.

كانت بيننا، هى وأنا، علاقة عاطفية قوية جدا. كنت أراها رائعة، أحب أن ألعب معها، وأن أعلمها، وكم كنت فخورة بذلك! أقول لأمى:

"انظرى، أرأيتِ؟ أستطيع أن أعلمها بعض الأشياء!"

تنازلت عن غرفتى لمارى، وكنت أنام فى الصالون. كان لدى مكتب قديم ذو سطح خشبى وفتحة للمحبرة. هنا كنت "أُعَلّم".

تجلس مارى إلى جانبى على السطح الصلب، كنا نصنع رسومات. كما كانت أمى تحاول أن تعلمها أيام الأسبوع، دون أن تفلح، تحمست كثيرا لهذا الأمر. كنا ننطق الأيام ونكررها بربطها بالألوان: يوم الاثنين يكون أصفر، والثلاثاء أحمر، وهكذا. علمتها أن تكتب، ثم أن تغنى. كم صنعت يديها الصغيرتين أشياء جميلة فى الهواء! فهى تفهم بسرعة، وأنا معجبة بها. إنها تتحدث الفرنسية الشفاهية، وفجأة تنتقل إلى لغة الإشارات بسهولة مدهشة. إنها تمنحنى شعورا بالسرور المجنون والفخر الهائل.

أصبحت أنا "المعلم". وبمقدورنا الآن تبادل لغة. فهى تفهمنى تسمع أم صماء، ما من فرق بيننا، لأننى قادرة على أن أعلمها أشياء وعلى أن أجعلها تفهمها. إنها مزدوجة اللغة.

اختلاف... نعم، بالطبع . أتأملها وهى تقلد أمى وهى تنطق: " A, E, I, O, U ". كما أنها تقلد أصوات والدى، وأنا لا أستطيع. عندما أحاول تقليد صوت أمى، يكون الأمر مختلفا تماما. ويقولان

لى: "تكلمى، تكلمى، نحن نفهمك"، ولكننى كنت أعرف جيدا أن ذلك غير ممكن فى هذا المرحلة إلا داخل الأسرة.. فى المدرسة الابتدائية، كان الصبية يسخرون منى ويضحكون بسبب ما أبذله من مجهود لأتكلم. " لا نفهم شيئا منك! ماذا تقولين؟"

بالتأكيد لم يكونوا يفهموننى. ولكن أنا من كانت تبذل الجهد لتقليدهم، دون أن أسمع النتيجة أبدا. صوتى، لا أعرفه. وماذا عنهم؟ ماذا بذلوا من جهد ، سوى السخرية منى؟

غالبا ما يسألنى الناس، إذا كنت أعانى لأنى لا أسمع صوت أمى. وأجيب:

"نحن لا نعانى من شىء لا نعرفه. فأنا لا أعرف تغريد العصافير، ولا صخب الأمواج. أو صوت البيضة على الطبق، فقد كانوا فى فينسن يحاولون أن يجعلوا آباء الأطفال الصم يدركون صوت البيضة على الطبق!"

ما صوت البيضة على الطبق؟ أستطيع تخيله، على طريقتى،إنه صوت خروشة، وهو شىء ما يتموج، إنه ساخن. ساخن، أصفر وأبيض، يتموج . أستطيع إدراك الأمر، فعيناى تؤديان المهمة. وخيالى أكثر إبداعا بالتأكيد ـ حتى وأنا طفلة ـ من خيال الآخرين. كل ما فى الأمر أنه غير منظم بعض الشىء.

والترتيب الذى انتظم فى رأسى حين التحقت بالصف السادس، جعلنى أرفض بضراوة أن أُعامَل معاقة. فأنا لست معاقة، إننى

صماء. ولدى لغة للتواصل، ولدى أصحاب يتكلمون هذه اللغة، ووالدى يتكلمانها أيضا. إننى منشغلة بما سأصبح عليه فيما بعد. وماذا ستكون مهنتى، وكيف سأعيش، ومع من؟ أطرح على نفسى كل تلك الأسئلة منذ أن كنت فى واشنطن. لقد نضجت، وأصبحت ألتقط أشياءً، وبقيت أشياء أخرى كثيرة...

ها أنا فى دروس مورفان. الصف الدراسى السادس.

وصلت متأخرة، فى اليوم الأول من الدراسة. اصطحبتنى المديرة إلى قاعة الدرس، وأجلستنى فى مكان خال. حدثت مقاطعة صغيرة، عيون تفحصتنى، ثم استُؤنِف الدرس.

أشعر أننى محاصَرة، ومراقَبة من كل جهة. أنا فى فصل للصم، والصم فضوليون بطبعهم.

كانت معلمة، وكانت حريصة أن تضع يديها خلف ظهرها وتتحدث، وهى تنطق الحروف بتفصيل مبالغ فيه، وتمد حركات الفم، "بطريقة ملائمة" جدا. والطلاب يقرأون ما على الشفاه.

وفى هذه الدقيقة، أدركتُ حدود الكارثة وتذكرتُ تنبيه والدىّ المُشدد. تلك السيدة التى لا تستخدم يديها ولا جسدها فى التعليم، والتى تشير بسلوكها إلى منع استخدام لغة أخرى غير الكلام، بدت لى كشىء مستفز. إننى مصدومة، بشكل عميق، وأشعر بنفور تام. فى IVT فى فينسن، اعتدتُ على لغتى وشعرت بالراحة إزاءها، أما هنا، فأنا غريبة من جديد. فى لحظة ما، قلت لنفسى:

"إنها مهزلة. كوميديا. ستفعل ذلك لبعض الوقت، ثم ستتطلق" .

ولكن الباقين كانوا ينظرون وينصتون بانتباه، ولم أجرؤ على التدخل. كنت أجتهد لأفهم ما تقوله. لا شىء. وهى ترى ذلك جيدا؛ إننى لا أعرف حتى عن أى درس تتحدث.

فى الفسحة، تعرفت على أصدقائى. المعرفة تعد كلمة كبيرة: جميعهم يتكلمون بلغة الإشارات. البعض يتكلم باستخدام يديه ، نوع من الشفرة التى يتمنون أن تكون معبرة، ولكنهم لا يعرفون قواعد النحو. ها أنا أغامر. وأشير:

"أنت، ما اسمك؟ أنا، اسمى إيمانويل. إننى أتكلم لغة الإشارات. أتفهمين؟

ما من إجابة. عيونهم جاحظة، وينظرون إلى يدىّ كما لو كنت أتكلم الصينية. فهم لم يتعلموا النحو، ولا صيغة السؤال واستخدام الضمائر ولا قواعد اللغة، مثل شكل الحركة، والتوجه، والمواضع، وحركة اليد، وتعبير الوجه. انطلاقا من هذه القواعد، ومن هذا النحو، أستطيع التعبير عن آلاف الإشارات، من الأكثر بساطة إلى الأكثر دقة. يكفى أحيانا أن أدير بشكل طفيف أحد المعطيات، الاتجاه، أو الموضع، أو كليهما، وهكذا. انتهى الأمر.

نظرة الصبى ذى العيون المستديرة تنقل الذهول الأكثر جمالاً. وآخر جعلنى أفهم أنه يريد أن يعرف اسمى. أجبته بلغة الصم. فجحظت عيناه أكثر. إنهم يجهلون أيضا لغة الصم، تلك الأبجدية، التى اخترعها الأب إيبى، التى نكتبها فى الهواء باليد.

فى اليوم الثانى، قررت أن أواجه هذا الموقف، فبدأت أوزّع فى المدرسة حروفا أبجدية كى أشرح لغة الصم. فضيحة! استفزاز! استدعتنى الإدارة على الفور، وأعادونى إلى مكانى. بلطف، ولكن إلى مكانى. ما من شك فى أن سلوكى هنا يشبه سلوك ناشطة، أو رئيس نقابى، محرض على الثورة، فى جميع الأحوال.

"ممنوع منعا باتا أن تقومى بالدعاية للغة الإشارات داخل المدرسة.

- كنت أريد فقط أريهم لغة الصم.

- ممنوع المناقشة، ممنوع تعنى ممنوع."

و"ممنوع" لا تدعم أى حوار. ليس من حق أى طالب هنا أن تصل إليه المعلومة. هذا هو القانون.

فعليا، إنه القانون. فالمنع سيظل حتى عام ١٩٩١م. لكن أنا فى الحادية عشرة من عمرى، نحن فى عام ١٩٨٤م، ولست خبيرة بعلم استشراف المستقبل، وفى أثناء الانتظار على أن أتحمل قانون الصمت هذا. يا للمصيبة! اللغة التى فتحت لى العالم، وساعدتنى على إدراك الآخرين، لغة المشاعر، والمواقف بالنسبة لى، ممنوعة بالنسبة لهم؟

إنه كابوس.

يعرف بعض المدرسين (LSF لغة الإشارات الفرنسية) ويمارسونها فى الخفاء؛ والبعض تعامل مع دفاعى بشكل رقيق. هذا

الظلم صدمنى فى صميم قلبى. فينبغى للمربين والمعلمين والأساتذة، الذين لديهم الرغبة فى تحمل المسئولية، أن يتمكنوا من ممارسة لغة الإشارات فى العلن. فهم يشكلون أصل التكوين والتوازن النفسى والعاطفى والعصبى للأطفال الصم.

ولا ينبغى أن تعتبره الدولة أمرا خارجا على القانون؛ إذ لابد أن يمارس كلٌ منا الاختيار. ولكن ذلك ليس هو الحال. فهم يواصلون الإلحاح على الآباء بعبارة: " اجبروهم على الكلام، وسوف يتكلمون."

وأنا فى الحادية عشرة، كانت لدى الرغبة فى أن أنبح ضد هذا الموضوع. وهو ما استمر. لدى زملاء كانت طفولتهم قاسية جدا، ومؤلمة. فهم يتذكرون أنهم ألقوا بأجهزتهم السمعية فى التواليت؛ حيث لم يعد باستطاعتهم تحملها. وبعضهم لا يتواصل إطلاقا مع الآباء، فهم غير قادرين على ذلك. كنت أعرف ولدا صغيرا أصبح عنيفا، وهمجيا، كان يجذب شعر أمه ليتواصل معها، ويتدحرج على الأرض، فى الطين، وفى كل مكان. كان يشعر بعجز ما، وعزلة ما. بعض الأطفال يقولون لى فى المدرسة:

" أمك رائعة، إنها تستخدم لغة الإشارات!"

بالطبع، لم يكن آباؤهم يستخدمون لغة الاشارات إطلاقا. ماذا يفعلون، فى ظل هذه الظروف، ليعبروا عن قلقهم، وعن مشاكلهم الصغيرة، وعن مشاعرهم؟ كيف يحافظون على هدوئهم، وهم لايستطيعون أن يحكوا لأمهاتهم عن كوابيسهم. أو أن يطرحوا أسئلة

حمقاء مثل: " ما هذا؟"، "ماذا نفعل بهذا الشيء؟" "لماذا أتألم هنا؟" "ماذا يفعل هذا السيد ذو القميص والجهاز على رقبته؟"

كيف يعيشون حين لا تكون هناك إجابات؟ عندئذٍ يقال لهم: «اقرأ الشفاه» ، " افهم ما تستطيع فهمه" ،" رتبه فى رأسك بشكل غير منضبط" ، " اقض سنوات فى ترتيبه فى مكانه"، "تكلم، صوتك غريب، ونحن لا نفهمك، لكن تكلم، ستستطيع" ، " لا تخلع جهازك؛ انطق بشكل مفصل، قلّدنى." بكلمات أخرى: تصرف بالطريقة التى تكون بها صورة منى".

كنت أشعر أننى غريبة فى أسرتى، حين كنت طفلة صغيرة، ولى أصدقاء فى الفصل يعيشون الأمر نفسه. بالنسبة لى، انتهى الأمر؛ بالنسبة لهم، الأمر مستمر. فهم فاشلون دراسيا. والفشل الدراسى بالنسبة لى يعنى حتمية الكفاح الذى أخذته على عاتقى فيما يتعلق بالـLSF وبالحمق المتعلق بمنعها .

فيما بعد، مارست لغة الإشارة فى فصل يشير تلاميذه فيما بينهم (من المستحيل منعنا عن ذلك!) ، ولكن ليس مع المدرس، لأن هذه هى القواعد.

كانت درجتى فى الفرنسية جيدة، لذلك دعانى المعلم إلى أن آخذ مكانه وأشرح للطلاب الذين لم يفهموا الموضوع. أتيت أمام السبورة، وبدأت أعبر عن نفسى بلغة الإشارات. وحالما بدأت أشير، أوقفنى

المعلم. أداننى بـ"سهولة" شديدة»، وأراد أن أعبر شفاهيا. شعرت أننى هُزأة. لم أشعر فى حياتى أننى موضع سخرية كما شعرت فى تلك المرة. الطلاب ينظرون إلىّ وهم يضحكون، ولا يفهمون شيئا على الإطلاق مما أردت التعبير عنه.

وحالما شعرت أنه أمر أبدى، توقفت تماما. لم أكن فقط تعيسة، ولكننى أضيّع وقت الجميع. وطلبت من المعلم أن يتحلى "بأقصى درجات التسامح" ويوافق أن أحاول، لخمس دقائق فقط أن أعبر عن الشىء ذاته ولكن هذه المرة بلغة الاشارات. ومع قناعته بأننى لست على المستوى الكافى لأقوم بذلك، وبأن لغتى "سيئة جدا" ومحدودة، تركنى أفعل، وربما كان يقول لنفسه أنه سيظهر لى عدم مقدرتى. الطلاب ينظرون إلىّ بعيون مستديرة، تلمع من الجزل، وابتسامات عريضة. عادة، لا نستخدم الإشارات فيما بيننا إلا حين نمزح أو فى الفسحة أو فى الشارع. الثورة الصغيرة التى أحدثتها توا مهمة للغاية. هل سيفهمون ما لم يفهموه شفاهيا من المعلم؟

إنهم ينصتون إلىّ باهتمام؛ طريقة عرضى واضحة، والشرح مقنع، والطلاب مفتونون. والمعلم يرفض أن يصدق أننى سريعة وماهرة إلى هذه الدرجة.

"هل فهمتم كل شىء؟"

عمّت كلمة " نعم". لا يزال الشك يساوره، وطلب ساخرا من طالب أن يأتى ليقول ما فهمه. نفذ الطالب والمعلم مبهوت، ولا يبدو

عليه الرضا، ولكنه التجأ إلى يقينه الخاطئ المعتاد. وواصل حصته شفاهيا، وأراد أن ينسى ما مر به لتوه.

فى هذا السياق المدرسى من المنع، كان المدرس، فى رأيى، ضد الطالب، وبالتبعية فإن من المنطقى أن يكون الطالب ضد المدرس. والنتيجة؟ عندما يستدير أحد المعلمين ليكتب على السبورة، اعتدنا أن نتبادل بعض المعلومات بلغة الإشارات، مقتنعين أنه لا يسمع لأنه لا يرانا. فى البداية، كان يستدير فى كل مرة، كان ذلك غريبا، لم نفهم على الفور، لماذا؟ ومع مرور الوقت، انتبهت إلى أنه مع كل مرة نتكلم بأيدينا فإننا نحدث بعض الجلبة بأفواهنا. تمرنًا حينها على ألا نُحدِث أى صوت، ومنذ ذاك اليوم، أصبحنا نتبادل تصحيحاتنا بأكثر طريقة هادئة فى العالم.

أهذا شر؟ ربما، ولكن فى المسافة الفاصلة بين مسألة أننا لا نفهم نصف التعليم الشفوى، وبين شعار أنه" لا للمنع"... فنحن نتصرف.

- ١٢ -
بيانو سولو

سرعان ما أصبحت فى الثالثة عشرة من عمرى، ومارى فى الخامسة. باتت مارى هى ذاتى الأخرى، ومرجعى، وشريكتى. إنها تتعلم بسرعة جهنمية. وتستخدم الإشارات بيديها الصغيرتين بطلاقة لا تصدق. وتتكلم بسهولة كبيرة. مارى، هى عبقرية صغيرة ذات خمس سنوات، وأختى الحبيبة، وعُكازى!

منذ أن ولدَت، وأنا متعلقة بها بطريقة تملّكية بعض الشىء. ولكننى أحتاج إليها. وأستخدمها كما لو كانت وسيلة، المترجم ضرورى. إن علاقتنا مميزة.

فى الواقع، كنت أحتاج إليها كى أكبر. لا أعرف كيف كنت سأستطيع أن أكبر، وأنا وحدى. وخصوصا أننا فى سن المراهقة، نحاول ألا نحتاج مجددا لآبائنا، وألا نطلب منهم أشياء كثيرة، ومارى هى التى حلت محلهم. وبمرور الوقت أصبحت مزدوجة اللغة تماماً. فهى تشير كما لو كانت صماء بحق.

صماء بهذه الطريقة الخاصة، التى تصاحب الإشارات بجلبة خفيفة تنطلق من الفم. إن مشهد مارى الصغيرة، وهى تشير

مباعدة بين أصابعها الصغيرة، وهى تصنع بوجهها الحركة الملائمة لكل كلمة وتمط شفتيها. إنها لسعادة غامرة. أقضى أوقاتًا مثيرة معها، حتى وإن اختتمناها بشد شعورنا. تعلمت معها ماذا تعنى المشاركة، والبوح، والعراك، والكره والحب.

وأنا معها متطلبة فى كل شىء تقريبا. كل ما لا أستطيع القيام به. فمثلاً، على الطاولة، ينبغى أن تترجم لى المحادثة؛ وأضايقها، وأتعقبها إذا نسيت وتركتنى حائرة حول معلومة ما. أحيانا كانت لا تهتم بأمرى. وأحيانا كنت أستشيط غضبا، أو أتفهمها.. يتوقف ذلك على التوقيت. فهناك أوقات كنا نتشاجر فيها جديا. على سبيل المثال، على التليفون.

ـ «مارى، تكلمى فى التليفون نيابة عنى» !

ـ مللت !

ـ ألا تفكرين فى أختك الصماء! أتتركيننى وشأنى، بهذه السهولة!

ـ إنك تستخدميننى طوال الوقت! أنت تستعملينننى!"

بذرة المرأة تلك ذات الخمس سنوات تتكلم كما لو كانت كتابا: أنا " أستعملها"!

" مارى... عندى موعد مع صديقة! تكلمى!"

ويستمر الأمر إلى أن تنفذ ما أطلبه منها. فالتليفون هو وسيلة أعشقها وأكرهها فى الوقت ذاته. فأنا أغار ممن يستخدمونه

بسهولة. أغار لأنه فى عمر الثالثة عشرة، نبدأ فى قضاء جزءٍ من حياتنا مع الأصحاب، وبالنسبة للصم، لابد وأن تمر المكالمة التليفونية بشخص يسمع. مارى تتصل بصاحبتى، فترد والدتها أو والدها، فتتضايق، فهى لا تحب أن تُجبر على قول:

"عذرا، لا بد أن أتكلم إلى فلانة، الأمر يخص أختى إيمانويل. ينبغى أن تقول لها ..... "

والآباء ليسوا بحاجة إلى معرفة كل شىء... ثم، لابد وأن تقدم لى تقريرا بما قيل فى التليفون. أجده دائما قصيرا جدا.

- "ألم تقل لك أكثر من ذلك؟

- كلا، لا شىء. قالت أمها أنها ليست موجودة، وأنها ستكلمك.

- لكن متى؟

- لا أعرف! إنك تضايقينى!"

أفهم أنها باتت لا تطيق. فطلباتى لا تتوقف، بشكل أو بآخر. فإذا لم أستطع الذهاب إلى مكان ما، يجب أن تصل هى بدلاً منى، وكذلك إذا تعين أن أغير موعد لقاء ما.

فى هذا الوقت، لم يكن لدينا ميناتل بعد، اقتنيته وأنا فى الخامسة عشرة. ومارى هى هاتفى المتكلم. وظلت هكذا طوال فترة مراهقتى، إلى أن وصلنا للميناتل.

أحكى لها عن أسرارى، ليس كلها، فهى تعرف من أراه ومن لا أراه، من لا أزال أراه ومن لم أعد أراه. كانت مجبرة بالطبع، وتتحمل ولا تنطق. فهى تكبر فى الوقت ذاته مثلى، فى حياة مزدوجة، إلى جانب العديد من الأشياء الأخرى المزدوجة. مارى، هى... مارى، أختى. التى أحبها.

كثيرا ما أشاكسها أيضاً. ربما بدافع الغيرة. كلا الغيرة ليست هى الكلمة المناسبة. بل الغيظ. فلمارى علاقة بأبى لا أستطيع أن أحظى بمثلها .

والبيانو يعد رمزا لهذا الغيظ المؤلم.

بدأت تلعب عليه مبكرا جدا. نجلس فى الصالون، ومارى تلعب مع أبى. فيما قبل، كنت أنا من تجلس إلى جواره، وأستمع إليه وهو يعزف، وكنت أفتش عن تلقى الأصوات الحادة، والأصوات الرخيمة، والجهاز السمعى لا يفعل شيئا فى هذا الأمر، كما هو بالنسبة لبقية الأشياء، ولكننى كنت أشعر بموسيقى بابا.

الآن، الدور على مارى. أصبحتُ معزولة فجأة. وهما شريكان أمام هذه الأداة التى يستقبلون منها الشىء ذاته. وأيديهما تعزف على أصابع البيانو ، يبتسمان، ويميلان برأسيهما، ويتحدثان، ويستمعان. إنها قصة حب تدور بينهما. أرى الحب يمر فى موسيقاهما. هذا أمر لا يحتمل. نزعت جهازى، وذهبت. فلم أعد أطيق المزيد من هذا. فهى تحظى بفرصة مشاركة والدى فى العزف، أكره هذا البيانو. وأفزع منه.

فى المرة الأولى، عبّرت عن شىء من عدم الارتياح هذا، لا أدرى كيف. ثم، ارتضيت بأن أذهب إلى غرفتى، وحيدة تماما. أعانى من الإقصاء. هناك فرق، يكمن فى استحالة أن ألحق بوالدى مثلها، وعلى الصعيد ذاته، فى الموسيقى.

تلك الموسيقى التى أهدانى إياها، على الرغم من ذلك. والتى استطعت الاستمتاع بها بفضله، والتى أعطتنى الفرصة لأهتز وأرقص. ولكن تلك الموسيقى التى لم تكن إلا لنا نحن الاثنين لم تعد كذلك.

هذا الغيظ، اكتشفته مارى أيضا. كانت لا تزال صغيرة، ربما كانت فى عامها الأول... الترتيب التاريخى للأحداث يمثل نقصا بالنسبة لى فى هذه الفترة. فى جميع الأحوال، كان ذلك بعد عودتنا من واشنطن. فى أحد المساءات، دعونا فى منزلنا ألفريدو كورادو واثنين من أصحابه. على الطاولة، الجميع يشيرون. كانت مناقشة، وكان والداى لا يزالان لا يجيدانها، يخطئان، ويطلبان تحديدات، ويبدآن من جديد. وألفريدو يضحك، كم جميل الحديث بلغته! أن تكون فى أمان، وثقة. وفجأة كشّرت مارى على الطاولة وأخذت تدبدب، وتخبط بقدمها. كانت تصرخ، وتبكى، اندهش ألفريدو من هذا العنف. هذا الشىء الصغير الهستيرى الذى يصدر عنه غضب جهنمى جعله مذهولاً.

أرادت مارى أن تجذب الانتباه إليها. وألا تكون منسية. وأن نتذكر أنها تسمع! تلك المحادثة المشتركة التى لا تراعى وجودها أثارت حنقها.

أتفهم ذلك تماما. فحين كنت فى الخامسة، كنت معزولة تماما على الطاولة. كل هذه الأفواه التى كانت تتحدث سريعا، تلك الأسماك التى تتحرك فى حوض بلا صوت. وأنا متروكة وحدى على جانب، على الشاطئ. وهو دور مارى أن تضيق بالإشارات. ولكنه ضيق مدته قصيرة جدا. فقد كنا نتحدث إليها من قبل، والآن، هم يتحدثون بالإشارات من أجلى. أهى الغيرة؟ كلا، بل الغيظ. أعرف ذلك جيدا. إنها طريقة لتذكر بها الآخرين بهويتك.

ألقيت بجهازى السمعى عندما كانت تعزف على البيانو مع بابا. وكم أردت أن أخبط الغطاء فوق أصابعهم. فوق أصابع والدى أم أصابع مارى؟ بل أصابع هذا البيانو اللعين الذى يتكلم دونى مع هؤلاء الذين أحبهم.

بيانو سولو. إيمانويل سولو .

- ١٣ -

ولع الفانيليا

قررت ألا أشارك فى شىء فى الفصل بعد الآن. لم أعد أطيق حصصهم، ولا أطيق قراءة شفاههم، ولا أن أكابد لأخرج أزيز صوتى. ضقت بالتاريخ والجغرافيا وحتى بالفرنسية، وضقت بالمدرسين المحبطين الذين لا يكفون عن إهانتى، ضقت بنفسى وسط الآخرين. فالواقع يقززنى بعض الشىء. حينئذ قررت ألا أواجهه. وأن أقوم بثورتى.

فمن العبث، أن أهدر حياتى فى المدرسة. فالساعات الأهم فى حياتى تضيع فى السجن. ويتملكنى الشعور ألا أحد يحبنى، وأننى لن أتمكن من الاستمرار. وأن كل ذلك لن يؤدى إلى شىء.

فالمستقبل غامض. ولا أعرف ما هو. ولا أريد أن أعرف. أقول لنفسى: " سأضع كل ذلك جانبا، وأنتظر."

ومع الانتظار، أحلم برحلات، ونزهات لامحدودة، أحلم أن أرى بلدانا، وثقافات أخرى، وبشرًا آخرين. أحلم بالحياة. إننى لا أسمع. وحتى الأخطاء، لدى الرغبة فى أن أعرفها. كثيرا ما يقولون لى: "انتبهى إلى هذا، انتبهى إلى ذلك.. سوف ترتكبين أخطاء."

فى الثالثة عشرة من عمرى، أجدنى ضد النظام وضد الطريقة التى يحكم بها الذين يسمعون مجتمعنًا نحن الصم. وأشعر أن هناك من يهيمن علىّ ويريد محو هويتى كصماء. فما كان يحدث فى المدرسة، كما لو كان يُقال لى:

" صممك، لابد وألا يراه أحد، وعليك أن تسمعى بجهازك السمعى، وأن تتكلمى كما لو كنت تسمعين. إن لغة الإشارات ليست جميلة. بل هى لغة وضيعة..."

تشكّل تمردى، بشكل أساسى، ضد تلك الحماقة. التى سمعتها طوال طفولتى؛ وكنت أصمت، حتى اللحظة التى برق فيها هذا النوع من الغضب.

ففى الثالثة عشرة، انفجرت. ها أنا ضد كل شىء. أريد عالمى أنا، ولغتى أنا، وأريد ألا يختلط بها أحد.

إن الصمم هو "الإعاقة" الوحيدة التى لا تُرى. فنرى أناسا فى كراسى متحركة، ونرى من هو أعمى، أو من بُتِر أحد أجزاء جسده، ولكن لا نرى الصمم، لهذا يريد الآخرون محو هذه الإعاقة لأنها غير مرئية. فهم لا يفهمون إلا أن الصم لا يريدون أن يسمعوا. إنهم يريدون أن نشبههم، بالرغبات ذاتها، والكبت ذاته. يريدون أن يكملوا نقصا ليس فينا.

أن أسمع، هذا الأمر يثير جنونى! لا أرغب فيه، ولا أفتقده، فأنا حتى لا أعرف ماذا يعنى أن أسمع. لا يمكن أن نرغب فيما لا نعرفه.

أقضى وقتى فى أن أحرك شعرى على ظهرى. وأن أربطه بالتوكة وينسدل حتى آخر ظهرى، وأهز رأسى مثل نجمات التليفزيون. وأمضغ العلكة ببطء بطريقة توحى بالضجر. وأتعطر برائحة الفانيليا، لدرجة تزعج العائلة كلها. إنه تمردى بالفانيليا.

تغير جسدى، أشعر أننى أصبحت امرأة. اكتشفت متعة الغواية. اكتشفت الرجال. من قبل، الرجل كان أبى. أما الآن، فأدرك أن هناك علاقات أخرى مع الرجال. وهناك ممارسة الجنس.

يوجد رجل صغير فى محيطى. كان يترقبنى وكنت أترقبه. إنها الفانيليا ولعى. حبى للعطر القوى، الحار، الغريب على عطور العائلة، حبى الاستوائى. والذى لم يمنحنى إياه أحد من قبل، والذى اكتشفته من باب المغامرة، والذى منعونى عنه - وهو ما يولد عندى الرغبة - والذى اخترته بغريزتى.

إننى أحب والدىّ، وأحب عائلتى، ولكن لابد لى من الحب الآخر. لم أعد أرغب فى سلطة والدىّ.

لن أطرح عليهم الأسئلة مجددا. بل سأطرحها على حبيبى الأصم. فهم يتكلمون عن الحدود، وعن التعقل، وعن المعايير، عما يحق لى من أشياء، وعما لا يحق لى. حقى أنا، أعرفه فى رأسى.

فالحب حق لا يمكن العيش دونه. وقعت فى الحب وأنا فى الثالثة عشرة، أعترف الآن أننى كنت صغيرة بعض الشىء، ولكن روميو وجولييت كانا فى الخامسة عشرة. لم يكن حبا صغيرا، بل كان كبيرا، وقويا، وعنيفا، كان حبا يدير الرأس، وسيشغل ثلاث سنوات من حياتى.

ثلاث سنوات من "الميل العاطفى". الميل العاطفى بالنسبة لى هو الشعور الكامل بالحب. حب العقل وحب القلب وحب الجسد. الولع، والحاجة إلى الآخر، والثقة الكاملة. هو أن تعطى وأن تستقبل، ولكن أن تعطى أساسا ـ فى المقام الأول. أعتقد أن المرء يستطيع أن يعطى كل شىء فى الحب. وأنه ينبغى تعلم أن يستقبل.

الحب، هو تخطى الذات، ومحاولة تقبل الآخر كما هو. بكل اختلافاته.

الحب... كم هو كبيرا! أشعر به تجاه أختى، وتجاه أمى، وتجاه أبى. وأشعر به الآن تجاه شخص آخر. إنه أمر مختلف.

وحين نكتب الحب بالأحرف الكبيرة، فهناك الكثير من أشكال الحب المختلفة. لقد أصبحتُ امرأةً صغيرة، وسريعا جدا، يقولون أننى كبرت بسرعة. فقد عشت رعاية مفرطة فى طفولتى، ثم مراهقة مليئة بالمغامرة والحرية.

كلا، لم تكن طفولتى بائسة. ولم تكن مفزعة. كنت محاصرة بعض الشىء، ومنغلقة، ولكننى استطعت التعبير عن نفسى بعد ذلك، وكان والداى يحباننى. فقد تقبلانى على اختلافى، وقاما بكل ما بوسعهما كى يتقاسماه معى. كنت أعرف أطفالاً صما عاشوا فى ظروف أسوأ بكثير، عاشوا بلا حب، وبلا تواصل، فى صحراء عاطفية كاملة، أشعر وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى أننى محظوظة بوالدىّ. أما هم، أولئك الصم، فحظهم عاثر طوال الوقت.

فكرة "التمرد" تعنى رغبتى فى أن أجرب كل شىء، وأن أرى كل شىء، وأن أفهم كل شىء. وأن أفعله وحدى.

ربما أتعقب شيئا ما أفتقده، دون أن أعرف ما هو. فأنا لا أفتقد لا الحب ولا الفهم، ولا المساعدة. ماذا إذن؟ لا أعرف، إنه أمر جسدىّ. أتعقب الحرية، والاستقلالية؟

شعر والداى بالقلق. بسبب تمردى ولأننى صماء. وبخاصة أمى. كانت تخشى من أن أضيع منها، من ألا أعتمد مجددا على الذين يسمعون، بل اعتمد على الآخرين، على الصم، وحينها تفقد هى التحكم. ولن أكون فى أمان.

أصبحت العلاقات صعبة، مع والدى. لم نعد نتواصل. كانت لديه مشاكله، وأنا لدى مشاكلى. والصراع هادئ بيننا، صراع غير منطوق، ولكنه كلاسيكى، صراع المواجهة بين الأب والبنت، بين الناضج والمراهقة.

وأيضا، حولته بطريقة ما، إلى صراع بين " شخص يسمع وأصم."

إننى أحب أصم، وأقضى وقتى مع الصم. وبالتالى كان والدى معزولين.

ولم يتوقعا أن تأتى أزمة المراهقة الشهيرة بهذه السرعة. بالإضافة إلى مطالبتى بقصة حب كاملة إلى هذا الحد.

أننى أغرق فى الحب وفى التمرد، كما نغرق فى البحر؛ بمتعة وبلا خوف، لا من الأمواج ولا من العمق المسكر الذى يتراقص تحتى.

كنت أرغب فيه. . هو يكبرنى بأربع سنوات. قمحى اللون، بعيون زرقاء. ذو عضلات مفتولة، وجسد مشدود، أحب سمته البرية بعض الشىء، فهو مختلف، وأصم، ويعبر بالإشارات عن اللغة العامية، لغة الشارع إنه جميل، أمى تقول:

"إنه سوقى بعض الشىء."

هذا حقيقى.

ومارى تقول:

" مثل متسكع آلى."

وهذا أيضا حقيقى.

وأبى يقول:

"إنه عنيف، اتركيه، فهو صحبة سيئة."

هذا صحيح ولكننى لن أتركه. على العكس، أجيب بقسوة:

"اسكت، اقفل فمك، إننى أحبه!"

تبادلنا القُبل للمرة الأولى، بعد المدرسة. فى موعد سرى، خلف الأشجار فى أحد الميادين، وسط مراجيح، وألعاب الأطفال.

القُبلة، كنت أجهل القُبلة.

هل كنت سأحب ذلك؟ طعم فم آخر؟

كانت الفتيات الأخريات فى الفصل، من هن أكبر منى، بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، قد شرحن لى. فنحن الصم نقول كل شىء فيما بيننا، ونتساءل عن كل شىء. كما كنت أريد أن أكون "ماكرة" مثلهن فى الحب، وأن أكون فى مستواهن. فأعطيننى "درسا" فى القبلة؛ أى أننى كنت أعرف من الناحية النظرية. وليس من الناحية العملية.

إنى أحبه. وأحب كل شىء منه.

- ١٤ -
نورس فى القفص

إننى أصرخ، ولا أتحدث جيدا، ولكنى لا أبالى. أظهر غضبى بالصراخ. فيرى الجميع أننى غاضبة. لكن أمام الظلم والإهانة، فإن غضبى يكون عاجزا. أننى أعانى بحق.

أتممت الثالثة عشرة، وصاحبتى فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، على كل الأحوال، كنت دائما الأصغر سنا وسط أصحابى.

كنت سأحضر حفلة فى الواحدة بعد الظهر، فوعدت أن أعود فى الساعة الرابعة. وإذا وعدت لا بد أن أفى بوعدى، كان عندى ما يكفى من الضجر كهذا.

فى لحظة الرحيل، كل شىء كان غريبا. شربت صاحبتى سانجريا ـ كحولا، وكذلك الصبيان اللذان كانا معنا. أنا، لم أشرب إطلاقا. ففى الثالثة عشرة لم أكن أشرب الكحول. استقللنا المترو جميعا، وبدأ تأثير النبيذ سريعا، بدأت صاحبتى تقوم بأشياء مضحكة، وترتكب حماقات، وكذلك الصبية. والناس ينظرون إلينا نظرة غير راضية. أربعة شباب صم، "ويتصرفون بحماقة".

بالنسبة لهم، نتحرك كثيرا حين نتكلم، ونُكشر ونضحك كثيرا. غالبا ما ألاحظ هذا التراجع، كما لو كنا نخيفهم.

لم أعد أعرف من الذى بدأ ، صاحبتى أم أحد الصبية. كانت هناك ملصقات إعلانية صغيرة خلف لوح زجاجى. أرادت أو أراد تلك الملصقات وخلعوها من إطارها. ويسيطر علينا الشعور بأننا نمزح مزحة كبيرة، ولكن كانت سيدة عجوز ترقبنا منذ البداية، فشعرت بالخوف وجذبت جرس الإنذار. توقف المترو، وصعد المراقب وقال:

" لا يحق لكم أن تفعلوا هذا!"

وبدأ سوء التفاهم المرعب. حاولت أن أشرح له أن صاحبتى شربت كثيرا من النبيذ، وبالتالى فهى لا تعنى ما فعلته. وهو لا يفهم شيئاً. وتدخَّل صاحبنا، وهو أصم وأشعث قليلاً، وبدأ يتشاجر مع المراقب، الذى استدعى الشرطة. فتزايدت عصبية الصبيين.

والآن، نحن الأربعة أمام "الشرطة" نحاول، بلا فائدة، أن نشرح أسباب "الحمق". وهم لا يريدون معرفة أى شىء. فكان موضوع المخالفة هو نزع ملصقات من داخل المترو، وهى موجودة، أمام أعيننا، فمسألة " سلوكنا الذى يشبه سلوك الكلاب اللولو" هو ما يهمهم فقط، ويبدو أن ما فعلناه يُسمى" تخريب وسائل نقل عام".

قادونا إلى أول قسم شرطة ثم إلى آخر، تقريبا مررنا بثلاثة أو أربعة.

وجدت القصة جهنمية، فأنا لم أفعل شيئا، ولم أشرب حتى، ولا تُصدَّق. إننى أريد العودة إلى منزلى . ولابد من أن أشرح الحقيقة. إنها حماقة كاملة، فالصبية لا يهدأون، ولا رجال الشرطة. الوقت يمر، وبدأت أخاف من أن أظل محبوسة هنا.

وأخيراً، فى لحظة هدوء، بدأت أشرح من جديد أين كنا، ولماذا شرب أصدقائى ولماذا كانوا مهتاجين... وأننى لم أقترف خطأً... ولم أشرب، ولم أكسر شيئاً... بذلت مجهوداً رهيبا كى أنطق وأشير فى الوقت ذاته. ولا أعرف إن كانوا قد فهموا.

لقد نلت كفايتى، وأريد أن يعرف والدىّ. سينتابهما القلق، وأريد أن يعرفا أين أنا.

"اتصل بهما، اتصل بهما.."

بُح صوتى وأنا أتوسل إليهم. أخذوا كارت الهوية، اسمى، وعنوانى، وكتبت رقم الهاتف على ورقة، لماذا لا يتصلون؟ فقد أومأوا لى بالإيجاب... الإيجاب برؤوسهم، ولكنهم لا يتصلون! لا أعرف كم مرة كررت الشىء ذاته. بإلحاح. ولكن الحوار غير ممكن مع هؤلاء الناس ذوى الزى الرسمى.

انتقلنا إلى قسم آخر، بسبب مسألة لم أفهمها وتتعلق بالأوراق. الوقت يمر بشكل رهيب. الساعة السابعة والنصف مساءً، حل الليل. هذا ليس طبيعيا، إننى فى الثالثة عشرة من عمرى، إننى صغيرة، ولا يحق لهم أن يحتجزونى على هذا النحو، دون إخبار

والدىّ. بدأت أشرح من جديد. ووجهى يتلون من فرط الغيظ. وضقت من كثرة ما قلت للشرطية إننى لم أرتكب خطأ، وأن الصبية هم الذين كانوا عصبيين لأنهم ثملوا! وانتابنى الشعور بأننى ببغاء مجنون يردد الكلام ذاته آلاف المرات. إن ذلك كله غير منطقى. وفى جميع الأحوال، لا يمكن أن يحتجزوا صبيين بسبب دعاية فى المترو لا يتجاوز حجمها ثلاثين سنتيمترا، وتمجد الكانيجو أو الصابون! لا أعرف إذا ما كانت تلك السيدة تفهم أو إذا كانت لا تريد أن تفهم، إنها كحائط برلين.

ثم قسم شرطة آخر، وأوراق أخرى. إننى خائفة بالفعل الآن. كنت أعتقد أن الشرطة هى رمز للأمان. ولكن ذلك انتهى، لم يعد لدى ثقة فيهم، بل إننى على أرض العدو؛ إذ يسيطر علىّ الخوف.

ركبنا سيارة الشرطة. أتنفس بشكل أفضل قليلاً، فهذه المرة سيأخذوننى إلى المنزل، وستستقيم الأمور. أشعر بالاطمئنان. ولكن فى الحقيقة، فإن السيارة توقفت أمام سجن. سجن حقيقى، ذى بوابة حديدية، وجدران.

رفضت الهبوط من العربة. ولم أرغب فى الدخول. فإذا سجنونى فلن أخرج منه مجددا!

لم يكن الصبية معنا، بل أخذوهم إلى مكان آخر. كنت أنا وصاحبتى فقط، مرعوبتين، ونشير بقلق:

" لم يتصلوا بأحد!

- إنهم لا يريدون!

- سوف نتكلبش.

- لا أريد أن أنزل.

كنت عصبية، وشعرت بغصة فى حلقى من فرط الغضب، فأخذت أنبح:

" أرجوك، اتصل بوالدىّ! سيقلقان! فكّر فيهما! أريدك أن تتصل بهما!"

نظر إلىّ أحد رجال الشرطة نظرة شريرة، وصرخ:

"اخرسى!"

إنه تهديد حقيقى. لم يعد يحق لى الكلام.

أنزلانا بالقوة، اجتزنا مدخل السجن. كانت تنتظرنا سيدة على الباب. تبعناها. إن ما يحدث لهو الجنون بحق، والظلم البين.

ما إدانتى؟ لأننى أردت أن أفسر الأمر؟ أم مدانة بما فعله الآخرون؟ أشعر أننى واقعة تحت وطأة ظلم كبير. وأننى لست المذنبة، إن ما يفعلونه بى لمؤلم ووحشى!

دخلنا إلى حجرة، وقالت لنا امرأة أن نخلع أربطة الأحذية والحلق. ووضعت كل شىء فى أكياس بلاستيكية صغيرة.

- " لماذا تفعلين ذلك؟

ـ يمكن الانتحار بأربطة الأحذية."

إننى أتلقى صدمة أخرى، رهيبة. فهذه المرة، يجتاحنى القلق. إنها كارثة سوداء، حقيقية. إننى بالفعل فى السجن، كمجرمة. ويخلعون عنى الحلق كما يحدث مع المحكوم عليهم بالإعدام! إنه أمر مثير للكآبة، إذ ينطوى على الشعور باليأس والموت. ووالدى اللذان لا يعرفان شيئا. لابد وأنهما اعتقدا أننى غير مطيعة، وأننى مازلت فى هذه الحفلة، أو مع صاحبى الصغير، ولا يعرفان بمن يتوجب عليهما أن يتصلا، عند أى أصم من أصحابى! كى يسألا من لا يعرف شيئا: "أين إيمانويل؟"

عرضت علينا السيدة أن نأكل شيئا، حبة طماطم، أو بيضة... ولكننى لم أكن جائعة. وكذلك صاحبتى. حينها، دخلنا إلى حجرة كبيرة. فى منتصفها، يوجد سلم يؤدى إلى الزنزانات على الجانبين. السيدة... تقدمتنا وبيدها سلسلة مفاتيح كبيرة. كانت هناك فتيات أخريات متراصات فى حجرات أخرى. تساءلتُ عما إذا كانت تُرينا ذلك كى تخيفنا.

فتحت باب زنزانة، الإضاءة مُقبضة، ودفعتنى للأمام، وحدى.

صرخت: "أريد أن أنام مع صاحبتى!"

رفضت. فهى تريد أن تفصلنا. حينئذ أخذت أنبح، وأنبح وأنبح. كنورس ينبح فى العاصفة. لن أحتمل الحبس وحدى هنا! أريد صاحبتى، إننى خائفة جدا. هل سأقضى الليل كله وسط هذه

الجدران المقززة، ودونها، ودون كلام مع أحد، غير ممكن! ظللت أنبح حتى استجابت الأخت.

صفقت الباب. ها نحن محبوستان. سريران من الحديد أحدهما فوق الآخر، بلا فرش، وأغطية رمادية، مطبقة أربع طبقات. وحفرة تستخدم فى "قضاء الحاجة"، تثير الاشمئزاز. وحوض بائس. احتضنا بعضنا بعضًا، ملتصقتين من الخوف.

ماذا سيحدث ؟ لم يقل لنا أحد شيئا. كم سنقضى من الوقت هنا؟ وماذا عن والدينا؟ أين نحن؟

إنه كابوس. إنه رعب حقيقى. إنه الحبس المخيف، حتى لو كنا سويا. والظلم، لماذا؟ ومسألة استحالة أن تفهم، لماذا؟ وألا يخبروا آباءنا، لماذا؟ ماذا يريدون منا؟ نحن نشعر بالنبذ، والبؤس، والإذلال. إنه الغضب والخوف، اليأس والقلق.

هذا الجُحر ذو الرائحة النتنة. وهذه الليلة التى تمر ببطء فى صمت أسود. ماذا يمكن أن نفعل؟ هل نخبِّط، هل نضرب بأرجلنا على هذا الباب اللعين؟ إنهم يذلّوننا منذ البداية.

هل نصرخ؟ لم أعد أقوى على ذلك. فأنا خائرة، وضائعة. لا أعرف حتى أين أنا. وفى أى سجن. وتهاجمنى فكرة كئيبة تتعلق بأننى سأقضى ما بقى من حياتى هنا، وأن لا أحد سيأتى ليبحث عنى، لأن لا أحد يسمعنى، ولأن لا أحد سيخبر والدىّ. إنه حبس. إننا رهائن لرجال الشرطة الذين يسمعون، والذين يحتقروننا. فهم

رأوا أننا صم، ورأونى كيف أتوسل لهم. ولديهم أوراقى، ويعرفون سنى. حتى وإن اعتقدوا أننى ارتكبت جريمة شنعاء، فلا يحق لهم ألا يخبروا والدىّ! إنهم يحتجزوننا هنا كما لو كنا كلبين ضالين! كما لو كنا حيوانين. ليسوا بحاجة للكلام مع الحيوانات، ويدفعونهم بغلظة، ويعاملونهم بالإجبار، ويقولون لهم: "اذهبوا إلى الجحيم!

«إننى أكرههم. فهم يخيفوننى، وأنا أكرههم.

فى نهاية الليل نمنا من الإنهاك. وجاءت سيدتان فى الصباح لتوقظانا. عدت أشرح من جديد أننى لم أفعل شيئا وأننى أريد أن يكلم أحد والدىّ. تلك السيدة دائما لا تسمع. وتريد، بلا شك، أن تضع لى يدىّ خلف ظهرى، وتقيدنى الآن! وتربطنى، ولا تسمعنى أبدا.

فى الخارج، دفعتانا داخل سيارة، وأيدينا مكبلة خلف ظهورنا. أين سنذهب؟ إنهما تتكلمان فيما بينهما، وأنا لا أفهم شيئا. ها نحن من جديد فى قسم شرطة. ويملأون أوراقا من جديد. وأنا أكرر ما قمت به البارحة. أشرح، وأشرح، حتى ينقطع نفسى، وحتى يؤلمنى حلقى، حتى يتلوى فمى من الألم.

"اتصل بوالدىّ..."

وفجأة، هذا يكفى. حل الخوف محل الغضب. ضقت بالإيماء إيجابا برؤوسهم كما لو كنت بلهاء. وأخذت أنبح:

" زهقت من نعم! هذا يكفى!"

وأمسكت بالهاتف رغم أنف تلك السيدة الغبية، وطلبت الرقم وأنا أنبح طوال الوقت، وأمسكت لها هذا الشىء، ووضعته بالقوة على أذنيها، والدموع تملأ عينىّ. بالفعل لم أعد أستطيع الصبر أكثر من ذلك.

" تكلمى... أتوسل إليك أن تتكلمى..."

والتهمتها بنظرتى. تم الأمر، وتكلمت.

تكلمت مع أحد ما فى بيتى. وأغلقت الخط بعد وقت بدا لى قصير. وفهمت أنها تحدثت مع والدى، وأنه سيأتى، أخيرا!

تحرّق حلقى، والغضب يتصاعد من جديد. ولكن ماذا عن صاحبتى؟ فوالداها أصمّان، كيف يمكن الاتصال بهما؟ سوف يدبر لنا بابا هذا الأمر.

كنا فى قسم للقُصّر، هناك الكثير من الصبية. وأثناء الانتظار، حاولت التواصل مع فتاة أخرى، تنتظر مثلنا. فهّمتنى أنها هربت. وحكيت لها ببعض الكلمات قصة النبيذ والإعلان والمترو. وصلت أمها، ويبدو عليها الغضب الشديد، والوجه المتعكر. تناقشت مع الضباط، والبنت لا تقول شيئا. انتظرت، وفجأة، صفعتها أمها، رأيت أنفها ينزف.

هل سيصفعنى والدى بهذا الشكل؟ فلم يصفعنى والدى من قبل قط، لكن، فى موقف كهذا، فإن ما حدث لتلك البنت يمكن أن يحدث معى. لماذا ضربَتها؟ إنه أمر غير منطقى. إننى لا أفهم. ولم أكن أتخيل إمكانية وجود العنف بين الأم وابنتها.

وحينها لم أعد أفهم. لم يعد لدى منطق فى التفكير. وخشيت بالفعل من أن يضربنى والدى حين يصل.

أخذنى بين ذراعيه، وأخذت أنشج، وأنشج...

ثم شرحت ما حدث لنا. كل شىء، النبيذ، والمترو، والإعلان، والليل فى الزنزانة. هؤلاء الضباط الذين رفضوا الاتصال!

بالتأكيد، كان والدى قلقين بشكل رهيب، وكانا يعتزمان أن يبلغا البوليس فى الصباح، عندما نجحت فى النهاية أن أتصل بهذا التليفون اللعين. وكان والدى مرعوبًا، ومصدوما. وطلب تفسيرات.

والضباط يفرون من أمامه:

" لست أنا المسئول عن إخبار آباء القُصّر، إننى أصطحب..."

"آه! ليست هذه مهمتى، أنا أنقل القُصّر، دون أن أعرف لماذا!"

أبى يتملكه الغضب! وتشاجر مع الضباط. أراد أن يرفع شكوى، ويخطر المحامين والصحافة، ولكنه لم يفعل ذلك، لأن فى الوقت ذاته، تعرضت أختى مارى لحادث طريق مروع وكانت فى المستشفى، حيث كان والدى يرعيانها طوال الوقت. أراد والدى أن نأخذ معنا صاحبتى، لأن والديها الصم لم يكونا يعرفان قط. لم يوافق الضابط:

ـ"آه! كلا، لابد وأن يأتى والداها!

ـ لكن كيف سيعرفان؟

ـ ما من مشكلة، سنهتم بالأمر، ليس عليك أن تصحبها، فأنت لست والدها."

لم نستطع أن نفعل شيئا، كنا نشعر بالحزن لتركها فى هذا المكان. قالت لى البنت المسكينة فيما بعد أنها انتظرت حتى المساء، فى هذا القسم، حتى وصل والداها. حيث توجب الاتصال بأحد الجيران، والذى أخبر جارًا آخر، ولا أعرف المزيد. ومضى نهار آخر حتى تمكن رجال البوليس من أن يضعوا الوالدين فى الصورة!

الصبيّان أيضا ذهبا إلى السجن، ولكنهما كانا يشعران أنهما مخطئان بعض الشىء. لم يكونا يشعران مثلى. لكننى عشت هذه القصة بصعوبة. ضباط وأشخاص يسمعون، وصراع كذلك. فى الثالثة عشرة، وفى حالة التمرد التى كنت عليها، إننى غريبة الأطوار. فى هذه الفترة، كنت بحاجة إلى صورة مطمئنة وإيجابية للبوليس، وللمجتمع الذى كان يمثله، وفى لب الأمر: للذين يسمعون.

أثر فىّ كثيرا، الاحتقار الذى أبداه هؤلاء الناس. ولم أنسه قط. ولم أستطع الثقة فى أحد بعد ذلك. كان هناك عالمهم وهناك عالمى. ففى عالمهم، أودعونى السجن رافضين التواصل معى. دون بذل الجهد ليفهموا. كما لو كان الجدار الذى كان يفصلنى فى طفولتى قد عاد ليظهر من جديد. هذا الحبس، كان كفيلم رعب. لم يعد لخيالى حدود. كنت أتساءل عما سيخترعه هؤلاء الضباط، وعما سيفعلونه بنا. إنهم يخططون لشىء رهيب، وربما لن يجدنى والدى أبدا. إنها العزلة من جديد، وعدم القابلية للتواصل، بالإضافة إلى الخزى هذه المرة، والوعى التام الذى أصبح عندى فى هذا السن.

عندما أفكر ثانية فى هذه المرحلة، وفى الإحساس الفظيع بالظلم، وبالاحتقار الذى عانيت منه، أشعر من جديد بالتشنج يجتاح جسدى. كنت أحتاج لأبى أو أمى فى هذا اليوم. ويحق لى ذلك. كنت أحتاج لمن يسمعنى، ويحق لى ذلك.

وبدلاً من هذا، دفعونى دفعا نحو الوحدة، نحو الزمن الذى كنت أجذب فيه أمى من كمها، كى تنصت إلىّ. إلى زمن حيث أصغر تكشيرة من والدى، أو مظهر للغضب يقلقنى. الوقت الذى كان فيه عالم الذين يسمعون يمثل غموضا هائلاً، ومجموعة من أشكال عدم التفاهم المتعدد، كوكب غير معروف، وخطير.

لو كانوا تركونى أتكلم بإيقاعى، وبصوتى، لو أنهم احترموا الفرد الذى أمثله، ما كانت هذه الكومة من عدم الفهم لتظهر، لما شعرت بأشكال الظلم. وربما هدأ تمردى، وحماقاتى.

بعد هذه الصدمة، حاولت أن أشرح لوالدى ما شعرت به، لم أستطع على الفور، فقد كنت مصدومة تماما. ثم حكيت، بشكل عام، ولكن كان من المستحيل أن أشرح كل ما كنت أشعر به فى أعماقى، أحاسيسى. شعور أنهم قد اغتصبوا روح الطفلة داخلى. هذا هو الأمر حقا، تلك هى الصورة فى رأسى. فإدراكى ورؤيتى للعالم قد تم اغتصابهما. لقد كسروا صورة الحماية، والأمان، والثقة. إنه لجرح قاطع. ولكننى لم أكن أجد الكلمات لأقولها فى التو. حتى

الآن أقول " اغتصاب" و "جرح قاطع"، ولكننى لا أعرف إذا كانت تلك هى الكلمات المضبوطة أم لا. أشعر أن ما بداخلى أقوى من تلك الكلمات. وربما لم يفهم والدى أن ما شعرت به داخلى كان قاسيا للغاية. كان هناك المعاناة، والإذلال، والظلم، والحنق. لقد اعتدوا على، وآذونى فى أعماقى ، وعاملونى كأبله عليه أن يتحمل ما يجرى له دون أن يفهم. كنت أرى بوضوح سلوكهم المحتقِر، وكم آذانى ذلك!

كنت أنبح خلف حواجز لأناس لا يريدون أن يسمعوا. لم أنجح فى تخطى الموقف، أو فى أن أطمئن نفسى. إن الظلم لشىء رهيب. ففى السجن، نحن مجبرون على الصمت والقبول. لم أشعر فى حياتى بمعاناة، بقسوة تلك المعاناة.

- ١٥ -

خطـر مسروق

وصل المينيتل! الشىء السحرى. التواصل دون وسيط. بكيت من الفرحة. فهو يمثل مزيدا من الحرية. بل كنزًا من الحرية، وفى الخامسة عشرة من عمرى!

هذه الوسيلة سمحت لى بالتواصل بحرية مع أصحابى، عن طريق الكتابة. إنه هدية قيمة، إنه تحرر!

والدى أحضراه لى كمفاجأة. رأيت هذه الآلة الصغيرة موضوعة فوق التليفون، بشاشة تشبه شاشة التليفزيون. أعدت أمى كل شىء، ولم يتبق لى سوى أن أضع الخط. حين تتصل بى صاحبتى كلير، يعمل فلاشا ضوئيا، وأرى على الشاشة عبارات المتصل. أبى وأمى ومارى ينظرون إلىّ. البهجة تسد حلقى.

لقد اكتشفت للمرة الأولى استقلاليتى!

لم أعد أحتاج أن أضايق أختى كى تتحدث إلى كلير. نتناقش بالساعات، إنها ثرثارة أكثر منى. نقضى ساعة أو ساعتين فى الثرثرة على هذا الجهاز، هى تحكى لى عن حياتها، وأنا أحكى عن

حياتى. إنه رائع بالنسبة لنا، ولكنه غال. ومقلق حين يكون عندنا أسرار فى الخامسة عشرة.

ضُبطْتُ بسبب صديقة. قرأت أمى على الشاشة فى أثناء غيابى، ودون أن تقصد التجسس علىّ بأى طريقة ما كانت، قرأت رسالة مقلقة:

" تحياتى إيمانويل! أمازلت مريضة؟"

وها أنا فى مواجهة أمى، عند عودتى فى المساء.

" إذن هل أنت مريضة؟"

حاولت أن أكذب، وأوقفتنى سريعا جدا. الحقيقة أننى تغيبت عن دروسى. ولم تكن أمى تنوى أن تترك الأمر يمر.

كان الشجار عنيفا، بلغة الإشارات؛ وأمى تصرخ فى الوقت ذاته، بلا فائدة، بالتأكيد. وأنا أشير:

"لا داعى للصراخ، فأنا صماء!"

ويتضاعف غضبها أمام قلة أدبى. صماء نعم، ولكننى بالأحرى كذّابة. الشجار تصاعد أكثر، ومارى مرعوبة، واحتمت بحجرتها وهى تبكى. بعد ذلك بقليل كنت أنا التى أبكى فى حجرتى. ثم لحقت بى مارى وبكينا نحن الاثنتين.

لأن كل شىء يتعلق بى فى هذه الفترة كان يحمل خطرا، وخاصة مسألة أن والدىّ لا يتقبلان قصة حبى مع هذا الصبى. كانا يخافان من هذه العلاقة القوية، العنيفة، مع صبى أكبر منى سنا، ومختلف، ولا يريد أن يتعلم، ويتاجر فيما لا يعرفه أحد، ويتشاجر معظم

الوقت، ودائما ما يقدم الشجار والعنف على أى شىء آخر، ومتسلط ومتطلب، ولكننى أثق فيه ثقة عمياء. إنه " ى" . وهم يعرفون أنه مخيف؛ أما أنا فلا. إننى منجذبة جدا، وهو أيضا، ولا شىء، بخلاف هذا الانجذاب الواضح فى علاقتنا. لم أفكر لحظة فى صفاته السيئة؛ لماذا هذا العنف؟ لماذا هذا الاختلاف؟ هذا المزاج المتطرف؟ أعتقد أننى أعرفه أكثر من الآخرين، لأننى أحبه. لم يكن محظوظاً بوالديه مثلما كنت محظوظة بوالدىّ. إنه يبحث عن الحب مثلى؛ إنه يريدنى، وأنا؛ أريده هو. لم أعد أسمع شيئا، حيث كنت منغلقة فى هذه القصة الشخصية المجنونة بعض الشىء. إنه "..." وماذا بعد؟ إننى أحبه. وهذا كل ما فى الأمر.

إلى جانب أننى لم أترك دروسى بسببه أساسا. ولكن استخدام النطق فى الدروس هو ما جعلنى أهرب، لشعورى بأننى أفقد وقتا ثمينا. أننى أريد أن أعيش.

كرر والدى فى المساء المناقشة الغاضبة. هذه المرة، أنصت إليه دون أن أنطق، وهو ما يصعب علىّ. لن أتغيب عن الدروس مجددا أبدا. لقد وعدته، وسأحافظ على وعدى، ولكن إيمانويل لابورى لم تستوعب ذلك بعد.

إنها غائبة فى الحصص، وهى جالسة فيها. المدرسون يتعصبون، فلم ينجحوا فى خرق الكرة التى أجلس بداخلها، فى مأمن من حركات وجههم. تكلمى ، تكلمى ، لن يتبقى شئٌ من هذا. يطلبون

منى أن أفتح فمى، وأفتحه لأحتقركم، كى أثرثر يمينا ويسارا، ولكن ليس لأتعلم ما تريدون أن تدخلوه بالقوة فى هذا الفم.

إنه عام ملىء بكل أشكال المخاطر، والحماقات، والتعليم.

سنة الالتزام "السياسى"، كذلك. فقد شاركت فى مظاهرات من أجل الاعتراف بلغة الإشارات. بالنسبة لى، إنه أمر إيجابى، وبنّاء. أريد أن أخبر الصم. أريد أن أكون مناضلة. أريد أن يتوقفوا عن تحريم لغتى، وأن يصبح للأطفال الصم الحق فى التعليم الكامل، وأن يقيموا لهم مدارس مزدوجة اللغة. ينبغى حتما أن يُكرّموا، فى فرنسا، لغة الإشارات، وألا يكون تعليمها مقصورا على الأقلية، أو على النخبة، وأن يتوقفوا عن منعها. وفى هذا الشأن، تركتنى أمى أمضى، قائلة:

" إذا كان ذلك مهما بالنسبة لك، إذن هيا، امض"

سمح لى والدى بأشياء كثيرة فيما قبل، ولقد قمت بأشياء كثيرة لا يعرفونها، على سبيل المثال، حكاية أننى كنت "أقابل شلتى بشكل متكرر" فى محطة مترو أوبرا. إنها مكان تجمع الصم فى ذلك التوقيت، الجيتو الصغير الذى نحكى فيه كل شىء، ونعلق، وننظم أنفسنا فيما بيننا. الشباب الذين يسمعون يفعلون الشىء ذاته فى أماكن أخرى، فى الضواحى، فى الأراضى الخاوية وأفنية البنايات.

الفرق الكبير هو أنه عندما يقابل أصمٌّ أصما آخر لأول مرة فإنهما يتبادلان الحكايات... قصص الصم، أى حياتهم، على الفور، كما لو كانا يعرفان بعضهما منذ الأزل. الحوار يكون فوريا،

ومباشرا، وسهلا. على خلاف الذين يسمعون. فالذى يسمع لا يقفز على الآخر فورَ تعارفهما. لأن التعارف يحدث ببطء، وبحذر، لابد من وقت ليتعارفا. فلدى كل منهما كومة من الكلمات التى يقولها. لديهما طريقتهما فى التفكير، وفى بناء فكرهما، المختلف عن فكرى، عن فكرنا.

فالذى يسمع يبدأ الجملة بالفاعل ثم الفعل ثم المفعول به وفى النهاية تماما، يعبر عن "الفكرة".

" أنا قررت أن أذهب إلى المطعم لآكل محارًا."

(أنا أعشق المحار).

فى لغة الإشارات، نعبر أولاً عن الفكرة الرئيسية، ثم نضيف أحيانا التفاصيل وديكور الجملة. فالأكل هو الهدف الرئيسى، فهو الإشارة الأولى فى الجملة. بالنسبة للتفاصيل، أستطيع أن أشير لكيلومترات. يبدو أننى أشتهى التفاصيل كما أشتهى المحار.

علاوة على ذلك، فإن كلا منا له طريقته فى الإشارة، وله أسلوبه. كما الأصوات المختلفة. فهناك من يتكلمون لساعات. وهناك الذين يختصرون. وهناك الذين يشيرون بالعامية، أو الكلاسيكية. ولكن إجمالاً، التعارف بين الصم يستغرق ثوانى.

فنحن، نتعرف أولاً. " أنتِ صماء؟ إننى أصم." إنها كالحزب، فالتضامن يكون فوريًا، مثل سائحين فى بلد أجنبى. والمحادثة ستذهب سريعاً نحو الأمور الأساسية. " ماذا تفعل؟ تحب من؟ تخالط من؟ ما رأيك فى يونتل؟ أين ستذهب هذا المساء؟"...

ومع أمى أيضاً ، التواصل كان صريحا، ومباشراً. فهى ليست كالذين يسمعون، الذين يختبئون عادة خلف الكلمات، والذين لا يعبرون بعمق عن الأشياء.

فمثلاً كلمات كالتعليم، التوافق ـ التقاليد، لا نقولها، والكلمة الموحية، والكلمة التى يمكن تحاشيها، والكلمة الفظة، والممنوعة، أو الكلمة الظاهرة. والكلمات التى لا يصح قولها.

لا يوجد إشارة ممنوعة، أو مخفيّة، أو موحية أو فظة. فالإشارة تكون مباشرة وتعبر ببساطة عما تمثله. أحيانا تكون قاسية بالنسبة للذين يسمعون.

لم أكن أفكر حين كنت صغيرة أنه من الممكن أن يمنعونى من أن أشير لشىء أو شخص باستخدام الأصبع على سبيل المثال! لم يقل لى أحد: "لا تفعلى هذا، هذا غير مهذب!"

فأصبعى الذى يعبر عن كائن ما، ويدى التى كانت تأخذ شيئا ما، تمثل أدوات تواصلى. لم يكن عندى موانع تتعلق بالسلوك الحركى. التعبير عن الجوع، أو العطش، أو ألم البطن، هى أمور مرئية. أن يحب المرء، مرئى أيضًا، وكذلك ألا يحب. ربما يُضايقهم هذا الشىء، أعنى تلك الأمور "المرئية"، هذا الغياب للتحريم التوافقى.

وأنا فى الثالثة عشرة، قررت أننى لا أرغب فى المزيد من المحرَّمات، ولا أرغب فيمن تصدر عنهم. وتلقى والدى الصدمة على

قدر استطاعتهما. فى مترو أوبرا، كنت كأننى فى بيتى، ووسط جماعتى، كنت حرة.

ولكن حين نتسلق ظهر عربة المترو، وحين نركض مثل الريح من محطة لأخرى، كى نلعب لعبة طرزان. فربما نموت. لقد فعلتها، ولم أقل ذلك قط، عذرًا أبى وأمى. لحسن الحظ، أننى لم أمت بسبب ذلك. فذلك يشكّل جزءًا من معرفتى بالحياة. كنت أشعل كل ما أستطيع إشعاله، حتى يأتى شخص أو شىء ما، لحسن الحظ، فيمنعنى من الاستمرار.

فى يوم ما، بعد انتهاء إحدى الحفلات ضد العنصرية، والتى كانت تنظمها SOS، التى اعتدت حضورها مع أصحابى الصم وأصحابى الذين يسمعون، نرقص ونثرثر فى اللقاءات التى تحدث بشكل عشوائى، ثم عدنا فى ساعة من الصباح فى المترو. العربات كانت مزدحمة، والشباب ملتصقون بعضهم بعضا. شخص أسود ضخم، لم يجد مثلى مكانا فى داخل العربة، أشار لى بالعامية، أن أصحبه إلى ما بين عربتين، وأن أتشبث مثله بالمقبض الخارجى للباب. وجدت الفكرة طريفة، أكثر من أن أصطف مع الآخرين، فقلدته. صحيح أننى خائفة. ولكنه خوف مثير.

فالمحطات تتتابع الواحدة بعد الأخرى، وفى كل منها أكون مقتنعة أننى لن أجرؤ على الذهاب إلى التالية. ولكننى أتمسك جيدا. وأقرنت تفاخرى بما أفعل بألا أترك المغامرة، وحسبتها

شجاعة ، كما لو كنت بطلة صغيرة، حتى المحطة الأخيرة. وأنا فى حالة من عدم الوعى التام.

لم أتباه قط بتلك التجربة، اليوم، أخاف بأثر رجعى. فى محطة أوبرا، ربما تتذكرنى قوائم المترو.

كنا فى مدرسة للنطق طوال النهار. وحالما خرجنا كانت هناك تلك الحاجة المتطلبة للتعويض. الاحتياج لنكون سويا، للتكلم فيما بيننا. أن نستعيد، ليس فقط الوقت الضائع مع الذين يسمعون فى النهار، ولكن أن نستعيد لغتنا، وهويتنا. لم نكن لنشعر بهذا الشعور، لو لم تكن لغة الإشارات ممنوعة فى المدرسة. لم نكن لنعيش فى الجيتو. إذا لم يكن هناك كبت ورقابة، لربما كان كل شىء أسهل. لأنه لا شىء سهلاً بالنسبة لنا. حين نقضى النهار فى فهم نصف ما يقوله المدرس، فلا يكون لدينا سوى الرغبة فى: أن نلتقى، ونتكلم، ونتكلم، ونتشارك فى أشياء. من المهم أن نكون سويا. وسويا نقوم بالحماقات.

أنا فى الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة تقريبا. وعندى الرغبة فى بنطلون جنيز جميل. كل المراهقين فى سنى يحلمون بالثياب. والثياب المثالية، هى الجينز. وليس الملابس القبيحة، المعروضة فى محلات التخفيضات، كلا. الجميل هو الماركات، والموديل الحديث. هذا الذى يتكلف على الأقل أربعمائة فرنك.

ولكن والدىّ لم يكونا أثرياء. فأنا أكلفهما بالفعل أقصى ما يستطيعانه، بالمينيتل الخاص بى، والدروس، وبقية الأشياء، كما أننى أرفض المطالبة بزيادة فى مصروف الجيب.

سيدفعنى الغرور لارتكاب الحماقات. تلك المرة، ما من أى عذر، أننى مخطئة مقدما. لقد كنا مخطئتين حين قررنا أنا وصاحبتى أن تسرق كل منا بنطلون جينز من أحد المحلات الكبرى. ليفيس Levi's. ذى الأسعار المرتفعة.

ها نحن فى القسم المخصص، نبحث فى الماركات، والمقاس. وفى غرفة تجربة الملابس، نجحنا فى خلع القطعة المغناطيسية المثبتة فى أسفل الجينز. وخرجنا نحن الاثنتين، وهرب الجينز من الأكمنة مختبئا فى كيس. والبائعة المسئولة عن مراقبة غرف خلع الملابس لم تكن موجودة. نزلنا الأدوار، ونحن متوترتان للغاية. وأعيننا خلف رؤوسنا، ولاحظت أن هناك بائعة تنظر إلينا من بعيد، وهى تتناقش مع سيدة بالزى المدنى.

أشرت لصاحبتى:

ـ " لقد رأتنا، أننى متأكدة أنها تنظر إلينا».

ـ كلا، لا تقلقى، إنك تلفتين النظر! ما من مشكلة.

ـ يبدو عليها الغلطة ! لقد انتبهوا لما فعلناه!

ـ توقفى! إنك مصابة بالرعب! "

نزلنا السلم، ثم اجتزنا الردهة، ونستعد للخروج، الباب مفتوح تقريبا، سنجن من السعادة.

وفجأة، شعرت بمن يمسكنى من الخلف، والسيدة تلوى يدىّ خلف ظهرى وتقودنى نحو المحل. أشارت صاحبتى سريعا:

ـ " لا تتكلمى! ولا تصدرى صوتا."

فعلت ما قالته. لم تخرج أى كلمة من فمى، ولا من فمها. انقطع الاتصال. إنه دفاعنا الوحيد، الغريزى. إنه ملاذ الصم. ولكننى أفكر، سيتصلون بوالدى، أمر مرعب. إننى حرامية.

ها نحن فى قسم البوليس. أفرغت السيدة محتويات الحقائب. ونحن ننظر لما تفعل دون أن ننطق بكلمة. طلبت منى بطاقة هويتى، تظاهرت بأننى لا أفهم.

حاولت أن تشرح لى، أن تومئ، وهى ترينى أوراقا. فهمت أننا صم. فقد رأت أننا نتكلم بلغة الإشارات. ولكن لم يكن من الممكن إطلاقا أن نتفاهم، وبخاصة أنها أملنا الوحيد فى تشويش الأشياء. أخذت تفتش فى كراساتنا، كى تعرف أسماءنا. أنا لا أضع اسمى على كراساتى. فأنا كبيرة، أنا فى الصف الثانوى، لم أعد فى الحضانة. فى المقابل، تكتب صاحبتى اسمها. عرفوا اسمها، ولكن لم يعرفوا أى شىء آخر.

بعد ذلك، قاموا بتفتيشنا، كانت الشرطية عدوانية، وتسىء معاملتنا كما لو كنا عرائس من الشيفون. شعرت أن الصراع سيتعقد أكثر. علاوة على ذلك، فإننى لم أحتمل الطريقة التى تقلب بها فينا. أخذت أنبح، متظاهرة بصعوبة فى الكلام. كنت أستطيع بالتأكيد أن أكوّن جملة صحيحة، لكن كلا، كنت أنبح بأشياء كثيرة فى وجهها. لقد أغضبتنى، بأيديها القذرة التى تفتش بها بلا عناية. يا للمفاجأة، السيدة حاولت تهدئتى.

ثم جاء رجل وأخذ أمر التوقيف الخاص بنا ، جلس الرجل وبدأ:

" إن مافعلتماه لخطأ كبير، إذا استمرت السرقة، ستدخلان السجن."

أشرت بالإيجاب برأسى، مثل صبية صغيرة.

"اذهبا! اهربا!"

للحظة، لم أصدق. قلت لنفسى: " انتبهى، إنه فخ، ويقصدون من ورائه شيئا." لكن لا، كرر الرجل، وهو يشير بيده:

" اهربا!"

أخذنا الحقائب، وذهبنا، دون أن نجرى، والظهر مستقيم، لا نزال قلقتين، لكنه حقيقى، لقد تركنا نرحل!

فى الشارع، كنا نقفز من الفرحة. ونضحك، ضحكات عصبية، ضحكة مجنونة ونبكى فى الوقت ذاته. نتحادث فى الأمر بلا ملل، ونضيف إليه، الخوف والتفتيش، الإيماءات، وأنا حين نبحث، والحرية!

عدت إلى منزلى. وفهمت. انتهى الأمر.

لن أسرق بعد ذلك أبدا. إذا لم توقع بى تلك السيدة، لربما كنت استمررت، ببجاحة، ولكن مسألة أن يقبض علىّ، الخوف، والخزى إذا عرف والدى لعلمانى ذلك، ولجعلانى أنتبه لما كنت أفعله. أشعر أننى مدانة ومسئولة. مدانة بعض الشىء. ومسئولة بعض الشىء.

فأنا لست قديسة صغيرة. بل إننى صعبة المراس. وقاسية، وأميل إلى الصراع، وثائرة. لابد لى من خوض الخبرات، كى أواجهها تماما ثم أقرر الاستمرار من عدمه.

بالنسبة للسرقة، انتهى الأمر. مرة واحدة، وليست مرتين.

إننى نورس سارق.

- ١٦ -

تواصل مخملى

إن عيون الأمهات مثل عيون القطط وآذانهن مثل .. لا أدرى. لقد عدت فى الفجر على أطراف أصابعى، وأمى لا تزال مستيقظة:

ـ أأنت بخير؟ هل عدت؟ هل هناك مشكلة؟

ـ أنا بخير يا أمى، فلتنامى... كل شىء على ما يرام، نامى."

كل شىء على مايرام، إنه لقول سهل. عند العودة وحدى فى الرابعة صباحا، فإننى ربما أكون قدِ تعرضت لمخاطر بالتأكيد.

فعند خروجى من النادى الليلى، استقللت تاكسيا كى أعود. بدأ السائق الطريق، وعندما توقفنا عند إشارة حمراء، استدار نحوى وسألنى فجأة:

" أنذهب إلى الفندق؟"

من يظننى؟ لابد وأن أبدى الدهشة، خاصة، وأنه يُدِير رقبته نحوى كى يرانى، ويُصِر قائلاً:

" لا تقلقى،..... ! "سأدفع لك!"

إنه موقف صعب. لم يكن الخوف هو ما أشعر به، ولكن شعور يشبهه. حاولت أن أماطله، وأراوغه قدر استطاعتى:

"... كما أننى صماء، ولا يمكنك أن تفعل بى هذا! ألا تشفق علىّ؟"

تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر، لم يتحرك الرجل وأصر من جديد. لم أفهم عبارته بالكامل، ولكن الفكرة كانت واضحة. غضبت قليلاً:

"فلتكمل الطريق... إن العداد يعمل، وعلينا الإسراع ، فأنا التى ستدفع."

مضت لحظة من الصمت، ثم قال وبقسوة:

" إما أن تذهبى إلى الفندق أو تخرجى من السيارة!"

أخرج إذن. صفقت الباب وبحثت عن تاكسى آخر وأنا أفكر فى سلوك هذا الشخص. إنه عدوانى. وعنيف. دائما ما يُدهشنى ذلك. ويغضبنى. كان بإمكانه طرح السؤال، وترك الخيار لى على الأقل! أتريدين أم لا ؟ لا أريد، ولا نتحدث فى الأمر أكثر من ذلك. لكن ليس هذا ما حدث. ومع ذلك فأنا سعيدة لأننى لم أقع فى يد مغتصب.

قابلت مواقف أخرى من هذا النوع، من أكثرها هدوءا إلى أكثرها ضغطا. مثل الاعتداء الجنسى من مدمن فى الشارع، والذى

يظن أننى لن أصرخ لأننى صماء. وقد حدث لى ذلك، كان رجل يتبعنى، ولم أستطع التخلص منه، وأصبح مقلقا. فصرخت، باللغتين. غالبا ما يتصور البعض أن الصماء هى أيضا خرساء. نورس نعم. ولكننى أصرخ جيدا، والآخرون يسمعوننى. ففر الرجل هاربا.

وهناك موقف أكثر تأثيرا، ولم أصرخ فى تلك المرة. لم أستطع. تصورت أنه لا ينبغى، من أجل سلامتى. ولكن كم كان ذلك مؤلما. بل صادما.

كالمعتاد، كنت متأخرة، وأجرى فى محطة المترو، أخذت المصعد، قبل أن ينغلق الباب بلحظة واحدة. كانت رأسى فى مكان آخر، كنت أبحث عن عذر يبرر تأخيرى لوالدىّ. فى هذه المرحلة، كانت بيننا مواقف رهيبة. فقد اجتهدا ليخيفانى بشتى الطرق. كى يوقفا سلوكى هذا الخارج عن المألوف. بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة، لم يتوقفا عن محاولة إقصائى عن كل "الحماقات"، التى قمت بها بالفعل، أو التى أفعلها أو التى لم أفعلها.. وأنا أرفض أى نصيحة. بل أقوم بعكس ما يوصيانى به تماما. ولم يستطيعا فعل المزيد فى هذا الصدد. كانا خارج الخدمة ، يتشاجران غالبا ويتكلمان عن الطلاق.

ولم يتغير سلوكى كثيرا، بل على العكس. أضفت إليه. فى هذا المساء، عدت متأخرة بالفعل. كنت فى مقهى أتناقش مع أصحاب

لى من الصم الأكبر سنا منى. ومضى بعض الوقت؛ كان بإمكانهم البقاء لوقت متأخر أكثر، ولكن أنا لابد وأن أعود. باختصار، وجدتنى فى مصعد المترو، وحدى مع شاب.

أُغلِقت الأبواق بثقل، وبطء. غالبا ما يمثل مصعد المترو شكلا من أشكال الكارثة. فهى معدنية ومقلقة. اقترب الشاب منى وتحدث إلى. وضعت النوتة على فمى، والإصبع فى أذنى، وهو ما يعنى: " لا أتكلم، ولا أسمع"، ولم أفتح فمى. لم أكن أرغب فى الكلام، كنت أومئ. إنها طريقتى المعتادة كى أقيم جدارًا بينى وبين الآخر، وكى أهدأ. رأيت جيدا أن هذا الشخص يبدو عليه أنه أحول .

استمر فى توجيه الكلام إلىّ، وقمت بالإشارة برأسى أننى لا أفهم. حينذاك، أنزل بنطلونه وبدأ فى الاستمناء أمامى.

من غير المحتمل أن أكون هنا، محاصرة، أمام هذا المشهد المؤلم. وفى كل مرة أدير عينىّ كان يتحرك ليجبرنى على النظر إليه. كنت أتألم مما يحدث. وإذا أغلقت عينىّ، فربما يعتدى علىّ. أخاف من أن أغلقهما. فعيناى هما أذناى، ومصدرى الوحيد، ودونهما لا أستطيع مواجهة الخطر.

انتابنى الذعر، وتساءلت ماذا أفعل، وهل أصرخ أم لا. فهذا المصعد يتحرك ببطء بغيض. وإذا صرخت، فإننى أغامر بأن يصدر عن هذا الشخص سلوكًا خطيرًا. حينئذ ركزت فى نفسى، وضممت أسنانى، ولم أغلق عينىّ، كما لو كنت هادئة، وصماء، وغير قادرة

على الصراخ. كما ينبغى له أن يعتقد. ليطمئن حين يعرف أنه يعتدى على شخص لا يستطيع الدفاع عن نفسه، على شخص لن يفضحه. ولكن ذلك يجرحنى كثيرا. إننى أكاد أصاب بأزمة عصبية، على وشك أن أنفجر، كنت كالمصابة بشحنة كهربية. وتمسكت بالفكرة الهزيلة التى بقيت لى: لا تصرخى، اسكتى، سوف يُعطّل المصعد ويغتصبك. اسكتى. اسكتى.

أنهى ما كان يريد إنهاءه، فى اللحظة التى وصل فيها المصعد إلى الواجهة. كان ذلك مزعجا، ومقززا. ومع شعورى بالغثيان. قال: «شكرا جزيلاً." وخرج من المصعد بكل هدوء.

كنت مصدومة، ومندهشة. لم أستطع فهم هذا الموقف إطلاقاً. ماذا كان يريد هذا الشاب؟ هذا فقط؟ لأنه رأى أننى صماء؟ أم، ببساطة، لأنه مريض؟ فى عمر السادسة عشرة، هذا النوع من الاعتداء الجنسى كان لغزا بالنسبة لى.

وعند عودتى، حكيت القصة لأمى.

" إنك محظوظة، ربما كان رجلا خطيرًا."

لم أكن لأحتمل أن يمسنى هذا الشخص. أخشى من هذا. كنت لأصاب بالصدمة لو لزم. فى السادسة عشرة، كنت أتعلم الملاكمة الفرنسية، ليس من أجل الدفاع عن نفسى، ولكن لأنها جميلة، وفنية، ولأننى أحب هذا. كنت أعرف تماما فى أى مكان بالتحديد يمكن لضربة من ركبتى أن تؤذى رجلاً. لو حدث لى شىء على نفس

الشاكلة الآن، سيكون رد فعلى هو توجيه أصابعى فى عينيه، أو أسدد له ضربة من ركبتى حيث ينبغى. إننى لست عدوانية أو أميل إلى العنف إلا إذا لمسنى أحد. ولحسن الحظ، أن ذلك لم يحدث لى أبداً.

اشترت لى أمى رشاشا مسيلا للدموع، كى أحمى نفسى فى حالة الاعتداء. ولكن هذا لا يمنعنى من العودة متأخرة ليلاً، ولا من الاستمرار فى السهر فى الحانات.

بعد ذلك بعدة أسابيع، حين ركبت المصعد، اقترب رجل منى؛ تصرفت فورا:

"لا تلمسنى، لا تلمسنى!"

وخرجت من المصعد بسرعة. ربما أراد أن يسألنى عن الساعة، ولكننى كنت مصدومة تماما من اللقاء السابق، حتى إننى اخترت الهرب.

لم أكن أخاف من شىء فى هذه السن. ولكن هذه المرة، فموقف قاسٍ كهذا يمثل ضغطا. وهناك فتيات أخريات ممن يسمعن، عرفن اعتداءات مماثلة. ولابد لهن من التحكم فى أنفسهن، وفى ردود أفعالهن، والتيقن ما إذا كان ينبغى الصراخ أم لا. فى الحقيقة، لا أعتقد أن اعتداءً كهذا يخص شخصا أصما مثلى. كنت أتعرض للمخاطر ذاتها التى يمكن لفتاة تسمع أن تتعرض لها، فتاة متمردة أيضا، وذات شخصية محددة وإرادوية. على جميع الأحوال، كنت، بأى ثمن، لا أريد أن أعامَل كشخص ينبغى حمايته.

فى هذه السن، حيث أزمة الهوية الحقيقية، نحن نحتقر الخطر حتى تأتى اللحظة التى نجده فيه عند أنوفنا. ولا أحمِّل نفسى نتائج تجاربى. فأنا كائن بشرى طبيعى، وحر، وله هوية. تقول أمى:

"ترفض إيمانويل أن تُعامَل كمعاقة."

وبالنسبة لى، فإن لغة الإشارات ترتبط بالأصوات، وعيناى هما أذناى، وبكل أمانة، لا ينقصنى شىء. إن المجتمع هو ما يجعلنى معاقة، هو ما يجعلنى أعتمد على الذين يسمعون: بحاجة إلى أن يترجم لى أحدهم محادثة. بحاجة لأطلب المساعدة فى الاتصال التليفونى، مع استحالة الاتصال بطبيب بشكل مباشر، يجعلنى بحاجة إلى عناوين سفلية مكتوبة عند مشاهدة التليفزيون، هناك بعض الأشياء القليلة على هذ النحو. مع المزيد من المينيتل، ومن العناوين السفلية، فإننى، أو نحن، نحن الصم، بإمكاننا العبور بسهولة نحو الثقافة. لن تكون هناك إعاقة بعد الآن، ولا انغلاق، ولا حدود بيننا.

كذلك فإن تمردى قد تغير. ففى الثالثة عشرة، كانت سن رفض الاعتماد على والدىّ. وعلى طريقة إدراكهما للأشياء. فحين نكون صمًا، نكون مجبرين على الاعتماد على الذين يسمعون، أكثر من الآخرين. لم أعد أريد شيئا من هذا. كما لم أعد أريد التعليم الشفاهى بالأخص. فالتعليم المفروض أصبح معاناة. لقد التهموا حياتى. فى السادسة عشرة، أصبح هناك شىء آخر. فقد نموت،

كنت مضطربة. وعلاقاتى مع والدى باتت غير موجودة تقريبا، فبخلاف أشكال الحراسة التى يمارسانها:

" إنك تخرجين كثيرا جدا، ولا تفعلين شيئا آخر، وتخالطين أناسا خطرين، إنك تقضين على مستقبلك. توقفى."

كان الحوار يتوقف بيننا عند هذا الحد.

مع أمى، كنت أستشعر عندها القلق الهادئ والدائم. كانت تعنفنى بأقل قدر ممكن، ولكننى كنت أرى جيدًا قلقها. فى هذه الأثناء، كانت مارى متفوقة فى المدرسة، دائمًا الأولى؛ إنها موهوبة، تكاد تتخطانى. كنا دائمًا نتشارك، أختان صديقتان، ولم نكن أعداءً قط، ما عدا المشاحنات الكلاسيكية، والتى لا تذهب بعيدًا. ولحسن الحظ، لم ينقطع الحوار معها قط.

سماع والدىّ يتكلمان أكثر فأكثر عن الطلاق هو ما كان يقلقنى. وفى اليوم الذى أدركت فيه أنهما فى طريقهما إلى الانفصال، تقبلت، بلا شك، هذه الحالة الواقعية. كما هو الحال فى الأوقات التى تتغلب فيها ضروريات الحياة على بقية الأشياء. حيث "جعلت" هذا الانفصال "طبيعيا" إلى أقصى حد. ولكننى كنت أعانى، وكنت أتخيل ما هو أسوأ، كنت أخشى أن أجبر على الاختيار بينهما. بين حبين. وهو ما لم يحدث. فعندما وقع الطلاق بينهما، كنت أذهب عند أحدهما أو عند الآخر.

يوم الأربعاء، أو نهاية الأسبوع. يوم السبت مساء، كنت أقول لأمى: " ها أنا أخبرك، سأذهب إلى النادى الليلى، وأعود متأخرة."

وفى مساء سبت آخر، كنت أقول الشىء ذاته لأبى. والفرق هو أنه كان ينام بعمق، مثل الرجل الذى يدق أجراس الكنيسة، ولا يسمعنى حين أعود.

على كل الأحوال، كنت أشعر أننى عاجزة، عن ربط أواصر طفولتى من جديد. وسريعا ما تخيلت أننى كنت سبب هذا الطلاق، بسبب عدم انضباطى، وبسبب سلوكى المتحرر جدا. وربما لأننى ولدت صماء.

فى الواقع، لم أكن أعرف أسبابا لطلاقهما. فتلك الأسباب تخصهما. وسريعا ما هدّأت أمى هذا الشعور بالذنب؛ فكان باستطاعتى الاحتفاظ بالحبّين كما هما، فما من مُذنب، ولا حتى أنا. كان ذلك مهما، لأن الشعور كان دائما، بالنسبة لى، يكمن فى قلب أشكال الحماسة والتمرد.

أعتقد أننى كنت أستطيع تقبل كل شىء فى حياتى، كما تقبلت فى النهاية هذا الطلاق، إذا كان من يريدون فرض أشياء علىّ، يفعلون ذلك بقلب رحيم.

مدرسو التعليم الشفاهى لم يعرفوا.

وحبى الأول لم يعرف. كان طلاق والدىّ جرحا لم يندمل، فيما بعد تقبلت الجرح. وكان التعافى بطيئا. لا ينبغى أن أكون وحدى فى

هذه الحالة، فأطفال الآباء المطلقين يُجرُّون حينئذ من عطلة نهاية الأسبوع إلى العطلة التى تليها.

فى هذه الفترة، تعلقت بحبى، بتلك المشاعر الجياشة والحصرية. إننى أمنح كل ثقتى للآخر. فهذا مهم، ثقتى. ثم أدرك أننى كنت مخدوعة. ولكن فى السادسة عشرة، ولأننى قررت أن أواجه صعوبة قصة ذاكرتى المتعلقة بالأحداث وتواريخها. لم أصل بعد إلى هذا الحد، فما زلت واقعة فى شباك المنساب.

مع تأخر دراسى يهدد بإنهاء مستقبلى. مستقبل لا يهمنى إطلاقا، حتى هذه اللحظة.

يوم الجمعة، إنه اجتماع ماكدونالدز. تتجمع شلة الأصحاب فى الدور الأول من المبنى. نأتى هنا لنتكلم بالساعات، كما لو كنا فى صالون، إنه أكثر راحة من المترو. على أية حال، فلا نعرف أين نذهب. قد يستغرق ذلك من السادسة إلى التاسعة مساء. نشترى الهامبرجر، والكوكا أو القهوة. ولا نتحرك بعد ذلك. بل "نقفل" كما يقول المراهقون.

صاحب المحل لا يحب ذلك كثيرا. لا أعتقد أنها مشكلة مكان بالنسبة له. فالطاولات كانت خالية حولنا؛ لم يكن هناك الكثير من الناس بشكل مستمر بين السادسة والتاسعة. أعتقد أنه لم يحب فكرة أن تختار شلة من الصم محله، كى يتجمعوا.

وصل خادم وطلب منّا أن نرحل. بينما نحن لا نريد. ذهب، وعاد. ثم ذهب وعاد. فى أحد المساءات، جاء صاحب المحل إلينا. غاضباً بشكل واضح.

" فلتذهبوا! فضوا المعسكر!

اخرس!"

أشار له صاحب أصم، فى مواجهته، بأن له الحق فى أن يبقى طالما أنه يطلب. وصاحب المحل لم يرغب فى أن يعرف شيئا.

"أنت، لن تبقى، إخرس! أمامك ثانيتان لترحل!"

إنه يتحدث إليه كما لو كان كلبا. إننى لا أحتمل. قاطعته بالفرنسية:

" لو سمحت، أيمكن أن نتناقش؟ فنحن لسنا كلابا، إننا بشر!"

هل فهم؟ لا أعرف. فـ"لهجتى" الشفوية ربما كانت صعبة، وبخاصة حين أكون غاضبة، وتلك هى الحالة، لابد وأنه فهم اللهجة ولكنه رفض المناقشة.

" ولا كلمة! إخرس!"

شعرت أن الشجار سيستمر. ثارت أعصابى، ورغبت فى أن أهدأ.

إنه لا يسمعنى. شخص آخر يسمع ويرفض أن ينصت إلىّ.

كنت أريد أن أشرح له، على الأقل، أننا هنا لأننا نشعر بالكبت من جراء النهار بكامله فى هذا العالم الذى ليس بعالمنا. وأننا بحاجة لأن نكون سويا. وأن صالته خاوية بأسفل، وأننا لا نشغل مكان أحد. وأننا متأسفون. وأنه إذا كان يتعين أن نأخذ كوكا أو هامبرجر، فسنفعل ذلك. بإمكاننا التوصل لاتفاق، بإمكاننا أن نتناقش. ولكن هذا الشخص رفض أن يستمع، أى رفض أن يفهمنا. أشار لى أحد الأصحاب:

" اتركيه، سنذهب."

على أية حال، اعتدنا على تغيير وجهتنا. مثل مجموعات أخرى من الشباب. إننا نغير أماكننا طوال الوقت، بحثا عن مكان، عن ملتقى، لكن، نغير وجهتنا بذوق، عامة، إنها المرة الأولى التى نفعلها بشكل غير لائق. فنحن بشر، وهذا الرجل يكلمنا كما لو كنا كلابا؛ ولربما يتفهم كلاب الـ SPA بشكل أفضل من ذلك.

أستطيع تفهم مشكلته: إنها شلة من الشباب فى مطعم ماكدونالدز الخاص به، قد يعيقه ذلك، ويضايق زبائنه، وهو ليس موجودا من أجل ذلك. ولكن ليس بهذه اللهجة! ولا بهذا الاحتقار. حتى وإن كان لا يعرف كيف يعبر عن نفسه معى، هذه ليست المشكلة الحقيقية، فبإمكاننا دائما أن نحاول.

نظرت إليه، غاضبة بحق. نورس غاضب. فأخفض اللهجة:

"حسنا، اتفقنا، ولكن لا تبقوا وقتاً طويلاً."

رحلنا أخيرا، ونحن مستفَزين. قلت لأمى، حين عدت إلى المنزل:

"هل هذا هو التواصل مع الذين يسمعون؟ لا أستطيع تقبله."

حاولت أن تهدئنى، لكننى كنت مستشاطة. وغضبى يغلف معاناتى. كنت أقول لنفسى: "إنه شىء مقزز، لا يمكن أن نغير العالم بالضرب على الأصابع."

ربما بدا ذلك أمرا هامشيا، ولكن هذا الصراع الذى يتكرر غالبا بين الذين يسمعون وبين الصم ، خاصة حين نكون عددا كبيرا، يغضبنى. أعتقد أن إمكانية الحوار بين العالمين، والثقافتين، هى أمر صعب للغاية. فأنا أعيش مع أشخاص يسمعون، وأتواصل معهم، وأعيش مع صم، وأتواصل أفضل، وهذا أمر طبيعى. ولكن المجهود اللازم لهذا التواصل، دائما ما يبذل من جانبنا نحن، فى جميع الأحوال، هذا ما أشعر به شخصيا. إننى مصرة، ولا أزال أبحث، كنت أريد أن يتحقق الاتحاد فى هذه العلاقة. أريد أن يسقط عدم الثقة. ولكننى لم أصل إلى ذلك.

وجدت هذه الثقة مع والدتى، ومع أختى، ومع أشخاص آخرين يسمعون، لا أريد أن أعمم. ولكن، ودون أن أكون متعصبة، فما أبحث عنه من مثالية، ربما ليس ممكنا. إنها مسألة تتعلق بالشخصية، والتعليم، والمعلومات.

لم يعد عندى هذا الغضب الكبير وأنا فى السادسة عشرة. بل على العكس. كنت أناقش هذه الموضوعات مع الصم؛ غالبا يكون هو الموضوع المفضل للمناقشة بيننا. البعض يكون مبالِغًا بشكل مؤكد،

يتحدثون عن السلالة " نريد أرضا جديدة، أرضا للصم، لا نستطيع إطلاقا العيش مع الذين يسمعون"! هؤلاء ينغلقون على أنفسهم أمام العالم. إننى أفهم رد فعلهم، ولكننى أنصحهم دائما أن يحجِّموا الطلبات من هذا النوع، وأن يفكروا، ينفتحوا على الآخرين. وأرفض المبالغة من كلا الاتجاهين. ولكننى محظوظة أكثر من غيرى فى علاقاتى الاجتماعية.

غالبا، لا أستطيع أن أسأل الناس طوال الوقت، فأفر إلى عالمى، أنعزل، وأحلم. أحيانا، ينسانى الناس بعض الوقت، ليست غلطتهم. وإذا كنت أفكر فى موقف يثيرنى، لمن لا يبذلون مجهودا، حينها أطرح على نفسى هذه التساؤلات: " هل أستطيع الاختلاط بأناس مثل هؤلاء، طوال الوقت؟ هل أستطيع العيش بدون الصم؟ إننى أحتاج الصم. وأحتاج أيضا للذين يسمعون، وعلى كل الأحوال، أنا لا أستطيع حذفهم من الخريطة.

إننى أنتقل من عالم لآخر.

شهر كامل وحدى مع الذين يسمعون، إنه لأمر صعب، حيث بذل المجهود مستمر. إننا نتساءل حتى نستطيع أن نفهم. وهذا هو الفرق، لا يمكن تجنبه. فنحن بحاجة حقيقية لأن نرى الصم. قمت بهذه التجربة مرة واحدة، فى إسبانيا، مع والدىّ. فى نهاية الشهر، كان هناك القلق، والشعور بالاختناق. لقد بلغت أقصى ما أستطيع تحمله. شهور عديدة بلا صم، وحدى وسط الذين يسمعون، إنه أمر لا يمكن حدوثه. إننى أتساءل كيف يمكن أن أحتمل. هل كنت

سأصرخ من جديد مثل النورس؟ هل كنت سأتعصب؟ هل كنت سأتوسل إليهم لينظروا إليّ، لكيلا ينسونى؟

واللقاء بعالم الصم من جديد، هو العلاج.

يعنى عدم بذل مجهود مجددا، وعدم الإنهاك فى محاولة التعبير عن الذات شفاهيا. أن تجد يديك من جديد، وراحتك، والإشارات التى تحلق، والتى تقول دون مجهود، ودون قيود. والجسد الذى يتحرك، والعيون التى تتكلم. والكبت الذى يختفى فجأة.

إنه تواصل مخملى.

- ١٧ -

حب سُمّ

لقد نبهونى. قال لى والدى:

«اتركيه، إنه صعلوك، سيؤذيك."

وقال لى أصحابى:

" إنه متقلب"

وقالت لى أمى:

" إنه عنيف."

وقلت أنا لنفسى:

" إنهم لا يفهمونه، فهو مختلف بسبب مشاكله منذ فترة الطفولة، ربما يلاحق الفتيات، ولكنه يحبنى. إنه عنيف ولكننى سأهدئه". قلت لنفسى أشياء من هذا القبيل عنه، ورتبتها فى رأسى، وأضفت إليها ثقتى الكاملة فيه. الكاملة. إنها عقيدة عمياء. وحين أمنح ثقتى إلى هذه الدرجة، فينبغى عدم الاستخفاف بها.

وخاصة، أننى كنت عاشقة، ومنجذبة كما لو كنت منجذبة لمغناطيس. لم أعد أفكر، محا هذا الانجذاب خيالى وتفكيرى. وكان هو يبحث عن الحب بتعطش يفوق تعطشى. كنا نشرب منه سويا.

حفلة فى المنزل. فنحن نعشق الحفلات. موسيقى صاخبة، وأذن ملتصقة بمكبرات الصوت، ونستعرض ما بحافظة الاسطوانات كى ندير الروك أو السلو. إنه رقص يطلق المكبوت، ونشعر بالإيقاع فى الأقدام وفى الجسد، ونترك أنفسنا للاندفاعات الجسدية التى يثيرها الإيقاع فينا. كنت أرقص معه.

" قالوا لى إنك كنت تخرج مع واحدة أخرى...

ـ كلا، أنت الوحيدة، أنت فقط، أنت حبى الوحيد."

كان يتكلم وهو يتخذ موقف المدافع قليلاً، مستخدما الإشارات، وجسده ثابت، وحركته مترددة بعض الشىء. جاءت الإجابة متأخرة، استغرَقَت بعض الوقت لتصدر، وكأنه يقول لنفسه أولاً: " ماذا سأقول لها ؟"

كان عاشقا أصم يكذب، وهو ما يمكن رؤيته أيضا عند شخص يسمع، يمكننى تخيل ذلك. ومن الممكن التكهن به من خلال نبرة الصوت، وفى التردد المصاحب للكلام، ونحن نتكهن به بالإشارات، ووضعية الجسد، والنظرة.

عن نفسى، لست موهوبة فى الكذب، حاولت من قبل مع والدىّ، ولم أتمكن، فالنورس، صريح جدا جدا.

وساذج أيضا للغاية. إنى أصدقه منذ وقت طويل جدا، وينبغى أن أرى الكذب بعينى كى أقتنع.

فى وقت ما حيث لم أكن أعرف أين هو. قمت بجولة فى المنزل؛ والمكان الوحيد الذى لم أزره كان الحمام. كان هناك، وأعتقدت أنه لم يكن بمفرده.

تجسست عبر نافذة صغيرة فى غرفتى. أرى منها كل شىء، مثل نورس يقف أعلى صارى المركب.

هذه المرة، الأمر كان واضحا. أخذت أضرب على الباب، بعنف. فتحه، بابتسامة كبيرة محاولاً أن يخفى من معه. أن يخفى الحقيقة. ولايزال يحاول إقناعى أننى من يحب. لا أحتمل هذا. إننى أنظر إلى الحقيقة دائماً، فى عينها. ولا أختفى خلف أحد.

شعرت بالكره يتصاعد، والألم يشق قلبى، وحلقى ينغلق. فهناك لحظات أتمنى لو أستطيع فيها الصراخ من خلال الإشارات التى تقول كل ما أريد التعبير عنه.

رأسى وقلبى فى حالة فوضى، هربت، خرجت أركض من المنزل، تاركة أصحابى يبتهجون، متجاهلة ما حدث. أخذت أركض، وأركض، إلى أبعد ما أستطيع عن بيتى، حتى لم أعد أعرف أين أنا. ثم توقفت أسفل رواق بناية لا أعرفها. كى أبكى طويلاً حتى الفجر. وحدى.

ثم عاد الهدوء بعد عاصفة الدموع التى هزتنى. عدت. فى هدوء، أسير بمحاذاة الأرصفة. البحر هادئ، عاد النورس إلى مينائه، فى صمت.

كان ينتظرنى هناك، مبهوتا من اختفائى، مُلاما، مذنبا. أراد أن يعتذر، ويمحو كل شىء، ويقبلنى.

لكن الأمر انتهى. لم أعد أحبه. هل أحببته بالفعل. أم أحببت الصورة التى كنت أكونها له؟ ماذا يعنى الإخلاص؟ ماذا تعنى الثقة؟ ها أنا أكاد أبلغ السابعة عشرة. أحبه منذ وقت طويل. بدأت مبكرا. أريد أن أتحمل الفشل، والطعنة فى قلبى، ولكننى لا أريد أن أبقى هنا. لأنه يريد أن يلعب دور الضحية، ويحاول أن يعتذر ويقول إنها لحظة جنون عابر، سوف أصبر وأنتظر لأذيقه، هو الآخر، سم الخيانة. لن أتركه على الفور. فأنا أرغب فى أن يأخذ الطعنة ذاتها فى قلبه.

لا بد وأن الكره يشكل جزءا من الحب. وكانت رغبتى فى هذا الانتقام، تمثل النهاية التى أريدها للقصة. فقصتى تخصنى أنا أيضا، ولا تخصه وحده. فبعد خداعى، والكذب علىّ، وخيانتى. أريد أن أمنحه هذا؛ كهدية الوداع.

جاءت المناسبة بعد ذلك بقليل. و"بعدها" فقط سأدعوه ليسمعنى أقول له فى وجهه: " انتهى الأمر، لم أعد أحبك."

تلك اللعبة الصغيرة من التنكيل المنحرف والكذب، كانت تضايقنى بالتأكيد أكثر منه. لا أعرف حتى إذا كان قد فهم، وإذا كان قد لاحظ شيئا. رفض أن يصدق أننى لم أعد أحبه. وطلب منى أن أكرر ما أقوله. وأراد أن أنظر فى عينيه.

كنت باردة، ومصممة ألا أترك نفسى أطيل هذه اللحظة الصعبة. أخرج من جيبه شفرة حلاقة، كى يخضعنى للابتزاز المعتاد.

" إما أن تبقى معى أو أجرح نفسى."

إنه يريد أن يكون موته بسببى أنا. وأجبت دون أن أفكّر:

" انتهى الأمر."

وفعلها! دون قلق، قطع وريده أمامى.

كنت مفزوعة. حتى ألصقت ركبتى برقبتى. إنه عنف فظيع، سال الكثير من الدم، سيموت! إنها غلطتى. سوف يموت!

لجأت إلى أصحابى، كنت أبكى عليه، وعلىّ. كنت أرى أننى مدانة، أمام البوليس، وأمام العدالة، مدانة بسبب لا أعرفه، على كل حال، سيكون ندماً أبديا. لم أعد أستطيع العيش بهذا الضغط على ضميرى. لأننى ظننته مات، حين رأيت بعينى الدم يسيل من وريده. ولأننى هربت وتركته فى مكانه. إننى أصدق دائما ما أراه بعينى.

نورس مسكين ساذج.

غادر مكانه واضعا ضمادة متينة وذهب إلى المستشفى. حينها لم يكن يعرف أنه لا يستطيع الانتحار بهذه السهولة وكذلك أنا.

واستنى أمى، وطمأنتنى، ونزعت عنى الشعور بالذنب. حتى ولو حدث أسوأ شىء، فلست أنا المذنبة. فالكذب كان من طرفه هو. وكذا الابتزاز، وممارسة العنف على نفسه. لست أنا. لا يمكن أن نكون مذنبين وضحايا. وكل إنسان مسئول عن نفسه.

يا له من أمر غريب كما يبدو، فالحب الحقيقى الذى شعرت به تجاه هذا الصبى، اختفى بشكل قاطع فى اليوم الذى انفصل فيه والدى. رحل أبى عن المنزل، وانطفأت العلاقة مع هذا الصبى.

صورة أبى، الرجل الرمز فى طفولتى، توارت بعيدة عنى، بعد الطلاق.

تواصلٌ انقطع مؤقتا. إنه كالحب النائم.

وصورة من عشقته وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى توارت فى اللحظة ذاتها.

تواصلٌ مقطوع، وحبٌ ميت.

ولبعض الوقت، وقتٌ كان طويلاً بالنسبة لى، وجدت نفسى صبية فى حالة عدم ثقة، وقسوة، وخشونة

الإخلاص، فهمت أنه أمر غير موجود. وأن الثقة لم تعد الكلمة ذاتها.

سوف أضلُ لبعض الوقت فى البحث عن ثقة أخرى، عن سموم أخرى. أسكرِ نفسى بالموسيقى والكحول والحفلات التافهة والتبغ.

حتى الإنهاك.

نورس واقع فى الشرك والدنس.

- ١٨ -
نورس فارغ الرأس

فى هذه الليلة، عدت إلى منزل والدى، عند الفجر؛ حيث دوره فى عطلة نهاية الأسبوع.

بالأمس، كان لا يزال لدى انطباع بأننى سعيدة. كنت أرقص، وأضحك، وأمزح. وكنت أحاول تأخير لحظة العودة، قدر استطاعتى. لم يعد هناك صبية فى حياتى، ولم أعد أحب الحفلات. أخرج مع الأصحاب، كى أتفادى فخ الكذب.

بالأمس قال لى أبى، كما هى العادة:

" انتبهى، حذار أن تعودى متأخرة. لابد وأن تنامى..."إلخ. وقلت فى صمت:"تحذيرات دائما..."

حدث شىء فى هذه الليلة، لا أستطيع تذكره. فمع الكحول، كل شىء يهتز حولى، لم أعد أعرف أين كنت. فقد ذهبت بعيدا جدا هذه المرة.

اليقظة شيء قبيح. كما أننى أجد نفسى قبيحة منذ فترة. حين أنظر لنفسى فى المرآة، أرى عينين محاطتين بالزرقة، وبشرة رمادية، ووجها مقززا. أقول لنفسى: " ما هذا الوجه؟ فتاتى المسكينة، توقفى عن الشرب، فأنت ذات رأس فارغ، إنك تسهرين فى الحفلات وتشربين، انظرى إلى نفسك!"

قبيحة، رأس النورس. النورس يجد نفسه مثيرا للسخرية.

واستأنف النورس فى اليوم التالى.

كنت أتشاجر مع أختى فى المنزل. لقد كبرت مارى.

المرة الأخيرة التى تشاجرنا فيها كانت بسبب حماقات. هى لا ترتب شيئا. وأغراضها منتشرة فى كل ركن من أركان الغرفة، فى حين أننا نتقاسم الدولاب ذاته.

- " رتبى أغراضك. ولا تلقى بثيابك فى كل مكان.

- دعينى وشأنى.

- إذا لم تفعلى، سأغضب منك، ولن أكلمك بعد الآن.

- ليست غلطتى، إن الدولاب فى غرفتك!

- بالضبط! أنت فى غرفتى، فرتبيها!

- توقفى عن إزعاجى. فلدى ما أقوم به."

وجذبتها بعنف نحو الغرفة كى ترتبها. كانت تصرخ. ولم أستطع السيطرة على نفسى. كنا نحب بعضنا ونتشاجر أيضا. هذه المرة لم تضحك حين قلت لها:

" أنت شيطانة " كنت أنطق "س"، و"ش" بصعوبة. ولكن هذا لا يهم.

فهذه الفوضى كانت داخل رأسى، فى هذه اللحظة. ولخبطتى لم تكن إلا تحت شَعرى، أما بالنسبة للباقى، فإننى دائما أرتب الأشياء، كما أرتب عرائسى الصغيرة.

لقد كبرت مارى بالفعل. فمن قبل، كانت تسرع الخطى خلف أمى كى "تحملها". وكنا نجذب شعر بعضنا، ونتشاجر. والآن هى تتذمر، ولا تقول شيئا لأمى. وتدافع عن نفسها بمفردها. كما لو كانت كبيرة. وحين تتذمر، تصير لا تشير إلىّ.

إنها تصحح أخطائى فى اللغة الفرنسية، إنها الأولى فى الفصل دائما. مارى أختى الصغيرة بلغت عشر سنوات من الاستقلالية.

كل شىء كان يسوء!

فى ليلة، سقَطْتُ فى الممر، وأيقَظْتُ جدتى ووالدى. كان عليه أن يلملمنى ويحملنى إلى سريرى. لقد كنت مريضة، مريضة كما لم أكن فى حياتى.

كان جالسا بجانبى، على طرف السرير، فى ضوء الصباح. أخافنى وجهه. كنت أشعر بالخزى لأنه هنا ويتأمل مصيبتى، ويرى

الحالة التى كنت عليها. كنت خزيانة ولكننى أيضاً كنت فى حالة سيئة للغاية، كان كلاهما يؤرقنى: رأسى وشعورى بالخزى.

قلت:

ـ " شربت بالأمس».

ـ أعرف. لست بحاجة لتشرحى لى. أننى أفهم.

كان قلقا.

ـ الكحول، يجعلنا مبتهجين، ويصاحب متعة الرقص، والحفل. كل الشلة تشرب منه.

كنت أشرح لوالدى أنه ليس بالأمر الخطير.

ـ إنه خطير. خطير للغاية. وضار بالمخ. إنه يقتل الخلايا العصبية، أتفهمين؟ انظرى إلىّ، إيمانويل. لماذا تفعلين ذلك؟ إننى لا أفهم."

وأنا كذلك لا أفهم. كنت أعتقد أننى أشرب من أجل الحفل، لأنه يجعلنى أطير، وأحلّق، وأنسى. لكن أنسى ماذا؟ إننى أنسى حتى ماذا أريد أن أنسى. يستحيل أن أشرح له الشعور بعدم الراحة وعدم التأقلم. ربما أرغب فى أن يهتم بى، لأننا نرى بعضنا قليلاً. وربما أرغب فى أن أحرك شعوره نحوى. فأنا أحتاج إليه. لماذا الكحول، ولماذا السجائرالمتعاقبة، والرقص طوال الليل، والضحك حتى مطلع الفجر، حتى أسقط مثل الركام، مثل البلهاء، وأستيقظ ورأسى فى هذه الحالة؟ لا أعرف.

" ينبغى أن تقولى لى لماذا، إيمانويل."

إن والدى فيلسوف للغاية، وصاحب نظرية. وطبيب نفسى. وأب مدهش بسبب النورس الذى أنجبه. الذى تجاوزه تحليقه، والذى فقد اتجاهه. كان يريد إجابات، من نوعية: " إننى أخاف من العالم، ولا أحب الحياة"، ربما يريد أن يسمع أيضا : " إننى صماء، وأعانى من مشاكل."

بعد عودتنا من واشنطن، قرر أن يعمل مع الصم. ولم يتوقف عن شرح أنه لا يوجد ما يسمى "علم نفس الصم"، وأنه يوجد صم مختلفون تماما، كما هو الحال بالنسبة للذين يسمعون. ببساطة، فإن لهم لغة خاصة. هناك كثيرون ممن يحترمون مسألة أن الصم غير قادرين على إقامة صلات وعلاقات طبيعية مع الآخرين. بينما حارب والدى ضد هذا. فالصم مثل الذين يسمعون، فهناك مرضى عقليون من الصم، كما هو الحال عند الآخرين، فليست هى خصوصية نتسم بها وحدنا. أى أن الصم حالتهم جيدة، شكرا. ولكن ربما يعانون من بعض الخوف بحيث يرتبط سلوكى الحالى بالصمم. وربما لذلك أجد صعوبة فى التكيف مع العالم، وبسبب هذا أهرب إلى الكحول وإلى هذه البلادة. بالنسبة لى، كلا، ليس هذا هو الأمر، بابا.

فلست أنا الوحيدة. فالمراهقة فترة عصيبة بالنسبة لبعض الشباب. سواء كانوا صما أم يسمعون. فهناك من يقضونها مرتاحين بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة، بلا مشاكل، وهؤلاء الذين

يسقطون فى الوحل، أو يهاجم العاصفة مثلى، وهؤلاء الذين لا ينجون أبدا منها، وهؤلاء الذين يقابلون فى يومٍ ما عوامة، يُخرجون بها رؤوسهم من الماء. يتوقف الأمر على الثوابت، والتربية، والشخصية، والحب، والبيئة المحيطة. فالمراهقة كيمياء معقدة. حيث نبحث عن حجر الفلاسفة، كما لو كان موجودا.

طرح علىّ أبى جميع الأسئلة التى استطاعها. أين هى المشاكل؟ وأين هو الكبت؟ أهو فى المدرسة. هل أحب شخصا ما؟ لماذا أشرب، ولماذا كذا وكذا، لماذا كل شىء؟

وأنا، ليس عندى سوى إجابة واحدة عن هذا الفيض من علامات الاستفهام:

ـ " لا أشعر بالراحة، وأحتاج إليك."

صمت الموتى، وتفكير. وشعور. مشكلة. ضيق.

استشعرت بكل ذلك عنده، مرئيا وغريزيا. ولكنها ليست إجابة.

ـ " غدا سأصطحبك إلى طبيب لأرى إذا كانت صحتك بخير.

ـ اتفقنا.

اتفقنا بالنسبة للطبيب. ولكنها أيضا ليست الإجابة.

لم يستطع الاهتمام بى. فهو لا يعرف. أو ربما لا يريد. وهو ما اعتقدت أنه قاسٍ جدا فى تلك اللحظة. كما لو كان جرحا جديدا. يحتاج إلى الوقت ليندمل.

نورس، مراهقة تعانى مشاكل. ما زلتِ بحاجة لتكبرى، دون والدك، ولأن تبتلعى انفصال والديك، وأن تفهميه، وأن تقيمى عشك على فرع آخر.

سيقولون ذلك فى وقت لاحق.

عند السابعة عشرة نتأذى فى قلبنا ولا نشعر بالراحة، هذا كل ما فى الأمر.

نجد أنفسنا قبيحين، وتافهين.

رأسنا فارغ.

ذهبت إلى الطبيب مع والدى. بالمناسبة، لا أعرف إذا كان هناك طبيب أصم فى فرنسا. أستطيع قراءة الشفاه، وأعبر عما أريده من خلال الكتابة، ولكن إذا استخدمَ كلمات أكثر تعقيدا، وإذا تكلمَ عن الأدوية، فلا أفهم شيئا.

استمع أبى لما يقوله. وترجم لى بعض البديهيات.

ما من شىء جميل فى كل هذه الفوضى. الآن، لا أستطيع الشعور بالراحة. حقا لا أستطيع. جسديا ومعنويا. جسديا، أشعر أننى هشة، ولدى بقع زرقاء فى كل جزء من جسدى بسبب سقطاتى حين أشرب. ومعنوياً، لأننى أشعر أنى لا شىء على الإطلاق.

كنت أريد أن أتخطى حدودى، وقد فعلت. لم أكن أريد أن أواجه الحقيقة، ولم أواجهها. وكنت أريد أن أهرب من المشاكل المتعلقة

بصممى، من حياة اجتماعية، وحياة دراسية. والنتيجة، ماذا تعلمت فيما بين السادسة عشرة والسابعة عشرة؟

تلك الليلة الأخيرة من الجنون، كانت كحد فاصل. فجأة قلت لنفسى: " فاض الكيل، لقد سئمت كل هذا. لم أعد أستطيع تحمل المزيد، لم يعد ممكنا. إننى لا أفعل شيئا، وبلا فائدة. أين أذهب؟ إننى أقضى وقتى مع هذه الشلة فى الاحتجاج والاعتراض. نقول إن الناس يضطهدوننا، ويسببون لنا المتاعب، سوف ننظم حفلة، إنه أمر رائع. "رائع؟ فى الحقيقة، هو الأمر نفسه فى كل مرة، ولا يحدث شىء، نذهب دائما إلى المكان نفسه، سويا طوال الوقت، الوجوه ذاتها، واللزمات ذاتها. ما الذى يمكن أن يكون بنّاء فى هذا الإطار؟ شرب زجاجة ويسكى، والغرق داخلها، أن تصبح عصفورا سكران، ضالا، إلى ماذا يقودك ذلك؟

أيتها النورس، أنت بالفعل ذات رأس فارغ.

إنك تحتاجين إلى الراحة، وإلى الشعور بأنك فى حالة طيبة. أنت بحاجة لأن تجدى السعادة فى مكان آخر بخلاف الحفلات، وبحاجة لأن تكونى مستقلة، سوف تجدين أعمالاً صغيرة، وتعملين لتكسبى بعض المال. اقتربت الإجازات. إنها المرة الأولى التى ستسافرين فيها بمفردك. هيا، استعدى!

- ١٩ -
شمس - شموس

ها أنا أفكر فى المستقبل للمرة الأولى منذ وقت طويل.

وأنا فى السابعة من عمرى، عندما تعلمت لغة الإشارات، كان عندى الكثير من الأسئلة المتعلقة بالمستقبل . هل سيكون لى مهنة؟ ماذا يمكن أن أتعلم؟ يمكن القول إن الوعى ذاته قد عاد لى. الماء العذب ذاته المتعلق بالفضول، والرغبة، واكتشاف المستقبل. انتهت فترة المراهقة بما تتضمنه من اضطرابات وخلافه.

المستقبل؟ أتحدث عنه مع أمى. وعن أى طريق أختار؟ أى اتجاه؟ هل أرغب فى العمل مع الصم؟ ولا أرى سوى الصم؟ هل ألتحق بالجامعة؟ وفيما بعد، هل سأستطيع تعليم الآخرين؟ وابتكار تعليم مزدوج اللغة؟

ولكننى طالما أحببت الفن والابتكار. أين يتعلم الصم ذلك؟

ربما لست مضطرة للالتحاق بالجامعة. وأستطيع تعلم الحياة بطريقة أخرى، وفى مكان آخر. فى المسرح، على سبيل المثال. دائما ما كنت أرغب فى العمل المسرحى. لقد دخل حياتى بالصدفة

تقريبا، منذ كنت صغيرة جدا. التحقت فى الثامنة أو التاسعة، بدورة فى المسرح، استمرت أسبوعين. كنت أمثل أيام الأربعاء والسبت مع ثلاثة أطفال آخرين صم. كنا نعمل باستخدام أقنعة صنعناها بأنفسنا. رالف روبينز هو من كان يدير هذه الدورة، جاء من نيويورك من أجل تأسيس المسرح المرئى العالمى IVT جعلنا نؤدى التعبير الجسدى. الذى كان مهما بالنسبة لنا. إذ نعتاد، فى طفولتنا، ملاحظة الوجوه على وجه الخصوص، وكى نتخلص من هذا الأمر، جعلنا رالف نرتدى أقنعة بيضاء، محايدة، ومجردة من التعبيرات. فهمت ما كان يريده: أن نمثل بأجسادنا للتعبير عن أنفسنا. كان صعبا، لكنه أخَّاذ. وكنت أشعر بالنشوة لاستطاعتى التواصل بجسدى.

بدأت "مسيرتى المهنية" فى المسرح معه، بمسرحية صغيرة اسمها «رحلة على حافة المترو»، كانت قصة فتاة صغيرة نامت داخل عربة المترو ونسيت أن تنزل فى المحطة. وفى نهاية الخط، تاهت وسط الممرات، وقابلت ساحرا، رجلا ذا أربعة أذرع. كانت قصتى تقريبا. كل يوم سبت كنت أقوم بمسيرة طويلة لأذهب إلى فينسن، بالأوتوبيس، ثم القطار ثم المترو. كان ذلك طويلاً ومتعبا لبنت فى التاسعة من عمرها، وغالبا لم أكن أنام. وانطلاقا من هذه الفترة كتبنا البقية، مع رالف.

حين رحل، شعرت بأسى، وظللت حزينة لوقت طويل. كنت أحب هذا الرجل الكبير، الطيب، الرقيق المبدع ، والمتحمس. فقد علمنا

أشياء كثيرة. وبخاصة، كنت أحب ما كان يعلمه لنا على خشبة المسرح. إنه عشقى.

كان المسرح شمسا فى حياتى كطفلة. فأنا اكتسبت اسمى فى لغة الإشارات من المسرح، إنه " الشمس التى تشرق من القلب." فالممثلة الكوميدية الصماء شونتال ليينال كتبت قصيدة تقول: " شكرا بابا، شكرا ماما لأنكما منحتمانى الشمس التى تشرق من القلب."

لم يكن ألفريدو كورادو مسئولاً إلا عن مسرح الكبار فى فينسن. دائما ما يقول لى: " انتهى من الثانوية، وبعدها سنرى ما تستطيعين القيام به."

وفى مرة، لعبت دورا صغيرا فى التليفزيون.صورناه فى معرض ترون. كنت فى التاسعة. إنها الجنة. كان هناك كلاب سيرك، بيضاء تماما، المفروض أننى كنت أمشط لجنيّة شعرها الطويل وأقول لها إنها جميلة. كانت جنيتى تتأذى وأنا أمشط لها. صورنا عشر مرات وفى كل مرة كان علينا أن نبدأ من جديد، حتى صرخت فى المرة العاشرة، وذهبت إلى غرفتها تبكى. كنت خائفة جدا من أن تغادر، خائفة من فقد دورى الصغير فى سحر السينما. وعندما عادت قبلتها. كانت المرة الحادية عشرة جيدة. وكنت سعيدة!

كم أعشق السينما، لقد رأيت كل أفلام شابلن تقريبا. وشارلوت هى مرجعيتى. الضحك والشعور. والبرهان على أن الكلمات يمكن

الاستغناء عنها، حين نعرف كيف نتكلم بأجسادنا. والبرهان على أن الموهبة لا تصنع بالضرورة من خلال العبارات. شارلوت هى رسول. والديكتاتور يعد شاهدا رائعا على ذلك. هذا الرجل الذى يلعب ببالون يمثل العالم، والرمح، والدوران كدوامة، واستعادته، وقلب القطبين، حتى ينفجر البالون أمام أنفه! يستطيع شابلن التأثير فى الجمهور بأكمله، والعالم بأكمله. إننى أحلم بشابلن جديد، كى يلقى بى فى مغامرة السينما. ولمَ لا؟

فعندنا، السينما هى سينما الذين يسمعون، باستثناء العناوين الفرنسية القليلة لأفلام أمريكية. هل أرغب فى الاندماج بعالم الذين يسمعون؟ ورؤية شىء آخر؟

نعم، أرغب فى رؤية العالم أولاً، وأن أنفتح بشكل أفضل قليلاً على هذا العالم، وأن أتخلص من خوفى. لقد قلتها. إننى أخشى قليلاً من عالم الذين يسمعون. وحان الوقت لأتخبط فى هذا العالم. قال والدى:

"اجتازى الثانوية أولاً، إذا تركتها، فماذا ستفعلين بعد ذلك؟ اجتازى الثانوية أولاً!"

هذه المرة لن أقول، "تحذيرات طوال الوقت". لا أعرف ما سأفعله بعد ذلك، ولكننى سأجتاز "الثانوية أولاً".

أيتها النورس، لديك فكرة فى رأسك.

يتطلب اجتياز الثانوية ثلاث سنوات فى مدرسة مورفان، السنة السابعة عشرة، والثامنة عشرة، والتاسعة عشرة.

هذا يعنى أن أعمل، فى سنتى السابعة عشرة. سأؤدى هذا الامتحان، حتى وإن اقتضى الأمر أن أقتلع رأسى، وستكون العودة جادة، وينبغى أن أبدأ فى التحضير للاستقلالية التى أنادى بها. وإلا من أين ستأتى؟

ولكن شمس الصيف ستسطع أولاً. وأنا بحاجة لاستعادة عافيتى أولاً. وجدت أعمالاً متواضعة، جليسة أطفال مثل كل الفتيات الصغيرات. تناسبنى رعاية الأطفال الصغار. فهي تعيدنى إلى طفولتى. حين كانت أمى تقول لى:

"لا تصفقى الأبواب! فكونك صماء لا يعنى، بالضرورة، أن تحدثى ضوضاء."

والأطفال الصم يحدثون ضوضاء. وأنا أفكر فى الجيران بالأسفل. وأقول مثل أمى:

" لا تدبدبوا بأرجلكم على الخشب، ولا تضربوا البالونات بالحائط، لا تقفزوا هكذا..."

فى المرة الأولى: كانتا أختين. إحداهما صماء، والأخرى ليست صماء. مثل مارى وأنا. ولكن علي العكس، الكبرى هى التى تسمع؛ وعندها تسع سنوات، والأخرى ست سنوات. كنا نتناقش بلغة الإشارات.

لغتهما طفولية، ليست كلغة الكبار، لغة خلابة. كانتا جميلتين لدرجة أن أشعر بالرغبة فى أكلهما، بأيديهما الصغيرة المتراقصة. كانت الإشارات محددة، ربما أكثر من الكلمات عند طفل يسمع.

كنت أفكر ثانية فى نفسى حين كنت فى عمرهما. كانتا محظوظتين ليتكلما بلغة إشارات سليمة وجميلة فى هذه السن المبكرة، فيما بدأت أنا متأخرة. إن ذهنيهما متيقظان، وتطرحان الكثير من الاسئلة.

- " أهو أمر سيئ أن أكون صماء»؟

- كلا، بالتأكيد.

- لماذا يقول الأطباء أننا يجب أن نُعالَج؟ هل يعنى ذلك أننا سوف نموت؟

- إطلاقا! سأشرح لك..."

وحكيت لهما حكايات تانتان، وكنت أترجم المغامرات والحوارات، وأمثل دور الكابتن هادوك وتانتان فى التبت.

فى المرة الثانية: صبية وصبى، هذه المرة. سبع سنوات وأربع سنوات. أمر صعب. فهما لا يتوقفان عن الحركة. الصغير ولد جهنمى. أهدئه بصعوبة. كما أنهما يحدثان ضوضاء رهيبة. يصرخان، ويصفقان الأبواب. إنها لا تمثل مشكلة بالنسبة لى، ولكنى أفكر فى الجيران الذين يسمعون.

توقفا! أنتما لستما وحدكما!"

أصبحت حازمة مثل الكبار، أصبحت أتكلم مثل أمى. ولكن الأمر لم يكن يعنيهما على الإطلاق.

ـ " لا يهمنا، فنحن صم! "

ـ نعم، ولكن الآخرين يسمعون!

ـ كنت أفضل السكن فى بناية للصم، لنكون مرتاحين!"

كانا يضحكاننى. إننى أضحك الآن لأشياء حقيقية، وحيوية وبناءة. أضحك من أشياء صغيرة مضحكة، وأضحك بسبب ضحكات الآخرين. ، وأضحك من الصيف الذى وفر لى هدنة، وفكرة عن المستقبل. كسبت بعض المال، مع هؤلاء الصبية الذين يصفقون الأبواب، وادخرت المال من أجل الإجازات.

شغل آخر صغير عند جدى " لابو". هنرى لابورى، جدى لأبى، وهو إنسان خلاب. أعرف شيئين أو ثلاثة عنه. هو يعمل كثيرا لدرجة أننا لا نقابله إلا نادرا. وقد افتتن فى يوم ما بذرة اسمها لا يمكن نطقه بالنسبة لى، إنه (الكلوربرومازين!). وبفضله، أصبحت الذرة الصغيرة كبيرة؛ واستخدمت ، كأول مهدئ فى العالم، ثم تكاثرت فيما بعد.

جدى باحث رائد فى عالم الأحياء. منذ سنوات، مضى من ذرة إلى أخرى، ويعمل على المخدرات الجديدة لأجل أغراض التخدير وأمراض القلب، والطب النفسى. لقد درس السلوك الإنسانى، وكتب

"أطنانا" من الكتب. قيل لى إنه، حين كان صغيرا جدا، حبس جرادا فى علبة أحذية ليراقبه. أعتقد أنه كان فى الخامسة من عمره. إنه نابغة.

بدأ مسيرته العملية كجرّاح للأحياء البحرية (نحن نحب البحر فى عائلة لابورى)، ليقوم بتحول فاصل بعد ذلك نحو البحث البيولوجى. لقد قام بالعديد من الأشياء المهمة! حتى إنه قد لامس السينما! فقد أخرج آلان ريسنى فيلم، عمى فى أمريكا، مأخوذا عن كتاب جدى الأكثر شهرة، الـ... الجديد. إنه جد عالم.

عندما كنت صغيرة، اصطحبنى مرة على قاربه. جد بحرى، ولى معه ذكريات جميلة عن الشمس والبحر.

غالبا ما يعمل مع الفئران. إنه جو غريب، عند الجد لابو...

كنت أرتب البيت: فأنظف الطاولة المصنوعة من البلاط والتى تستخدم فى التجارب، وأزيل زبل الفئران؛ وأغسل أنابيب الاختبار، وأرتبها فى جهاز التعقيم. لساعة أو ساعتين فى اليوم، كل الأيام ما عدا الآحاد. اجتهدت لأرتب الفوضى الصغيرة الناتجة عن أبحاث جدى العظيمة. إنه كيميائى الاكتشافات.

كسبت المزيد من المال للإجازات أيضا. فسأقضى شهر يوليو فى باريس. وشمس أغسطس تنتظرنى فى إيبيزا.

الشاطئ والبحر والشمس. أحب الشمس كثيرا. الشمس فى أى مكان، فى كل البلدان، فى المغرب، فى إسبانيا، واليونان وإيطاليا. سأذهب لأرى الشمس فى العالم أجمع، فى يوم ما.

الماء والشمس على الجسد طوال النهار. والبراءة، وبهجة الأمواج. واحتفال ضوء النهار. واحتفال المساء، حين يصبح الليل هادئا، ويحرك هواؤه شعرى، ويكون معطرا، ويرتجف على البشرة الذهبية.

أحب نفسى أكثر قليلاً عما قبل.

قابلت صما بالصدفة. إيطاليين، وإسبانا، كنا نثرثر، تعلمت "لهجتهم"، وإشاراتهم، وتعلموا إشاراتى.

إنه الاستقلال التام، مع صديقتى الأقرب.

إيبيزا مدهشة. نتناقش فيها عن كل شىء. وأقرأ. أقرأ كثيرا. هناك أنواع أخرى من المتع هنا. وقبل أى شىء متعة الاستقلال الحقيقى: أن أمتلك كيس نقود، وميزانية، وبعض الفكة التى كسبتها وأن أنتبه للمصروفات. فهنا كلّ مسئول عن نفسه. مهما كانت الحسابات.

أشعر بتحسن، أشعر أننى بخير. من أفضل لأفضل. أشعر أننى مسئولة، وحرة، وأمتلك أكثر من سلطة. فأنا مع نفسى.

ولا أرتكب الحماقات.

اتصلت بى أمى. كانت تريد أن تأتى معى فى الشمس، كى تعلن لى عن شمس أخرى: آريان نوشكين تصور فيلما. وهى بحاجة إلى ممثلين صامتين

لابد أن آخذ المركب والقطار سريعا جدا، لأكون فى موقع التصوير، إنها: الجمعية الوطنية.

كنت خائفة جدا من ألا يكون معى مال كافٍ للعودة فأطلب منها أن ترسل لى. فى الحقيقة، لاحظت عند وصولى أننى لست بحاجة إلى ذلك، فقد تحكمت فى الميزانية الأولى لاستقلالى بشكل جيد!

اختارت آريان ممثلى فيلمها الصامتين من بين ممثلى مسرح الشمس؛ إنه مثل كوكب الأرض بشكل مصغّر. فهناك صينيون وهنود وسود ويهود وعرب ومعاقون وعميان وأقزام وصم. ونمسك بأنابيب تتحرك بها سوائل ومجسمات صغيرة، وبوكيه من زهور مختلفة، حيث كنا نحضر إعلانا عن حقوق الإنسان. إنه مشهدى. فأنا زهرة بين الآخرين، ممزوجة بالحياة فى رواق أمام كاميرا الشمس.

استغرق دورى ٣٠ ثانية. كنت أستمع إلى قصة حقوق الإنسان، ومترجم فورى يقوم بالترجمة والصم من حولى كانوا يقولون : " رائع، نحن جميعا متساوون، أخيرا أصبحت لنا حقوق" وكنت أنا واحدة منهم.

آريان منوشكين موهوبة بالسيطرة والحزم. فعالة، وإرادوية وحساسة، فعينها على كل شىء، وتراقب كل شىء. كنا نناديها بلغة الإشارات: إنها " المرأة ذات الأذرع على السيقان".

من بين الكوميديين الذين كانت تديرهم، تعرفت على أمريكى، اسمه سيمون. إنه لا يستخدم الكلام ولا يستخدم لغة الإشارات.

ومع ذلك لا يجد صعوبة فى التواصل مع الصم. فهذا الرجل يمتلك موهبة خارقة فى الكلام بالأيدى. وقدرة رائعة على التجسيد.

مَنحنى هو وكل هؤلاء الناس ذائقة الذهاب إلى ما هو أبعد. وأن أتقدم على طريق المسرح.

بعد ذلك، شاركت فى حفل النظرة، الذى يجتمع به صم وأشخاص يسمعون، حيث نقدم فقرات قصيرة من خمس دقائق تقريبا. كان موضوع واحدة من تلك الحفلات هو أسود وأبيض. طلبت من عمى أن يكتب لى شيئا عن النهار والليل. كنا اثنتين، صديقة طفولتى كلير، وأنا. كنت أنا الليل، وهى النهار. ترجمنا الحوار بلغة الإشارات، وأضفنا له بعض الارتجال.

كلير النهار: صباح الخير سيدتى!

إيمانويل الليل: لماذا صباح الخير؟ إنك تعرف أننى الليل! سيدى النهار، أتسخر منى!

مرة أخرى، مع كلير أيضا، كنا يدين اثنتين. كلير يد وأنا اليد الأخرى. وهاتان اليدان كانتا تتشاجران. كنا نستمتع بالشجار، بالانفصال، والتلاقى من جديد. الأيدى التى تعمل، والتى لا تفعل شيئا. الأيدى المسيطِرة والمسيطَر عليها.

الموضوع التالى كان حرا. كنا مراهقين كثر نرتدى اللون الأبيض، فى الضوء فوق البنفسجى. القصة كانت مرئية جدا: طفل ينام فى المدرسة، ويحلم. وهناك مؤثرات خاصة: فكنا نرى رأسه تنفصل عن

جسده، وذراعيه، وساقيه تذهب بعيدا عنه. أصبح الحلم كابوسا، وهائجا بعض الشيء، فالرأس يبدو عليها أنها تتنزه وحدها، ومن ناحية أخرى فالجسد بلا رأس. كان ذلك جميلاً جدا. والجمهور يصفق. شعرت بذلك جيدا، ورأيته، واستشعرت الذبذبات، والتكثيف، فهناك إيقاع خاص لكل جمهور.

أحب المسرح، وأحب خشبة المسرح، وأحب التصفيق. لكن... اجتازى الثانوية أولاً.

- ٢٠ -

إيدز شمس

ماتوا منه، مثلهم مثل آخرين، بسبب نقص المعلومات.

من قبل، وخلال "شبابى" المجنون، لم أكن أفكر فيه على الإطلاق. كان من الممكن أن أسقط على أحد الحاملين للفيروس الإيجابى، وأن أصاب بالعدوى دون أن أعرف. لحسن الحظ، فى شلة أصحاب الحفلات، كنا أحيانا ما ندخن "صاروخا"، دون أن نجرب حقنا مخدرة أو هيروين. هذا لا يمنع أننا كنا لا نعلم أى شىء عن أى شىء، ولم نكن نبالى إطلاقا بأى شىء. بدأت آخذ بالى من هذا الأمر فى عمر السابعة عشرة.

المعلومات عن مرض الإيدز كانت تأتى من الذين يسمعون، وللذين يسمعون. ما من كتابات سفلية فى المقاطع التليفزيونية عنه. وما من كتابات سفلية فى الحلقات الطبية. ومع ذلك فعدم الاهتمام بتوصيل المعلومة للصم، لهو أمر مثير للسخرية؛ وأن يهتم التليفزيون بقياس نسبة المشاهدة أكثر من اهتمامه بالمعلومات والتى ينبغى أن تكون مسئوليته الأولى، فإن ذلك يصدمنى. إن الإيدز يقتل الصم. بسبب غياب المعلومات. وأنا اسمّى ذلك عدم مساعدة لشخص يتعرض لخطر الموت.

كل شيء يصب عند هذا النوع من نقص المعلومات التراجيدى. فهو يبدأ بالأطباء الذين لا يستخدمون لغة الإشارات، إلى الآباء الذين لم يتثقفوا، والجرائد التى نادراً ما يقرؤها الصم، والمستشفيات التى لا تهتم إلا بتزويد الذين يسمعون بالمعلومات.

حتى الشعار الذى تم اختياره لإيضاح فيروس HIV الإيدز . ربما يثير ذلك ابتسامة شخص يسمع، إذا قلنا له إن الإيدز يُرمز له بالرمز ذاته الذى يشير إلى الشمس! ومع ذلك.. فبعض الصم، وليس الأغلبية، لحسن الحظ، يعتقدون أن الشمس هى المسئولة عن نقل الفيروس. وذلك بكل بساطة لأن فيروسHIV غالبا ما يقدم إكليلا برتقاليا مزينا بإبر، والتى تمثل الشمس أيضا. تلك الإبر البرتقالية هى التى أوجدت اللبس، على الرغم من أن بعض مصممى المعلومات الذين يسمعون وجدوها مدهشة.

الإيدز يساوى الشمس، ويساوى الخطر! من المؤكد أن الحذر الوحيد الذى قد يأخذه الصم المقتنعون بذلك، يتمثل فى ألا يتعرضوا للشمس! فعزلوا أنفسهم، بدافع من الخوف، عن رمز الحياة على الأرض كى لا يلاقوا الموت. وهناك مثال آخر عرفته: أعلن طبيب لشخص أصم أنه حامل إيجابى للفيروس، وكى يطمئنه الطبيب شرح له أن إيجابية حمل الفيروس لا تعنى الإيدز، وأن حالته لا تستدعى أية احتياطات خاصة؛ وما يمكن أن يفهم بين السطور: أنه لا يوجد مرض، إذن ما من أدوية... أى حياة طبيعية. خرج الأصم الحامل الإيجابى للفيروس من العيادة وفى رأسه مفهوم

مشوش تماما. وقد يكون نَشَر الفيروس دون أن يعلم ما كان يفعله. إنه الخطأ الذى لا يغتفر.

لى صديق، برونو مونسيل، عرض علىّ المشاركة فى مجموعة من المتطوعين، أنشئت فى عام ١٩٨٩م، داخل مؤسسة. AIDES التحقت بدورة تعليمية مع أصدقاء آخرين صم، لكى أعرّف المرض بشكل أفضل، وكنت أفكر معهم حول الوسيلة الأفضل لنشر المعلومات فى محيطنا.

لا يكفى أن نوجّه للمرضى تعزية فعالة. بل إن الأولوية للوقاية. وإيجاد شفرة واضحة باستخدام لغة الإشارات كى يفهم الجميع طريقة نقل الفيروس. وتنظيم اجتماعات فى المراكز التربوية لشرح طريقة نقل الفيروس.

سمعت، مع برونو مونسيل، فى بعض اجتماعات المعلومات التى كنت أشارك فيها. إجابات مرعبة. كان يسأل:

- "هل من الممكن أن يخبرنى أحدكم كيف نصاب بالإيدز؟"

والإجابات:

" عندما نقبّل بعضنا؟"

" حين يكون لدينا بقع على الوجه"

"عندما يكون لدينا بثور."

"لا ينبغى أن نقبّل بعضنا."

"لا أعرف."

"أنا... الإيدز. لا توجد مشكلة. فلست مصابا به."

شرح برونو أهمية أن نحذر . لأنه ما من علامات مرئية، ما من وسيلة "لرؤية" المرض على الوجه. وبالنسبة للصم، فإن الغياب الكامل للعلامات المرئية يعنى نوعا من الضلال. أو يعنى جدارا يقف حائلاً أمام الفهم. فالشخص الذى يفقد وزنا هو شخص ربما لا يأكل، بكل بساطة؛ والشخص الذى لديه بقع على الوجه هو شخص يتعرض للشمس، بكل بساطة. ينبغى حتما أن نجعلهم يفهمون الجانب الخامل للفيروس. وغياب الأعراض المرضية المرئية.

يشرح برونو أن المرض يتجلى فيما بعد، بعد وصول الفيروس إلى الجسد، لأن الفيروس ينام فى الجسد، لوقت طويل، ثم يستيقظ فى يوم ما. وأخذ مثالا البيضة: فنحن لا نرى لوقت طويل ما بداخل البيضة، ومع ذلك فهناك كتكوت ينام بداخلها. فالبيضة تحيطه، وفى يوم ما سيخرج منها الكتكوت. ولكن الفيروس ليس كتكوتا جميلا، بل مصاص دماء. سيأكل الجسد من الداخل.

هناك صورة أفزعت الشباب. صورة اللاعب العملاق لكرة السلة الأمريكى، جونسون الساحر، والذى كانت لديه الشجاعة ليعلن على الملأ أنه مصاب بالمرض. مرت الرسالة خاصة عند الصبية الصم، والذين يشاهدون كثيرا الرياضة فى التليفزيون. وأحد هؤلاء الصبية سأل إذا كان هذا اللاعب الذى رآه فى كامل لياقته لن يستطيع اللعب مجددا.

أخذت مكان برونو، لأشرح له أن الفيروس نائم، مثل الكتكوت فى البيضة. وأن لاعب كرة السلة ليس مريضا، ولكن اليوم الذى سيخرج فيه الكتكوت المتوحش فى جسده، سيهاجمه، وستكون النهاية بالنسبة له، لن يستطيع اللعب مجددا، سيكون مريضا للغاية. بعد ذلك، باشر برونو توزيع بعض التحذيرات.

والمعلومات كانت بسيطة فى هذا الشأن: مارس العلاقة الجنسية باستخدام واقٍ، حينها لن تصاب بالإيدز؛ وبلا واق، يكون هناك إيدز.

فى قسم الصم فى AIDES ابتكرنا علامة رمزية خاصة لوصف الفيروس. اليد اليمنى، تشكل كرة، وباقى الأصابع فى الهواء، بعيدين عن بعضهم يمثلون الإبر. واليد اليسرى أسفل اليمنى، ومفتوحة. وبفضل هذا المجهود، أصبح هناك شريط كاسيت يحوى المعلومات؛ وينتظر أن يظهر ويوزع!

وأرى أن هذا الكفاح مهم لدرجة قصوى من أجل الصم. فمنذ سن السابعة عشرة وأنا أشارك كلما طُلِب منى، بشأن المعلومات حول الإيدز. ولا يزال أمامنا عمل كى نعرض الأنماط المختلفة لنقل الفيروس. ولكن المجهود الذى نطلبه من الجهات الحكومية هو الذهاب إلى المدارس، وتكوين مجموعات عمل، وتنظيم مؤتمرات للصم. فذكاء برونو مونسيل وشجاعته وتفانيه يستحقون ليس فقط التشجيع ولكن تقديم المساعدات.

إننى أكرر: يوجد ثلاثة ملايين ونصف مليون من الصم ، وهم مدعوون ليس فقط للتصويت مثل باقى الناس، ولكن أيضا لممارسة الحياة الطبيعية وإنجاب الأطفال مثل باقى الناس؛ أى أن لهم الحق فى المعرفة مثل باقى الناس.

الإيدز كالشمس، حقا إنه لوصف رائع لمصاص دماء قاتل يأتى فى الليل.

- ٢١ -
متِعَصّبَة

يتوقف تعليم الصم فى فرنسا بعد الحصول على الثانوية. وفى دروس مورفان، كنا ندرسها فى ثلاث سنوات. ويلتحق بعض الصم بالجامعة. وهو ما فعلته واحدة من صديقاتى. إنه أمر قاس جدا، فالمجهود يتضاعف عشرة أضعاف. كان معها من يدون النقاط، جارها فى المحاضرة الذى يسمع، ثم تأخذ هى نسخة. وحين لا يكون من يدون النقاط صديقا، فيتعين التصرف بطريقة أخرى. فصديقها جعل من هذا الأمر مهنته؛ والآن، يتناوب بين الطلبة الصم.

تعود إلى منزلها، وتذاكر صديقتى. ولكن هذه النقاط قد دونها شخص آخر، وليس لديها إمكانية الاستناد، مثل الآخرين، على ما سمعته لتختار ما تدونه وما لا تدونه. علاوة على ذلك، فبعد المحاضرة، لا تستطيع مثلها مثل بعض الذين يسمعون أن تسأل الأستاذ حول موضوع أو آخر. وإذا فاتها شىء، فعليها أن تكتفى بما لم يفُتها. إنه مضيعة للوقت.

وهناك طريقة أخرى، وهى تسجيل المحاضرات على كاسيت. ثم يدوّن أبوها أو أمها اللذان يسمعان المحتوى. حيث يستغرق ذلك وقتا رهيبا، قبل أن تستطيع العمل بشكل فعال. فى يوم ما، قالت لى:

" إنه الجحيم، إنه جنون تام، فهو مجهود مزدوج. صحيح أن بعض أصدقائى اجتزن الـ DEUG أو حصلن على ليسانس، ولكن يظل ذلك استثنائيا."

إن صديقتى صماء صمما عميقا مثلى. وتعلمت لغة الإشارات قريبا، ولكن والديها لم يتعلماها؛ فلا تحظى بعون فى هذا الصدد.

واجتازت كذلك الثانوية، وأتمت دروسا تمهيدية فى الأحياء وفى الرياضيات الخاصة، وأعادت عامها الأول. ووفقا لآخر الأخبار، فإنها ستدخل العام الثالث.

دائما ما نُعيد بعض المواد حين نكون صمّا. يستحيل أن يحدث شىء مختلف، خاصة أننا لا نستوعب أكثر من خمسين بالمائة من محتوى المحاضرة، وأننا نقرأ الشفاه.

متعصّبة

هناك زميلة فى مدرسة مورفان تركت المدرسة فى العام الثانى كى تلحق بوالديها إلى الريف. وحين كنا فى الفصل، كانت تقول لى مرارا:

" أمك تستخدم لغة الإشارات، أمر رائع، ومدهش."

كانت تتمنى لو أن والديها قد تعلماها. وحين كنت أذهب لأقضى السهرات عندها، كنا نتعشى مع عائلتها. بالتأكيد لن أظل صامتة طوال الوقت، فى المرة الأولى عبرت عن نفسى باستخدام الإشارات معها. وسريعا، ما أوقفنى والداها:

ـ " كلا، يجب أن تعبرى عن نفسك شفويا.

ـ ولكننى أتحدث إليها هى. ولن أتحدث شفويا إلى صماء!"

وجدت ذلك مصطنعا تماما، وأحمق تماما! حسنا، أن أكلمهم شفويا، لأنهم لا يعرفون لغتى. ولكن أن أكلم صاحبتى!

" عذرا، ولكن أن أتحدث معها شفويا يبدو لى هذا أمرا مثيرا للسخرية!

ـ تكلمى، حتى لو لم نفهم ما تقوليه!"

لم يريدا فقط أن يحرماها من التعبير الطبيعى معى، ولكن أيضا، كانا يريدان أن يفهما كل شىء مما كنا نقوله! ولكن أين هى الحرية وسط هذه القصة؟

تمردت صديقتى، وفيما بعد، شرحت لى أن علاقتها بوالديها كانت سيئة للغاية. كان بينهم شجار وحشى طوال الوقت. فكانت تنفجر وتقذف الأثاث على الأرض، كانت بحاجة ماسة إلى التحرر الجسدى. كان أبوها عنيفا. وكان المناخ يسوده العدوانية والصراع طوال الوقت.

كنت أشعر بالذعر أمام سلوك كهذا. فلا أستطيع تخيل علاقة مماثلة مع أمى أو أبى.

وأخيرا، لم أعد أحتمل الذهاب إلى منزلها، وكانت تأتى هى إلى منزلى، حيث نتكلم بحرية. ومع ذلك، كانت تجبر نفسها على التعبير شفويا مع أمى، مع أن أمى تعرف جيدا لغة الإشارات الفرنسية.

كنا نتصرف بحرية ونثرثر فى حجرتى مساءً، لساعات طويلة. كانت تحكى لى عن حياتها، وأنا أحكى عن حياتى، وهو ما كان يسرّى عنها.

يحتفظ أبواها بصورة سلبية لها؛ إذ يعتبرانها معاقة، ومريضة. فابنتهما لن تكون "طبيعية" أبدا، على الأقل ينبغى إخفاء صممها، وإجبارها على الكلام. كانا يعتقدان، مثل الكثيرين، أنه إذا استخدم الطفل لغة الإشارات، فلن يتحدث مطلقا. مع أنه، ما من أى علاقة بين الاثنين. فى عمر السابعة، كنت أتحدث، وكنت أقول أى شىء. وباستخدام لغة الإشارات، بدأت أعبر أفضل كثيرا. لأن حينها لم تعد اللغة الفرنسية الشفوية إجبارية، فأصبح الوضع أسهل فى تقبله من الناحية النفسية. وبعد ذلك، انتقلت إلى المعرفة الأكثر أهمية: كالمفاهيم، والتفكير؛ وأصبحت الكتابة أسهل، والقراءة أيضا. وما حققته من تقدم يثبت أن حرمان الطفل من التعبير بلغة الإشارات يعد ظلما تاما، وأن من الخطأ الاعتقاد بضرورة أن ينطق الطفل الأصم كى يستطيع الكتابة والقراءة. فمثلاً، حين أقرأ رواية

..ا، أربط غريزيا، بين الكلمة التى أقرأها والإشارة المعبرة عنها. وفيما بعد، أقرأها بسهولة على شفاه من ينطقها. ذاكرتى المرئية تحفظ تماما الأبجدية الفرنسية. فالكلمة، هى صورة، ورمز. عندما علمونى "أمس" و "الغد" بلغة الإشارات، وأدركت معناها، استطعت نطقها وكتابتها أسهل من ذى قبل!

كلمة مكتوبة على رأس كلمة، مثل مهرج على رأس مهرج، وأم على رأس أم، وأخت على رأس أخت! أستطيع معرفة رأس كلمة! وأستطيع رسمها فى الهواء! وكتابتها ! وقولها. وأستطيع أن أكون مزدوجة اللغة.

مِتعصّبة. حيث يشغلنى أمر صاحبتى. لا أحب أن أكون فى مكانها. فوالداها يحبانها حبا أنانيا. ويريدان أن تشبههما. بينما والدى يتقبلان اختلافى عنهما بشكل مذهل. ويشاركاننى هذا الاختلاف. أما هى فلا تستطيع مشاركة أمها فى أى أمر مهم. كيف تحكى لها عما تشعر به، عن مشاكلها كفتاة صغيرة وشابة، قصص حبها، وإخفاقاتها، ومُتعِها؟

ويظل التواصل سطحيا، مع الكلمات التى تستطيع استخدامها. ومن الطبيعى، فى ظل هذه الظروف، ألا تتفاهم جيدا مع والديها. فهما لا يعرفان شيئا عنها، أو يكادان لا يعرفان، وكذلك هى لا تعرف شيئا عنهما. إنها وحيدة للغاية!

وهناك قصص أسوأ. فلدى صديقة عاشت وسط محيط عائلى لا أكاد أصدقه. ظلت سيلفى حتى سن الخامسة عشرة مقتنعة أنها الصماء الوحيدة فى العالم. ولم يكن ذلك من نبع خيالها، وإنما كانت الحقيقة التى قيلت لها. فوالداها أكدا لها بكل بساطة أنها الوحيدة التى تمثل هذا الجنس البشرى، كأنها وحش استثنائى. إنها نجمة السيرك، ولم لا؟ وكبرت وسط هذا الجهل، ووسط وحدة ناجمة عن هذا الاعتقاد. وظلت تجتهد، بلا أمل، لتتكلم مثل بابا وماما ومثل الزملاء الصغار فى مدرسة الذين يسمعون. كانت تحمل "لعنتها" وحدها تماماً.

عندما كنت صغيرة، وعرفت أننى صماء، تخيلت أن أعصابى السمعية متحللة. كنت أرى الأشياء متشابهة، فى الصور. فقال لى والدى على الفور:

" كلا، أعصابك السمعية ليست متحللة، بل موجودة ، مثل أعصابنا، ولكنها لا تعمل."

إنها الصورة التى حفظتها منذ ذلك الحين، عن الصمم: أعصابى لا تعمل. شكرا. إنها الحقيقة، وهى حقيقة بسيطة.

ولكن ماذا عن سيلفى؟ ليست لديها حتى صورة. ليس لديها شىء. لأنها لا تعرف الحقيقة.

ولكن لأن الحقيقة لا تتوارى إلى الأبد، فإن أحد زملاء الفصل خان سر العائلة. وجعل سيلفى تفهم أن هناك صما آخرين يعيشون

بخير، وأنه قابلهم بنفسه فى محطة المترو. لم تكن سيلفى تصدقه. فما كان من الممكن أن تشك فى الكلام المقدس لوالديها العالمين ببواطن الأمور، اللذين تخلص لهما إخلاصا تاما. ولأنها، كانت تعتقد أنها "الوحيدة غير الطبيعية فى العالم" كانت تشعر بالذنب لأنها موجودة، وفى الوقت ذاته بأنها سعيدة الحظ لوجودها فى هذا العالم بفضلهما. ولكن هذه القصة كانت تعذبها. فقد كانت بحاجة لتعرف، ولتمحو الشك. فقبلت الرهان وذهبت مع صديقها الذى يسمع لتتحقق بنفسها، وهى متأكدة أن والديها هما اللذان على صواب.

يوم الجمعة بعد المدرسة، ذهبا إلى المترو. عشية عطلة نهاية الأسبوع تعج المحطة بالشباب الصم. كل الجنسيات تتجاور، والكل يتحرك ويتناقش بحماسة.

كانت سيلفى تنظر لهذا الجيش الذى كاد يغلق المحطة بأكملها. ماذا يفعلون؟ لماذا كل هذه الحركات؟ ماذا تعنى؟ وانتهى بها الحال بالتحقق من أنهم كلهم جميعاً صم. كلهم. هؤلاء الرجال والنساء والشباب كلهم صم! كانت الصدمة عنيفة لدرجة أنها تقيأت، فقد اهتزت من أعماقها، وانقلب تفكيرها رأسا على عقب. فهناك صم بالعشرات، وبالمئات؟ لم تستطع تقبل ما اكتشفته، وهى فى الخامسة عشرة.

وعند عودتها إلى المنزل، كانت المأساة. حيث وقع والداها ضحية صمتهما المُذنب، وغير المقبول. وانفجرت سيلفى. إنه غضب،

وإذلال، ورعب، كيف يمكن أن ينكر والداها فى هذه اللحظة. إجابة والديها كانت: " كان ذلك من أجل مصلحتك."

بل كان ذلك، سيدى وسيدتى، لإبعادها عمن يشبهونها. وكى لا يعرف الجيران أنها صماء، ولإجبارها على الكلام، ولتشبهكما، لا لتشبه نفسها. وبالأحرى، هذا السبب الأخير: ألا تشبه نفسها!

طلبت سيلفى من والديها أن تغير المدرسة لكى تلتقى بالصم. تعلمت لغة الإشارات بشجاعة كبيرة، خطوة خطوة، مع الكثير من الصعوبات ولكن أيضا الكثير من الإيمان بما تفعل، واستطاعت الاندماج فى عالم ظلت بعيدة عنه، من ناحية. ومن الناحية الأخرى، ومع مرور السنوات، تغير سلوكها. سمحت لها لغة الإشارات بأن تزدهر وتكون سعيدة. قالت لى الآن أنها سامحت والديها. أحب سيلفى كثيرًا، لشجاعتها ولما عاشته وما تغلبت عليه.

خمسة عشر عاما من الكذب! ذلك يجعلنى عصبية.

وكذلك فى الشأن السياسى. فحين يكون هناك خطاب سياسى فى التليفزيون، لا يصاحبه ترجمة أسفل الشاشة، ماعدا بعض خطابات فرانسوا ميتران، فيما نحن ثلاثة ملايين ونصف مليون أصم، وحسب ما أعرف، لم نأخذ حق التصويت! هناك الجرائد، بالتأكيد، ولكن ما يقوله رجل سياسة فى لحظة محددة، والتعبير الذى يبدو على وجهه، والطريقة التى يتحدث بها، والكلمات التى يستخدمها، جميعها ذات أهمية كبرى.

فى يوم ما، كنت فى نادى للجنود الصم، وفاجأتنى العبارات العنصرية التى سمعتها! كان هناك رجل سياسة وحيد من الممكن فهم ما يقول قليلاً بقراءة شفاهه. ولا أحب إطلاقا ذكر اسمه هنا.

سمعت هؤلاء الشباب الصم يقولون لى:

" لقد صوتنا له لأنه يستخدم كلمات بسيطة، فنستطيع قراءة شفاهه بسهولة. إنه يفسر كلماته جيدا. أما الآخرون، فلا نفهم منهم شيئا على الإطلاق حين يتكلمون."

" فرنسا للفرنسيين"، تلك العبارة تقرأ جيدا على الشفاه! ولكن ماذا تُخفى وراءها، تخفى العنصرية، والإقصاء، وما يتحدث عنه هؤلاء المرشحون من مخاطر لا يعنى شيئا بالنسبة لهؤلاء الشباب الصم. ذلك الذى يظهر فى التليفزيون وتظهر معه ترجمة ليقول لهم:

" ذلك هو ما يقوله هذا الرجل، وما يقوله غير محتمل إنسانيا"؟ وأنهم يمتلكون الخيار، بعد ما سمعوه، إنه ينظر إليهم. ولكن ما يثير حنقى هو أنهم لا يمتلكون الخيار حقيقة!

إننى مصدومة تماما لأن هؤلاء الصبية المساكين لا يصوتون إلا اعتمادا على ما قرأوه على شفاه هذا الرجل، بكل بساطة! أو لا يصوتون، لأنهم لم يفهموا شيئا مما على شفاه الآخرين! قلت لهم:

"فى يوم ما، فى تاريخنا، كان هناك رجل آخر ينطق كلامه بشكل واضح لدرجة الصراخ فى كل مقطع، وألصَق نجمة صفراء على

اليهود، ومثلث ورديا على الشاذين جنسيا، ومثلثا أزرق على المعاقين. وكان بينهم صم. انتهت النجوم والمثلثات بألوانها المختلفة. فقام هذا الرجل بخَصى الصم كى لا يكون لهم نسل."

يجب أن يبذل رجال السياسة مجهودا، غير الترجمة المؤسسية المصاحبة لخطبة رئيس الجمهورية في عيد الميلاد. فنحن لا نصوت فى عيد الميلاد!

إن ذلك يُعصّبنى.

قابلنا فى أحد اللقاءات الوزير السابق للمعاقين ومصابى الحوادث، والذى كان جالسا على كرسى متحرك. كان رجلاً لطيفا، ولكن:

أولاً، كان يجهل تماما ما يعنيه عالم الصم.

وثانيا، تعمد أن يقول:

" لا بد أولاً أن تتكلموا، كى تستطيعوا الاندماج فى عالم الذين يسمعون."

كيف يفهم كلمة الاندماج؟ وأين هى المدارس التى يمكن أن نحدثه عن احتياجنا لها كى نتقدم فى اللغتين؟ وأين الأماكن التى يمكن للصم أن يلجأوا إليها؟ ومراكز المعلومات الخاصة بالإيدز لكل الصم؟ أين هى كل مطالبنا؟

فهو لا يعرف سوى أن يردد:

" تكلموا، وسوف تندمجون!"

أخيرا، نهض أصم ، غاضب، وأجابه:

" إذا كان ينبغى لى أن أنطق، إذن فانهض أنت وامش!"

أكان ذلك لا يليق؟ بالتأكيد. ولكنه أيضا كوميديا سوداء. وأحيانا ما يكون مفيدا.

يُعصبنى رجال السياسة. إنهم مثل آلة الكمان. كما قلت من قبل فإننى لا ألحظ أى ذبذبات للكمان. لأنها مرتفعة جدا. ومعقدة جدا. وملتوية جدا. ومستحيل تخيل أنها نوع من أنواع الموسيقى.

أنا بحاجة إلى أن تكون قدماى على الأرض، كى أستشعر موسيقى واقعية.

ذلك يعصّبنى.

- ٢٢ -
صمت البكالوريا

لو كان لدىّ معلم لغة فرنسية قادر على استخدام لغة الإشارات مثل أمى (حتى مع أخطائها التى تضحكنى كثيرا)، لكان خوفى من البكالوريا قد تناقص. فأنا أقرأ ما على الشفاه، ثم أعيد ما أراه على الشفاه كلمة بعد كلمة، حتى أكوّن عبارة فى النهاية. ربما كنت لأقضى عشر سنوات فى مدرسة مورفان. إنها مدرسة خاصة، سماعية، ولكننى أحمل لها العرفان لما تعلمته.

أقضى وقتى وسط القواميس والكتب؛ كى أجد المعنى المحدد لعبارة رأيتها على شفاه معلم. كنت أذاكر المواد بنشاط. وأظل على نشاطى حتى الثانية أو الثالثة صباحا، كمجنونة. وقد أفادتنى ازدواجية اللغة بشكل كبير. وبالنسبة للكتابة، الأمر على ما يرام. أتذكر الخطأ مرئياً بشكل جيدا جدا. أما إنشاء العبارات فكان معقدا. ففى لغة الإشارات ليس لدينا القواعد ذاتها. إلا أننى دائماً ما رغبت فى تكوين جملة فرنسية جذابة، وفى أن يكون لدى أسلوب جميل وأكاديمى. ولا تشوبه الأخطاء.

كانت أختى تساعدنى أحيانا فى هذا الأمر، أختى التى علمتها لغة الإشارات، وأفخر بذلك، وهى الآن تصحح لى نصوصى الفرنسية. قالت مارى:

" ماذا تعنى " لأن"؟ لماذا تضعينها هنا؟ إنك تضعين الكثير من "مَن" و"ماذا"، وفى غير مكانها."

كنت أقرأ الجرائد كثيرا، وأقرأ حتى لا أعود أرى بوضوح. كانت رأسى محشوة بالعديد من الأفكار فأبدو كالمخبولة، أحيانا.

كان تجاوز الذات جزءا من طبيعتى، وكذلك الوصول لنهاية الأمور التى أتقلدها. وإذا قررت بلوغ هدف، فإننى لا أتركه. لا شىء تقريباً، يمكن أن يمنعنى. نورس عنيد. نورس مصمم. ومتعَب.

عام ١٩٩١ كان عام البكالوريا لإيمانويل لابورى. فى المحاولة الأولى.

أنا فى التاسعة عشرة. ومرعوبة. سأموت من الخوف.

أرغب فى النجاح من كل قلبى، واجتهدت تماما ليلاً ونهارا، وأشعر بالرعب، ألاّ أستطيع أن أفعل شيئا يوم الامتحان. ويحدث الفشل.

كم هو قاس الفشل، وفى هذه الحالة، يكون حمقا أيضا. إن الفزع هو ما سيجعلنى أفشل.

النورس محبط. تتملكنى رغبة حقيقية فى تركها.

وفى أعماقى، أقول لنفسى: هل أنا بحاجة حقيقية إلى البكالوريا؟ وماذا سيحدث إذا تركتها ومضيت؟ سيقول أبى وأمى:

"كلا، لا تفعلى ذلك. تمالكى نفسك. ابدئى من جديد. كما أنه إذا تركتها ومضيت، لن يكون عندك اختيارات كثيرة تتعلق بالمستقبل. هيا، استمرى."

وبدأ الأمر من جديد، اجتازى ثانويتك أولاً.

وكى لا أحبط نفسى تماما، وكى أتعلق بتلك العبارة " اجتازى ثانويتك أولاً" ، توسلت إلى والدىّ ليتركانى ألتحق بحصص إضافية بالمراسلة، كى أستطيع استعادة الخمسين بالمائة المتبقية فى الجيولوجيا، والفلسفة، والتاريخ، واللغة الفرنسية، واللغة الإنجليزية، والأحياء، والباقى. فلدينا درجات إضافية فى الرياضيات أيضا.

وأنا بحاجة إلى القراءة بأكثر ما أستطيع، والكتابة بأكثر ما أستطيع. إننى أحب التاريخ، ولكن لكى أعرض موضوعا تاريخيا كتابة، فالذاكرة لا تسعف، إذ لابد من كتابته بشكل صحيح تماما.

فى مدرسة مورفان، كنت واحدة من النادرات اللواتى يقرأن كثيرا. وبشكل عام، الصم لا يقرأون كثيرا. فلديهم صعوبات. فهم يخلطون مبادئ اللغة الشفوية ولغة الكتابة. بالنسبة لهم، اللغة الفرنسية هى لغة الذين يسمعون. أما أنا، فأقول إن القراءة قريبة من الصورة، من المرئى. ولكنها مسألة تتعلق بالتنشئة. فقد علمونى فى البيت أن أحب الروايات، والتاريخ، وإذا فاتنى شىء أثناء

القراءة، كنت أغرق فى القاموس. فوالدىّ يحبان القراءة والكتابة، لقد أثّرا علىّ.

كما كنت أعرف مصطلحات مثل: التضخم المالى، والانكماش المالى، والاقتصاد العالمى. والفلسفة.

ينتشر المينيتل(*) بقوة بين الأصحاب الذين يستعدون لاجتياز البكالوريا . فقد حقق أحدهم تقدما هائلاً فى اللغة الفرنسية بفضل المينيتل. لقد كان تافها، وأجبره المينيتل على الكتابة. والآن هو يستطيع الكتابة. صحيح أن لديه أخطاء كثيرة فى القواعد، إلا أن مفرداته ثرية .

هذا الشفوى ولّد عندى خوفا أزرق. كما نقول بالفرنسية. ويمكننى أن أضيف الأخضر. والأسود.

عام ١٩٩٢ سريعا سأتم عامى العشرين. هذه المرة، هى المحاولة الحتمية.

(*) المينيتل: هو جهاز

-٢٣-

صمت النظرة

ها هو فصل دراسى جديد يبدأ، وها أنا أغرق فى الصمت، وسط كل هؤلاء الأطفال!

شاهدت مسرحية أطفال الصمت وأنا فى العاشرة، فى ستوديو شانزليزيه، مع والدى. كانت المسرحية لمارك ميدوف، والذى كتب لصديقة لى، وهى ممثلة كوميدية صماء، تدعى فيليس فريليك. كانت شانتل ليينل هى من أدّت الدور النسائى فى مسرحية أطفال الصمت. وهى من أطلقت علىّ " الشمس التى تشرق من القلب"، حين كنت صغيرة.

فى العاشرة من عمرى، لم أكن أفهم كل شىء. أكثر ما أتذكره هو الجو العام للعرض. وخشبة مسرح، والشخصيات، ورجل يسمع، وامرأة صماء تتكلم بلغة الإشارات. وأتذكر الصراع بين العالمين.

قالت أمى:

" إيمانويل، هناك مخرج يريد أن يراكِ بخصوص معالجة جديدة لمسرحية أطفال الصمت. أخذت موعدا معه لأجلك».

أشعر باضطراب، وخفقان.

جاء اليوم، ووصل المخرج. يرتدى معطفا كبيرا، وبدلة أنيقة. وأنا، طالبة فى البكالوريا، ترتدى الجينز والسويت شيرت.

يداى تتكلم لغتى.

تحدث إلىّ جون داركيك، على الفور، قائلاً :

"جسديا، أنت من تصلحين لدور سارة فى أطفال الصمت! أناس كثيرون لم يشجعونى على منح الدور لممثلة كوميدية صماء لهذه المسرحية. ولكننى قررت شيئا آخر. فلا ينبغى أن نرفض الصم فى عالم العمل والثقافة. إنه لأمر مخز!"

سألته يوما لماذا يهتم كثيرا بعالم الصم، وما الذى يربطه به بهذه القوة. صمت... وفكر ثم أجابنى، وهو متلعثم بسبب السؤال:

"لا أعرف، أشعر أننى من نفس العائلة."

سارة، هو الدور النسائى الرئيسى!

قالت أمى:

" انتبه، فإيمانويل ممثلة كوميدية هاوية. إنها لم تحترف التمثيل إطلاقا، ولكنها فعلته من أجل المتعة فقط. لا تُغرها بدور ربما لا تستطيع أداءه."

أمى ترتاب منه. خائفة من أن يأخذ نورسها إلى المركب. إنه رد فعل أمومى. فهى ترتاب فى كل ما يمكن أن يؤذينى. لكن هذا الرجل لا يريد أذيتى.

وإذا كان ينبغى الارتياب منه، فسأرتاب أنا منه وحدى يا أمى. فأنا كبيرة.

سألنى جون إذا كان بإمكاننا أن نتقابل بشكل منتظم، كى نتناقش، ويكون لديه الفرصة لتقدير إمكانياتى بوصفى ممثلة كوميدية. شككت فى نفسى:

" هل تقول إنك تريدنى لهذا الدور؟، ولكنك قد تكون مخطئ بشأنى" .

ـ «إننى نادرا ما أخطئ فى الحياة».

أن تثق فى شخص لا تعرفه، لا يحدث كثيراً. ومع ذلك، فهو يحدث بشكل غريزى. لا أزال أجهل إذا كان بإمكانى أداء دور سارة فى أطفال الصمت. فهو دور صعب. ولا ينبغى أن ألعبه فقط، وإنما أن أعيشه من الداخل. وأنا ليست لدى الخبرة.

هناك قليل من الممثلات الكوميديات الصم؛ فى بلجيكا، لعبت الدور ممثلة تسمع. وحقق الفيلم الأمريكى المأخوذ عن المسرحية نجاحا هائلاً وحصل على جائزة التمثيل، حصل على الأوسكار فى هوليوود.

أن أعيد هذا الدور، لهو أمر رهيب.

رأينا بعضنا لتسعة شهور كى نتكلم عن سارة.

نظرات.

كلما رأينا بعضنا، كلما تناقشنا سويا، كلما سألته عن شخصية سارة، كلما كان صبورا، كلما شعرت أننى منجذبة . ولكن أنا من تقول:

ـ «سأجتاز ثانويتى أولاً».

ـ اتفقنا، ولكن ينبغى أن تعطينى جوابك أولاً. ليس من السهل إنتاج مسرحية كتلك."

خيّم الصمت. النورس يفكر.

الرجل يجذبنى، والمسرحية، والدور، وكل شىء يجذبنى. التمثيل على خشبة المسرح، إنه عشقى. لم أكن لأجرؤ على تمنى عرض مماثل. ولكننى لا أريد أن أكون متزعزعة فى الثلاثة أشهر اللازمة للبكالوريا.

والآن لابد أن أبلغ هدفى، وبمفردى تماما. إذن لا بد أن تظل الاندفاعات نائمة. والرغبات فى حالة انتظار.

قالها بجدية:

" إذا اجتزت الثانوية، ستلعبين الدور بشكل أفضل. ولكننى أعرف أن بإمكانك أداء هذا الدور"!

وتبادلنا النظرات: نظرة. ثم "إنك تعجبيننى"، ثم نظرة. ثم "سنرى بعضنا ثانية"، ثم نظرة.

بعد ثلاثة أشهر.

- ٢٤ -

سيدى الطبيب

فى يوم ما، كانت مارى وأمى تتناقشان حول عملية جراحية محتملة أشبه بالمعجزة، تجعل الصم يسمعون واحتمالات نجاحها ضعيفة، وكانتا تتكلمان عنى، وتتساءلان إذا كنت سأتقبلها.

" لماذا تقولين لا بدلاً منها، يا مارى؟ ربما تقبل إيمانويل؟

- لو حدث ذلك، سأندهش كثيرا ! فأنا أعرف أختى كما لو كنت أنا التى أنجبتها، سترفض حتما."

تجادلتا قليلاً، ثم اتفقتا على رهان. جاءت مارى وشرحت لى عما كان جدالهما، وهى متحمسة جدا، ومتأكدة من أنها على حق.

كانت محقة. بل محقة تماما.

فى الحقيقة، تعرف مارى كل شىء عنى، أفضل من أى شخص آخر. وبإمكانها أن تجيب بدلاً منى فى هذا الموضوع.

سأرفض. وأسمى ذلك نوعا من التطهير. ولكن حين ننطق لفظ "تطهير" فلابد من الشرح. وكنت على خلاف مع والدى فى هذا الموضوع. فهو لا يوافق على هذا اللفظ. يقول:

"انتبهى، ولا تتفوهى بحماقات..."

ولكنه هو. يسمع. أما أنا. فنورس.

والتطهير لا تعنى العنصرية.

فنحن، من نعانى من الصمم العميق منذ الميلاد، نمثل أقلية. لنا ثقافتنا الخاصة، ولغتنا الخاصة. وهؤلاء الذين يريدون أن يحولونا إلى أشخاص، يسمعون مثلنا مثل الآخرين بأى ثمن، من أطباء، وباحثين، يثيرون غضبى. فذلك يعنى إلغاء هويتنا. والرغبة فى ألا يكون هناك، أطفال "صم" عند الميلاد، بعد الآن. إنها رغبة فى عالم كامل. كما لو كانوا يريدوننا جميعا أن نكون شُقرا بعيون زرقاء،.. إلخ.

أى لا مزيد من السود، ولا مزيد من الأوراق اليابسة؟

لماذا لا يُقبل نقص الآخرين؟

فالناس جميعا لديهم نقص بشكل أو بآخر. بالمقارنة بهم ـ الذين يسمعون ـ إيمانويل ناقصة؛ إذ ينبغى أن تولد بآذان تسمع، وفم يتكلم. أن تكون مماثلة. شبيهة على قدر المستطاع بجيرانها. إننى أقارن نفسى بهنود أمريكا الشمالية، الذين ألغتهم الحضارات الأوروبية والمسيحية. كان الهنود يتكلمون كثيرا بحركات جسدية، هم أيضا، يااااه... أمر غريب.

الآخرون يسمعون، وليس أنا. ولكننى أمتلك عينىّ، وهما تلاحظان أفضل كثيرا من عيونكم، بالتأكيد. وعندى يداى اللتان تتكلمان. وعقل يُهيئ المعلومات على طريقتى، وفقا لاحتياجاتى.

ومع ذلك فلن أعاملكم ككيانات ناقصة، يا من تسمعون. بالإضافة إلى أننى لا أسمح لنفسى بذلك. بل فى المقابل فإننى أريد الاتحاد بين الجماعتين، مع كل الاحترام. سأمنحكم احترامى، وأنتظر احترامكم.

فالعالم لا يمكن أن يكون كاملاً ولا ينبغى له أن يكون. فهنا يكمن ثراؤه. حتى وإن توصل أحد الباحثين إلى الجين الذى يؤدى إلى صمم الأطفال عند ميلادهم مثلى، وحتى وإن توصل إلى " تحويل" هذا الجين، فإننى أرفض المبدأ.

إننى أتفهم تماما أن يطلب البالغون الذين كانوا يسمعون ثم أصبحوا صُمًا المساعدة. فهم، قد أصبحوا معاقين بشكل قاس. وحُرِموا من حاسة اعتادوا عليها. من ثقافتهم، ومن أسلوبهم فى العمل، وفى الوظيفة. ولكن لا تمسوا الأطفال الذين ولدوا صُمّا مثلى. أقصد كل عشيرتى من النوارس الصغيرة فى كل مكان. يجب أن يُترك لهم الخيار، وإمكانية التحقق من خلال الثقافتين.

إن تاريخ الصم هو تاريخ طويل من الكفاح. حين ابتكر راهب إسبانى فى عام ١٦٢٠ لغة الإشارات، بشكل محدود، والتى طورها فيما بعد، قس الـ"إيبى" إنهما لم يشكّا فى أن الأمل الرائع الذى

منحاه لعالم الصم سوف يُخمد بقسوة. وأسس القس معهدا متخصصا فى تعليم الصم.

فى القرن الثامن عشر ذاعت شهرته كثيرا، حتى إن الملك لويس السادس عشر أعجب بتعليمه. وكانت بمثابة ثورة، فاهتمت أوروبا كلها به.

وفى القرن التاسع عشر كان التحريم الرسمى. وأصبح لابد من اختفاء "الإيماءات" كما نطلق عليها، من المدارس. فهى مرفوضة، لأنها فاحشة وتمنع من يطلق عليهم صُم عن الكلام. أقصيَت لأنها صنفت ك "لغة إشارة"!

وهكذا أجبر الأطفال على نطق أصوات لم ولن يسمعوها مطلقا. وصنعوا منهم متطورين سلبيين. الأطباء والمربون، والكنائس، كل عالم الذين يسمعون اتحد بعنف لا يصدق ضدنا. وحده الكلام كان ما يجب أن يسود.

كان لا بد من انتظار مرسوم يناير ١٩٩١ كى يُرفع التحريم. وكى يمتلك الوالدان حرية الاختيار فيما يتعلق بازدواجية اللغة عند أطفالهم. اختيار هام، لأنه يسمح للطفل الأصم أن يمتلك لغته الخاصة، وأن ينمو جسديا، وأن يتواصل بالفرنسية الشفوية أو بالكتابة مع الآخرين. مر قرن يسود فيه، ما أسميه، إرهابا ثقافيا من جانب الذين يسمعون. إنه جنون! قرن مظلم، أجبر فيه الصم فى أوروبا، على الخضوع، بحرمانهم من ضوء المعرفة. فيما كانت

لغة الإشارات فى الولايات المتحدة، على سبيل المثال، فى هذه الفترة، حقا وثقافة حقيقية كاملة.

ولكن الآن، مع التقدم العلمى والطبى، ومع اكتشاف العلاج بالإشعاع، فإن هيمنة الذين يسمعون علينا ذهبت لأبعد من ذى قبل.

الزرع الإشعاعى لهذا الجهاز الجهنمى الذى يحول الموجات الصوتية إلى تيارات كهربية. وتوضع أقطاب كهربية من البلاتين فى الأذن الداخلية. تلك الأقطاب الكهربية مرتبطة بميكرو كمبيوتر مزروع أسفل فروة الرأس بحوالى خمسة عشر مشبك. وإريال صغير مختبئ خلف الأذن ومثبت بعلبة صغيرة تنقل أصوات العالم الخارجى إلى الكمبيوتر. هذا الكمبيوتر الصغير لا يفعل شيئا إلا أنه يشفّر الأصوات ويرسلها فى صورة علامات إلى الأعصاب السمعية.

وعلى من يرتديه أن يتعلم فك الشفرة.

منذ عام ١٩٨٠ وهو العام الذى أجريت فيه أولى العمليات، كنا نسمع الجميع يتحدثون عنه فى كل مكان فى عالم الصم. ومن يرفضون هذه العملية مثلى أنا، يعتبرون رمزا لعدم المسئولية، للمناضلين الذين تخطاهم العلم. يقولون عنا:

" إنهم ينددون بمحاولة للتطهير العرقى لشعب الصم، إنه أمر مثير للسخرية."

أو:

"لغة الإشارة التى يستخدمونها عنيفة، فليس غريبا أن يرفضونا وأن نرفضهم."

وكذلك:

"إن لغة الإشارات عتيقة، وهم يجعلون منها سُلطة! "

من الذى يتحدث عن العنف؟ وعن السلطة والرفض؟

لست أنا، على أية حال. وإذا كنت أرفض هذه "التقنية الجراحية"، فذلك لأننى بالغة ويحق لى أن أرفض. فى المقابل فإن الطفل ذا الثلاث أو الأربع سنوات، والذى يُفرض عليه هذا "الشىء" ليس له كلمة بعد ليقولها. بينما أنا لى كلمة. وكالعادة، أنزعج من تلك المناقشات. وباستخدام لغة الإشارات فذلك يكون واضحا.

إن أيًا من الأطباء الذين يدافعون عن هذه المعجزة، لا يتحدث لغة الإشارات. وكل ما يريده هو أن يسمع الصم مثله. ويتحدثون مثله. وما يتصوره هو أننا ننبح خلف الذئب. لقد وصفونا " بقبضة المناضلين"، الذين يخافون أن تختفى "سلطة" لغة الإشارات.

ليست "سلطة" سيدى الجراح، بل "ثقافة".

أنت لا تتكلم عن الثقافة، والعذوبة، والتبادل، أنت تتكلم عن الجراحة، عن سلطة المَشرَط، والأقطاب الكهربية، والإشارات المشفرة.

دون حساب أنك لم تعترف، بأمانة، بالأضرار التى قد تسببها هذه الجراحة.

فأنت لست واثقا من تلك الأقطاب الكهربية، سيدى الطبيب. فهى يمكن أن تنخلع فى غضون عشر أو عشرين سنة. كما أنك ليس لديك تجربة النجاح الكافية، لتكون جازما إلى هذا الحد. لا يمكنك أن تفعل ما لست واثقا منه.

إنك تجهل قدر الاستعداد الفردى لاستقبال تلك الأصوات المشفرة. فالبالغون يشكون منها، والأطفال الصغار لا يستطيعون السيطرة على الجهاز بأنفسهم وغلقه حين يزعجهم. إنهم يتأذون.

إنك تعطى نتائج إيجابية بحيث يصعب الاحتجاج عليك، لأننا لا نستطيع التحكم فيها. النتائج المعروفة "بالمتغيرة" : ٥٠٪ ناجحة، ٢٥٪ متوسطة، والتى كى نصل إليها لابد من تعلم قراءة ما على الشفاه، بعد مرحلة طويلة من إعادة التأهيل، ولابد من استخدام الجهاز فى جو هادئ، (يا له من تقدم!) ؛ وفى النهاية ٢٥٪ نتائج سلبية. وهذه النسبة الأخيرة لا تسمع إلا ضوضاء يستحيل تعريفها، وينزعون أجهزتهم لا محالة.

وأنتم تريدون فرض إحصائية كتلك؟ لماذا لا تتقبلون تقييما حياديا؟

وماذا نفعل إذا كنا من ضمن نسبة الـ٢٥٪ الأخيرة ونحن فى الثالثة؟ نأتى لكم بعد عشرين سنة لنحتج؟

حينها لن نستطيع فعل شىء وأنتم تعلمون ذلك! فهذا الجهاز يسبب خسائر لا يمكن استعادتها. وإذا كان هناك احتمال لبعض القدرة السمعية الطبيعية قبل إجراء العملية فتلك القدرة تتلاشى تماما. مهما يكن العُمر.

ويتكلم باحثون مشهورون عن "الشفرات ذات التدخل البيولوجى"، والرسائل الرنانة على العصب السمعى"، و"الإشارات العصبية". ولا تزال طريقة عملهم غير معروفة. واليوم الذى سيحلّ فيه الباحثون شفرة هذه الإشارات، هل أنتم واثقون من أنكم لن تبدوا "عتيقين" ؟

أنتم لا تريدون سماع قصة هذه الفتاة الصغيرة التى أجرت العملية، وهى تقول باكية:

«عندى عنكبوت فى رأسى».

لأنها لم تستطع على الرغم من إعادة التأهيل المكثفة التى قمتم بها بعد عملية الزرع، أن تحل شفرة الأصوات بشكل ملائم.

أنت لم تسمع مطلقا حديث تلك السيدة الشابة التى انتحرت، بعد ثلاث سنوات من العملية لأنها لم تعد تحتمل نفسيا وعصبيا مستوى الضوضاء الخارجى؟

عملية الزرع تعد بالنسبة لى، اغتصابا. فإذا قبله البالغ فهذا شأنه. ولكن أن يتواطأ الوالدان مع الجراح ليفرضا هذا الاغتصاب على طفلهما، لأمر مخيف.

"أذنك الإليكترونية" تخيفنى، يا سيدى الطبيب. إنك تذهب بعيدا جدا. مِل قليلاً ناحية واجباتك الأدبية، وأنصت لها مليا. لابد وأنها ستهمس لك بشىء ما.

وكالعادة، ستضع علامتك المسجلة على ستائر العلم، والتقدم. ولكنكم تجهلون الكائن البشرى الأصم الذى تتحدثون عنه. تجهلون نفسيته، ومكتسباته. تجهلون مستقبل هذا الطفل الصغير الأصم الذى تريدون تعديله.

إن للأصم نوعية حياة، وتكيفا مع هذه الحياة. فهو يتناغم مع لغة الإشارات. وينجح فى أن يتكلم، ويكتب، ويشكل مفاهيمه بمساعدة لغتين مختلفتين.

إن الأطفال الصم لأبوين صم ليس لديهم من خيار آخر. وصحيح أن الصمم العائلى هو عالم مختلف عن عالمنا. عليك أن تتقبل ذلك.

كل هذه الأصوات التى تسمعها أنت، وتلك الضوضاء، أتخيلها أنا بطريقتى. وإن اكتشافهم بغتة سيؤدى بالتأكيد إلى العَيش بشعور محبِط، وصادم ومخيف. هل سيؤدى إلى إحلال مفهوم آخر للعالم غير مفهومة فى عينىّ؟ مستحيل. وإلا كنت سأفقد هويتى، واستقرارى، وخيالى، كنت لأفقد نفسى. ستضيع الشمس التى تشرق من القلب فى عالم غير معروف. إننى أرفض أن أغير الكوكب.

ذات مرة، سألتنى فتاة صغيرة وهى خائفة:

" لماذا يقولون إنه من الأفضل أن نضع جهازا فى الرأس؟ أهو أمر سيئ أن أكون صماء؟

أحيانا كنت أتساءل ما إذا كان وراء ذلك جماعة ضغط، كما يقولون، من صنّاع هذا الجهاز. وهم من يثيرون أحاديث كثيرة حوله، ربما أنه مُربح جدا؟ فسعر الجهاز يتراوح بين مائة ألف ومائة وخمسين ألف فرنك...

أنا لا أعرف هذا العالم من الضوضاء، من ضوضائكم، ولا يعوزنى معرفته. أدين بالفضل لعائلتى، التى منحتنى ثقافة الصمت. إننى أتكلم، وأكتب بالفرنسية، وأشير، وبذلك لم أعد نورسًا يصرخ دون أن يعرف شيئا.

يبدو لى هذا الجهاز الذى يزرع كتلك الأجهزة التى يزرعها الجنود الأمريكان عند الدلافين محاولين فهم لغتها، وإجراء التجارب عليها. تجارب...

منذ عشرين سنة، أى سنوات عمرى تقريبا، لم يتوقف بعض الأطباء، وليس جميعهم، عن الإعلان:

"سوف يسمع الصم بيتهوفن!" فى البداية، كأن ذلك سيحدث فى اليوم التالى، ثم سيحدث فى المستقبل القريب. ثم يحتاج الأمر إلى توقيعات خاصة. ثم نلجأ إلى التشخيص متحدثين عن عدم إمكانية الاقتراب من حالات الصمم التى تعود لأكثر من عشرة أعوام. ثم يقررون أنه ينبغى إجراء عملية الزرع لصغار الصم، فى السنوات

الأولى من حياتهم. قبل أن يضمر مخهم السمعى. أى علينا أن نسرع فى إجرائها قبل أن تفوتنا الفرصة.

تجىء الأفكار وتذهب، والمعلومات غير دقيقة، وما من شخص متأكد من أى معلومة، وكل حالة ولها خصوصيتها، ولا شىء يستطيع الجزم بنجاح التجربة على أصم بعينه. وهل بعد كل هذا لا ينبغى أن نقول هذا الكلام؟

صحيح، أننى لا أحب هذا الجانب التجريبى على الكائن الإنسانى. وحتى إن لم أكن مناضلة وناشطة وغاضبة أربعا وعشرين ساعة فى الأربع وعشرين ساعة، إلا أننى يحق لى أن أعارض ما تقوله، يا سيدى الطبيب.

فى أحد اجتماعات العصف الذهنى التى تعقد من أجل الصم، جاء أبى، مع مدرسين متخصصين، وأطباء نفس، ورجال قانون، وأطباء أنف وأذن وحنجرة، كان ينبغى أن نطرح جميعا أفكارنا فى مسألة عمليات الزرع. تحدثت شابة صماء عن الصمم، كأنه أقلية عرقية. كان أبواها من الصم، وكان هناك جيل سابق من الصم قبلها، ما من شخص واحد يسمع فى عائلتها، لذلك فهى ترى الصمم باعتباره عِرقا كاملاً. غضب والدى، شعر بالصدمة، لم يستطع تقبل هذا اللفظ. كانت هى المرة الأولى التى أراه غاضبا على هذا النحو:

ماذا تعنى كلمة "عرق"؟ أن نعود إلى الفاشية؟ أتريدون الحديث أيضا عن العرق الآرى*؟ وماذا أمثّل أنا بالنسبة لابنتى؟ هل تريدون القول بأننى أنتمى لعرق مختلف عن ابنتى؟ بل إننا من نفس العرق!"

وتدخلت لأقول لهذه الفتاة:

" كلمة (عرق) لا تبدو لى متناسبة مع وصف جماعة الصم"

- ولكن لماذا غَضِب والدك؟

- اسمعينى. إن المَنىّ الذى منحنى الحياة، هو مَنيّه. فهو لم يأتنى من شخص أصم. من منحنى الحياة ليس شخصا أصم، بل شخص يسمع. وبذلك فما نتحدث عنه، أى الصمم، ليس له أى علاقة بكلمة عِرق!

أقرت، فى النهاية، بأننى على حق. وكانت هى المرة الأولى التى أرى فيها "مصدرى الجينى" فى حالة غضب.

ولكن سنتحدث ثانية عن عمليات الزرع، يا أبى. باللغتين. لأنك تقبلت اختلافى، وأحببتنى بالقدر الكافى لتشاركنى إياه.

هل الطبيب لا يمكن أن يخطىء أبداً؟

من قال ذلك؟ هيبوقراط(*)؟

(*) هيبوقراط Hippocrates هو أبو الطب في العصر اليوناني القديم (٤٦٠ - ٢٧٠ قبل الميلاد) ويعتبر عصره من أعظم العصور في الطب اليونانى وهو الذي أرجع حدوث الأمراض لأسباب معينة وليس السحر، ويمكن تلخيص فلسفته في أن المرض عارض طبيعي وما الظواهر المرضية إلا رد فعل من جانب الجسم، وأن أهم ما يقدمه الطبيب للمريض هو رفع القثوي الدفاعية في الجسم، وينسب إليه العهد الذي يقطعه الأطباء علي أنفسهم عند بداية ممارستهم للمهنة.

- ٢٥ -

تحليق

سارة، طفلة الصمت. فتاة صماء، ترفض أن تتكلم. عنيفة، ومظلومة. حساسة، وعاشقة. سارة يائسة.

لعب هذا الدور قبلى ممثلتان كوميديتان رائعتان من الصم . هل سأكون قادرة على أدائه؟

أفكر فى الأمر، وأفكر، وأراجع وأراجع.

فى الثانوية، اجتزت الاختبارات التحريرية. أشعر أنى أفضل الآن. فلا أخاف من الشفوى بقدر ما أخاف من التحريرى؛ حيث يصعب على أن أفكر بالسرعة ذاتها التى يكتب بها القلم. وأن أضبط العبارات. أما الشفوى فيناسبنى أكثر. ربما يبدو ذلك غريبا بالنسبة لنورس يقال عنه إنه أصم. ولكن هذا هو الحال. أحب الشفوى أكثر من التحريرى.

كنت أراجع. فى البداية، كانت الفلسفة تمثل مشكلة بالنسبة لى، وكنت غارقة إلى حد ما. أعتقد أن التعبير عن المجردات بالنسبة للصم الفاشلين دراسيا لا بد أن يكون صعبا. لا بد أن أركّز بجدية،

طالما كنت متأخرة فى أخذ الأمور بجدية. ثم فهمت. أصبحت قادرة على التعبير عن الوعى واللاوعى، والمجردات، والعنف الجسدى، والعنف الشفوى، وعن الحقيقة وعن الكذب.

كنت أستذكر حتى أكاد أبدو كنورس مجنون.

اجتازى ثانويتك يا لابورى، والمكافأة ستكون المسرح.

" حدثينى، آنسة لابورى، عن أسطورة الكهف(*) تفضلى..."

إنه الاختبار الشفوى. سؤال الفلسفة حول الحقيقة عند أفلاطون. صعب. صعب. فى اختبار الثانوية، السنة الماضية، شرحت لمن يختبرنى أننى صماء. وطلبت مترجما، وأدّعى أن لى الحق فى وجوده. ولكن لا يبدو ذلك صحيحا. فقد حاربت من أجل الاستعانه بمترجم. ونجحت فى النهاية. لم أكن أرغب فى معلم إلى جوارى، يعاملنى كما لو كان أمى، كما لم أكن أرغب فى وجود أمى. لا يمكن أن أواصل العيش مع هذا التدليل الأمومى. فالحياة لا يمكن أن تستمر هكذا. أما هذا المترجم فلا أعرفه، ولا يعرفنى. ولكنه سيترجم فقط ما أقوله.

(*) أسطورة الكهف هى من اشهر أساطير أفلاطون، ويصور فيها مجموعة من الرجال سجناء فى كهف ولا يستطيعون الخروج منه، بينما يرون نور الشمس فوق الكهف. وحين يخرج بعضهم من الكهف ويبهرهم نور الشمس، بحيث لم يعودوا يستطيعون النزول مرة أخرى والعيش فى الظلام الذى كانوا فيه، وهى تعبير رمزى بحيث حالة السجناء فى الكهف تمثل المعرفة الحسية والجهل والظلام المعرفى، أما الشمس فتمثل المعرفة الحقيقية والمثل والفلسفة.

كان الشخص الذى يختبرنى لطيفا. وأثارت حالتى فضوله. وطرح على الكثير من الأسئلة، حول ما أرغب فى القيام به فيما بعد. حدثته عن المسرح، وحدثنى عن الفن. كان يحب أن يثرثر كثيرا. ولكننا لسنا هنا لهذا الغرض. فلنعد إلى موضوعنا.

بدأت بعزم.

هل كانت ظلال الكهف تمثل الحقيقة أم الأوهام، أى الحقيقة أم الأكاذيب؟

بعد ذلك بسنتين، نسيت متى بالضبط... على أية حال، أشعر أننى فهمت الموضوع جيدا.

"فالرجال المسجونون داخل الكهف، والمحرومون من الضوء الطبيعى، لديهم رؤية مشوهة عن ضوء النار أو ضوء الشموع. إنهم يرون ظلالاً. ولا يرون إلا الجزء المشوه من الأشياء... كل شىء يمثل فكرة، والمرء يجب أن يبحث عن حقيقة الأشياء. فالضوء الطبيعى، والشمس هما رمزان للحقيقة، حقيقة الجمال، وحقيقة الخير، إلى آخره."

شمس الحقيقة. وضوء الحقيقة. وشفاهية الحقيقة.

تكلمت حتى شعرت بألم فى معصمىّ وفى حلقى.

وفى نهاية أسطورة الكهف، كوفئت "الشمس التى تشرق من القلب"، والمنهكة، بـ١٦ درجة فى الفلسفة!

شكرا لشمس أفلاطون.

حصلت على ثانويتى! وبدرجات جيدة أيضا!

ها أنا أنطلق. أنطلق نحو المسرح. فهم ينتظروننى.

نظرة فى مقابل نظرة. وأياد تتحدث. صباح الخير، صباح الخير.

وجدت المخرج والممثل الكوميدى، جون داليريك.

العمل الحقيقى يبدأ.

تحكى أطفال الصمت عن المواجهة بين عالمين. عالم شخص يسمع، جاك، وعالم سارة، الصماء.

جون سيؤدى دور جاك، مدرس فى معهد للشباب الصم، حيث وسائله تفاجئ الآخرين. إنه يريد أن يخرج الأطفال من عزلتهم، ويجبرهم على قراءة الشفاه وعلى النطق.

رفضت سارة. فهى مولودة صماء، وتريد أن تبقى منغلقة فى عالمها، عالم الصمت. وترفض عالم الذين يسمعون. فهو عالم يجرحها، ويشعرها بالإذلال. ولا يبذل أصحابه جهدا للتواصل معها. لماذا إذن تقوم هى بهذا الجهد؟ حتى والدها، تركها.

ستقع سارة فى حب جاك. وعلى الرغم من هذا الحب ستحتفظ بهويتها، وباستقلاليتها.

نظرة بين سارة وجاك. أى، نظرة بين إيمانويل وجون.

هل ستقع إيمانويل فى حب جون؟

لقد حصلت على الثانوية. وبلغت العشرين، وأستطيع الانطلاق نحو جميع الرغبات. مفهوم. ولكن اجتازى شهادتك بوصفى ممثلة كوميدية أولاً.

بعيدا عن هذه الفرقة، لا أحد يفكر فى إعادة تقديم مسرحية أطفال الصمت فى فرنسا. ولا حتى الصم. فلم تُقدم أى مساعدة معنوية أو مادية. إنه مجنون، جون. إننى أحبه، وأحب جنونه.

لقد تعلمت كثيرا. تعلمت الدور، وتعلمت كذلك أن أعيش وسط فريق. مع ممثلى الكوميديا. المواجهة. والشجار. والاتفاق. والحب. وامتزاج أشخاص يسمعون مع آخرين صم، إنه تبادل فوق العادة، وثمين. إنه كالكريستال. أجدنى أقدر صلابة آنى باليسترا، وحنان وتنبه نادين بازيل، ورقة دانيال بريمون، وخفة ظل جويل شالود، الصماء، وقوة وعناد جون داليريك، ومهنية فانى درويل الأصم هو الآخر، وبشاشة الصاخب لويس إميل.

البروفة. النورس يغرق بين موجتين. فهناك مخرجان اثنان للممثلين. ليفين بيسكارد وجون داليريك. أحدهما أصم، والآخر لا. وهما مختلفان فى فهمهما للشخصية. وفى مؤشراتهما. النورس مذعور. أحدهما يرى سارة على هذا النحو، والآخر يرى سارة على نحو آخر. وعلى أنا أن أختار. أن ألبِس سارة جلدى أنا، أو أن ألبس جلدها.

كان المسرح هو الجنة، بالنسبة لى، وأصبح هو العمل. عمل حقيقى لمحترفة.

لم أتوقف عن طرح الأسئلة. لماذا تتسم سارة بكل هذا العنف، ولماذا هى مضطهدة جدا؟ لماذا تريد أن تنغلق فى صمتها؟

أعمل بجد. وأعيد. ولا يسير الأمر على ما يرام. أتعصب. وأحيانا، أقول:

" لن أستطيع أبدا! مستحيل!"

ولكننى تقدمت. ومن وقت لآخر، تظهر فى رأسى ، صورتا الممثلتين الأخريين اللتين قامتا بأداء الدور من قبلى. كنت أمحو الصور من رأسى. ولا أترك نفسى للتأرجح بين أمواج مختلفة. فأنا من يجب أن تستشعر دور سارة هنا والآن. إنها فرصة رائعة، لا ينبغى أن أتركها تضيع. إنه النجاح، النجاح.

سارة ليست أنا، ولكنها عملى ممثلة كوميدية. إنها ليست أنا لأنها ترفض العالم الآخر. وليست أنا لأنها ترفض الكلام. ليست أنا، لأنها تحمل داخلها معاناة الإقصاء، والإذلال، والهجر.

كان المشهد الذى تقول فيه سارة إن والدها هجرها، وهى فى الخامسة من عمرها هو المشهد الذى تطلب منى المجهود الأكبر. فوالدى أنا لم يهجرنى. لا بد لى من التركيز.

سارة: " بالأمس، كان والدى جالسا على السرير وكان يبكى. وفى اليوم التالى، رحل، وعلقت أمى صورته على الحائط!"

لن أستطيع أداءه. فلا أفهم كيف أؤديه، كيف أندمج فى هذه الشخصية التى تعانى كثيرا وهى تستعيد تلك الذكرى، رافضة أن تظهر تلك المعاناة. وتهرب منها إلى السخرية المؤلمة. فهى لا تريد الحديث عنها، وفجأة تقفز فى وجهها!

كيف أؤدى هذه المعاناة ببراعة؟ حاولت أن أتذكر بعض ذكرياتى الشخصية التى قد تقترب من معاناتها، ولكن لم يكن لدى ذكريات مماثلة.

لا أستطيع أن أشير بلا معنى: "لقد هجرنى والدى."، وأغرق وسط دموعى، وهكذا أكون أديت الدور! بل أنا بحاجة إلى الشعور بمشاعر صادقة، ودقيقة. أن أعانى وأنا أشير لأعبر عن تلك المعاناة. حتى أبلغ العبارة الأخيرة: " أمى علّقت صورته على الحائط!"

إن سارة لا تريد بالأحرى إظهار تلك المشاعر. لا تريد أن تبكى. ولا تستطيع. ولكن لابد وأن يظهر كل ما تخفيه ، وما تكبحه داخلها بدافع من اليأس، لابد أن يظهر على وجهها. أى على وجهى.

كنت أعيد كثيرا مع جون، كدت أضيع بسبب هذا المشهد. ثم حدث. كالنور. شهر ونصف الشهر من البروفات، ثم ها هى ليلة العرض الأولى

عائلتى كلها موجودة. وشانتال ليينال، الذى ألف الدور منذ ما يقرب من عشرة أعوام، جاء هو الآخر. كنت متهيبة الجمهور بشكل

مفزع. إنه خوف لا أستطيع وصفه. لم يتركنى منذ البداية حتى النهاية. وقلبى الذى كان يدق بجنون. كما لو كان يصدر ضربات لا دقات. والشعور بأنه لم يعد لدى أنفاس ولا ساقان. هذا الوصف يمثل موجزا، فالحقيقة كانت أسوأ بكثير. فما من كلمات يمكن قولها.

كنت أمثل وسط الضباب. كنت فى مكان آخر، لا أرى شيئا، ولا أشعر بالصالة. ضائعة، هائمة على المسرح. بإرادتى الكاملة.

وحين أسدل الستار، تنفست أخيرا. كنت أشعر برغبة فى البكاء. البكاء من الفرحة. ولكننى تمالكت نفسى لأحيى الجمهور.

لقد حققته ! أنا، بمفردى تماما ! ونجحت ! لقد أديت دورى فى المسرحية من بدايتها إلى نهايتها! دون أن أتعثر أو أنسى مشهدا، أو أقوم بأشياء غريبة، ولم يتوقف قلبى من الرعب.

إننى حتى لم أر رد فعل الجمهور، كان عقلى مشوشا. تسيطر عليه فكرة واحدة: لقد فعلتها.

وقفزت إلى مارى وهى تبكى وتحمل زهورا. بكيت معها، فى حضنها، وهى فى حضنى.

إنه شعور مسيطر. وسعادة لا تنتهى.

فى الأيام التالية، كان رأسى أكثر ثباتا. وانتبهت إلى أننى لا أستطيع أن أتحكم فى أدائى وفقا لرد فعل الجمهور. فجون هو

الذى يسمعهم وليس أنا. وهو يتكيف مع المشاعر والضحكات. ويأخذ وقته. "ويسمع" ويمثل منتبها لما ينبغى الانتباه له . لابد أن أجد وسيلة، طريقة أخرى لأشعر بهم. لا يمكن أن أركز فقط على ردود أفعاله هو، وعلى وجهه، وطريقته المختلفة فى الأداء وفقا لمن يبكى ولمن يضحك.

لا بد أن تجدى طريقة ياإيمانويل. تعلمى المهنة. مهنتك بوصفى وميديانة صماء.

كنت نورسا كوميديا يعتلى موجة الجمهور والصمت، أنصتى. أنصتى جيدا، بجسدك كاملاً. تلك الموسيقى، وهذا الإيقاع الصادر عن الجمهور، ضحكاتهم، ومشاعرهم، لا بد أن تتبعيها. أنصتى بكل كيانك.

وأخيرا... وجدتها! أمر خلاب! إننى أستشعر الذبذبات الإيجابية أو السلبية، حرارة الجمهور أو برودته. ها أنا أكتشف شيئاً لا يمكن تفسيره. لا بالكلمات ولا بالإشارات. إنه شىء فيما وراء المفردات، والكلام، والأصوات. إنه... ربما هو نوع من الامتزاج الغامض. لا أعرف ما هو تحديدا، ولكننى وجدته، وأمسكت به ! إن أمى فخورة بى:

" أتعرفين أننى كنت أريد أن أسميك سارة عند ميلادك؟ ولكن جدتك لم تكن تريد."

إيمانويل تلعب دور سارة. لا يمكن أن تكون مصادفة محضة. أهى إشارة؟

كان النقد رائعا. ومع ذلك، كنت أعرف أن لا أحد سيمنحنى هدية. شكرا ، لاعترافهم بى ممثلة كوميدية. الممثلون المحترفون فى المسرح والسينما، والمتأثرون بكل ما يتعلق بمجال الصوت وكيف أنه وسيلة للتعبير عن المشاعر، يعرفون بذلك أمرا يُصرّ الممثلون المحترفون الصم على رفضه. ضجّ مسرح موفتار، ثم مسرح رانيلاغ بالتصفيق والحماس لنا فى كل ليلة. عرفت أن أحد المتفرجين الذى كان أبا لطفلة صماء، قرر أن يعلم ابنته لغة الإشارات. وكان رافضا لذلك بشكل قاطع حتى اليوم الذى شاهد فيه المسرحية. قال لنا إنه بكى، وفهم. وبكيت معه.

ثم انطلقنا، وحلقنا. وذهبنا بعيدأ. ومثّلنا بعيدا. يدفعنا النجاح. والحب أيضا. فلم أعد " أنا" بل أصبحت " نحن".

رشحت المسرحية لجوائز موليير

وقرأت فى الجرائد أن إيمانويل لابورى مرشحة لجائزة أفضل أداء مسرحى لعام ١٩٩٣، وجون مرشح لجائزة إخراج أفضل عرض.

قال لى جون بحنان: انظرى، انظرى:

" لا بد وأن تعدى نفسك للنجاح وتعدى نفسك للفشل. ببساطة، كونى مستعدة."

كان التحليق سريعا جدا، لا أزال فى الهواء. احتمالان. مع تفضيل للاحتمال الأول. وفى أحد جوانب رأسى تتأرجح الفكرة بأن جائزة موليير ستمثل سعادة كبرى. فسعادة كتلك تُحدث انتشاءً، بلا شك. فيصبح الجسد بكامله غارقا فى السعادة. أشعر بسعادة غامرة.

لا تحلمى كثيرا، إيمانويل. اثبتى بقدميك على الأرض، وتهيأى.

- ٢٦ -

نورس وإشارة

فى هذا الفصل، يصعب على كثيرا أن أعبر عن شعورى، تلك السعادة التى أستشعرها وأنا أكتب الآن. عشتها بجسدى، وبمشاعرى، وكنت أستطيع التعبير عنها بشكل أفضل باستخدام لغة الإشارات.

قضيت اليوم كله أجهز نفسى. الفستان، وتصفيف الشعر، والمكياج. كنت نورسا فى زى السهرة، جاهزا للحفل.

العديد من الموهوبين ينتظرون، ممثلين كوميديين محترفين. كنت الصماء الوحيدة فى هذه الصالة.

كان والدىّ جالسين فى أحد الأركان، وأعضاء الفرقة المسرحية مبعثرين فى الصالة. كنت أحب أن أكون وسط عائلتى الصغيرة. عائلة دمى، وعائلة قلبى. كليهما.

أجلس إلى جوار جون. يبتسم لى، ويمسك بيدى. هو أيضا قلق. هل سيفوز هو بجائزة موليير. أم أنا؟ أم أن موليير لن تذهب لأحدنا ؟

نتبادل النظرات. إننا نحب بعضنا.

معدتى مضطربة. وأشعر بالرعب حتى إننى لم أعد أرى ما يحدث حولى. وأعد نفسى للإخفاق. فقد فكرت فيه، هذه الليلة، أكثر مما فكرت فى النجاح. الصالة ممتلئة، والأضواء، والكاميرات، والفلاشات، والإثارة، والترقب الذى ألاحظه، كل هؤلاء النساء الفاتنات، والجميلات، والشهيرات، وكل هؤلاء الرجال، والممثلين الكوميديين، جميعهم كانوا معتادين على هذا النوع من الاحتفالات. ومن هبط لتوه فى دائرتهم الاحترافية يشعر كأنه طفل. الطفل الذى نلقى به فى الماء كى نعلمه العوم. وسط محيط من النظرات، ومدّ من الوجوه، وأكاليل من الأيادى. كل هذه الأفواه التى تتحدث حولى تعرف أشياء لا أزال أجهلها. يعرفون ثقة الظهور، وثقة القول والحكم.

كانت معى مترجمتى، دومينيك هوف، التى لا تفارقنى، وتعرفنى عن ظهر قلب، وتفهم ما أريد قوله عند أول إشارة منى. وجون، الذى أحبه على المسرح وفى الحياة، ويعد حبى له سمة أساسية لحياتى. إنه يشير لى:

" هل أنت على مايرام؟"

ـ أوه! كلا! ولكننى قلت نعم.

لم أكن أريد أن أصعد على خشبة المسرح أمام هذا الجمهور المهيب كالإنسان الآلى، أبكى وأقول شكرا. أردت أن أكون قادرة على

قول شىء ما. على الأقل أنا واثقة من رغبتى تلك. ولكننى أريد كذلك أن أظل جالسة بينهم، وأسيطر على نفسى. وأتقبل الفشل. فعالم المسرح هو عالم ثالث بالنسبة لى، استقبلنى؛ ولابد أن أكون أهلاً له.

حين كنت مراهقة، كنت أحلم بمارلين مونرو، إنها هشّة جدا أمام المشاعر المتعلقة بمهنتها. عندى صور لها فى كل مكان. أنا لست مارلين، وهذه ليست هوليوود، ولكن بالنسبة لى، هى الشىء ذاته. فهى المرة الأولى التى تترشح صماء لجائزة موليير. وهو ما يعنينى فى المقام الأول، حتى إن لم أكن أنا الفائزة، فهذا الترشح يعد اجتيازا لعقبة هائلة.

هناك شعوران محتملان فى الدقائق القادمة. الأول هو شعور الطيران، والآخر هو البقاء فى مكانى.

على خشبة المسرح، يوجد إيدوينج فيلير، رجل رائع، مع ستيفان فريز، التى فازت بموليير للتمثيل المسرحى فى العام السابق. يشير لى جون أنهم بدأوا يقرأون الأسماء الخمسة.

لم أعد أتمالك نفسى. سأعرف فى غضون جزء من الثانية، سريعا، سريعا كى تتوقف يداى عن الرجفة، كى... كى يتوقف ذلك.

فُضّ المظروف. إذا كانت أنا فستنبهنى المترجمة. سيبحثان عنها فى بداية نطق قائمة المرشحين كى تكون جاهزة للصعود على خشبة المسرح. فى هذه الحالة. إذا أنبأوها، فربما أنه...

ولكن جون سمع أولاً. سمع إيم... بداية اسم إيمانويل. ولم تجد المترجمة الوقت لتنهى الإشارة، لقد وقف، فهو يعرف أن "إيم ..."، لابد أنها أنا.

لم أعد أعرف إلى من أنظر، إليه؟ أم إلى المترجمة؟ أم إلى خشبة المسرح؟

وقفت وأنا أكاد لا أميز ما حولى، وتلاقت نظراتنا، دون حاجة للكلام. تحركت، ومشيت متأرجحة، تخترق رأسى آلاف الأشياء، دون أى رابط منطقى. فيض من الصور. بدأت أشير دون أن أنتبه بماذا أشير. تقدمت، وكنت أفكر فيما ينبغى قوله. بدا لى الطريق حتى خشبة المسرح طويلاً، لا ينتهى. تعثرت قدماى، كنت أخشى أن أسقط. فستانى، والحذاء العالى جدا. لم أعتد على المشى عاليا جدا. سأسقط على الأرض؛ لابد أن أحاول المشى باعتدال على هذه العكاكيز. أرى أمى، وأشير لوالدى، وأنظر إلى قدمىّ، وأردد ما سأقوله. وأنظر من جديد إلى قدمىّ. لا أستطيع أن أبعد نظرى عنهما. أراقب خطواتى بانتباه. صعدت السلم، وحينها استطعت أخيرا أن أرفع نظراتى لأعلى قليلاً. لقد وصلت.

إدوينج فيلير بعيد، بعيد على خشبة المسرح، ومبتسم، إنه ينتظر. بل أنا التى تنتظر.

وفجأة رأيت الجمهور أمام عينى. الجمهور العريض. المشاعر تحتبس فى حلقى، تلتف فى كرات، جاهزة للانطلاق. لا أريد أن أبكى، لا أريد، ولكنها تتصاعد، وتهاجمنى، وتفيض.

بكيت حين وصلت إلى تلك السيدة الكبيرة التى أمسكت بذراعى. إننى عاجزة، لن أستطيع التعبير بلغة الإشارات، لن يحدث هذا.

أشرت "شكرا" بطريقة متلعثمة. تعطلت جميع التروس. حتى عيناى لم تعودا تريان شيئا.

ثم همست لنفسى:

"ايمانويل، هيا! الجمهور أمامك. جمهور جوائز موليير. انطلقى! قولىِ شيئا!"

مشاعرى تسيطر من جانب، والخوف من جانب. انطلقت.

" شكراً، شكرا، شكرا."

شعرت أننى أفضل قليلاً. أكملت، والمشاعر تسيطر على حلقى، وتغلقه تماما. سأقول ما ينبغى قوله، عاهدت نفسى بذلك. ولن أستسلم.

" صعب علىّ أن أشير. إنها المرة الأولى التى يُعترف فيها بصماء كممثلة كوميدية محترفة وتتسلم جائزة موليير. إننى سعيدة من أجل الصم جميعا. عذرا، ولكننى متأثرة للغاية. الدموع تملأ عينّى حقا. أريد أن أعلمكم إشارة بسيطة جدا وجميلة جدا... وأريدكم أن تؤدوها معى..."

وقمت بإشارة الاتحاد. الإشارة الجميلة التى أحبها، التى تمثل الملصق الإعلانى لمسرحية أطفال الصمت.

انتظرت أن يؤديها كل الناس، ولم يؤدها أحد. انتابنى الذعر. لم يتحرك أحد. وقلت لنفسى: " لماذا أعبر عما بداخلى؟ طالما لا يشعر به أحد؟"

شعرت أننى مثيرة للسخرية. إنه لأمر مرعب. استدرت ناحية المترجمة، التى شرحت لى بسرعة الفرق الزمنى الذى تستلزمه الترجمة. هذا الوقت ميت، مرعب، حيث لا يحدث شىء، لاشىء سوى هذا الفارق الزمنى! ترجمة هذه الخطبة الصغيرة! لم أفكر فى المشكلة. وأعدت الإشارة من جديد، وفجأة رأيت شخصا يؤديها، ثم أشخاصا آخرين، وأخيرا كل الجمهور! والأذرع مرفوعة، والأيدى كأنها فراشات، والأصابع تشير بالاتحاد.

إنها أجمل هدية يهديها لى العالم. كل هؤلاء الناس أمامى يؤدون الحركة ذاتها. وكى أشكرهم، قلت شفاهيا:

" إننى أحبكم."

تقطع صوتى بفعل ما أشعر به، لابد أن قليلاً من الناس هم من سيفهمون همهمة نورس بلا صوت مثلى. قبّلت إدوينج فيلير، وفررت إلى الكواليس. ولحقتنى أختى عبر ممر وجاءت لتلقى بنفسها فى حضنى.

لم أكن قد تحققت بالفعل أنهم منحونى للتو جائزة موليير فى التمثيل لعام ١٩٩٣ كادت الفلاشات تُعمى عينىّ، إنه رعب، عشر دقائق أمطار من الفلاشات.

وجاء دور جون ليصعد على خشبة المسرح .

جائزة موليير لأفضل إخراج

لقد فزنا نحن الاثنين.

انتباه وسعادة.

- ٢٧ -
إلى اللقاء

اكتشفت حديثا الاختبار النفسى الشهير لبروست. وعلى السؤالين الأخيرين: ما شعارك المفضل فى الحياة؟ وأى هبة من الطبيعة كنت تحب أن تحظى بها؟ أجبت: الشعار هو: استمتع بحياتك، أما عن الهبة ، فإننى أحظى بها بالفعل، وهى أننى صماء.

فى اليوم التالى لجائزة موليير، ظهر فى الجرائد، وبخط كبير، العبارة ذاتها تقريبا: " الصماء- الخرساء تتسلم جائزة موليير."

ولم يكتب إيمانويل لابورى: بل "الصماء-الخرساء". وكتب اسمى بخط صغير جدا أسفل الصورة.

كنت مندهشة من هذا اللفظ" صماء ـ خرساء". فالأخرس هو من لا يتكلم. يرى الناس أننى لا أتكلم! إنه العبث. أنا أتكلم. بيدىّ، وبفمى. وأنا أستخدم الإشارات وأتكلم الفرنسية. واستخدام لغة الإشارات لا يعنى أننى خرساء. إننى أستطيع أن أتكلم، وأصرخ، وأضحك، وأبكى، فالأصوات تخرج من حلقى. ولم يُقطَع لسانى! بل لى صوت مختلف، هذا كل ما فى الأمر.

لم أقل قط للصحفيين إننى محرومة من الكلام، بل إن مفرداتى فى لغة الإشارات أكثر من غيرها، هذا كل ما فى الأمر. وأجيب بشكل أسهل عن أسئلتهم من خلالها وبمساعدة مترجم.

وقعت حكاية طريفة: هناك أستاذة متخصصة فى تعليم النطق هاجمتنى، بعد نشر كل هذه المقالات، قائلة إننى كان يتوجب على أن أتكلم بدلاً من أن أشير. وأكدت لى أنها غلطتى إذا اعتقد الناس أن الصم هم خرس أيضا ! لقد اتهمتنى بالباطل. ووفقا لها إننى أصبحت أمثّل الصم، وأننى ينبغى وأن أتحمل هذه المسئولية بأن أرفع دعوى قضائية على الصحفيين الذين قالوا إننى "خرساء"!

دعوى قضائية من أجل كلمة. أمر مثِير للسخرية.

وتنصب مهنة هذه الأستاذة على "نزع الصمت" عن الصم، وعلى أن تجعلهم يتكلمون. إذن فمن الطبيعى أن تكون لغة الإشارات بالنسبة لها هى لغة مقصورة، كبؤس الفقراء، كشفرة دون مجردات! مجرد صور!

إنها لا تفهم شيئا عن الصم، تلك "المتخصصة" فى تعليم الصم. خسارة.. خسارة لها، وبالأحرى، خسارة للصم.

قال جوته: " ما من شىء أكثر رُعبا من الجهل المؤثر"، وعندما يتعلق الأمر بالمسرح فإننى أحب أن أتحول لدورانت لأقول لكم:

" كم أحب أن أعرف أليست القاعدة الأهم بين جميع القواعد هى أن نُعجِب، وهل المسرحية التى حققت هدفها، لم تسلك الطريق الصحيح؟"

وأستطيع أن أقوله لكم أيضا بلغة الإشارات.

شكرا لك يا موليير.

إنه الجنون. الصحفيون، واللقاءات، والصور، وحضور كان بالفستان الأبيض الجميل، واعتلاء درجات السلم، وكل هؤلاء الناس الذين ينادونني ناسين أنني لا أسمعهم... كم هو جميل، إنها السعادة. ولكنه مُرهِق.

طُلب مني أن أشارك في حلقات تليفزيونية، وزُرت القنوات التليفزيونية جميعها. وعرضت على أدوار في السينما. كل شيء يتحرك سريعا، إنني في دوامة. وفي هذه الأثناء، جُبنا فرنسا بمسرحية أطفال الصمت. وفي كل ليلة أشعر بالنشوة الغامرة حين أحيي الجمهور وحين أرى الأيدي ترتفع بالتصفيق. إنني "أسمع" النجاح. إنه يجعل جسدي يهتز كاملاً.

جعلني جون أعمل، فهو يحبني. نتقدم ويدانا متشابكتان. فهو دليلي الذي يسمع. ورفيق الإشارات والدرب.

لا يتوقف ضوء التليفون الأحمر عن العمل. هناك الكثير من المشروعات في حياة النورس. كثير من الأشياء التي ينبغي عملها، وقولها، وتمثيلها. وحبها.

أشعر بالفخر. وسعيدة لأن كل وسائل الإعلام تلك، تهتم بعالم الصمت، من خلال اهتمامها بي. فهم لا يعرفون الصم. وكل صحفي يمنحني الانطباع بأنهم اكتشفوا أننا موجودون في الحياة. إنهم

لطفاء، وظرفاء، وملهمون، ويقظون، ويعجبون بالآخرين. إنه أمر إيجابى.

ولكن بعض الأسئلة كانت تثير حنقى. واحد منهم كان يتكرر كثيرا." كيف هو صمتك؟ هل هو أكثر هدوءا من صمت القبو؟ أو من الصمت أسفل المياه؟

القبو؟ القبو بالنسبة لى ليس صامتا! إنه ملىء بالرائحة، والرطوبة، وصاخب بالأحاسيس. أسفل المياه؟ أكون على راحتى أسفل المياه. فأنا نورس بحرى، يعشق الغطس. أنا نورس يعشق الشمس والبحر. وأنا أشعر مثلكم أسفل المياه.

صمتى ليس هو صمتكم. صمتى يتجسد حين أغمض عينىّ، وتصاب يداى بالشلل، ويصبح الجسد بلا إحساس، والجلد فى حالة خمول. إنه صمت الجسد.

وأحيانا أرغب فى الإجابة بأن كل تلك المفردات المتعلقة " بعدم الفهم" و " النقص السمعى" لا أحبها فى الحقيقة. فالصم يقولون عن أنفسهم: "صم." إنه لفظ واضح. أهو غير مفهوم؟ هل به ما يسوء؟ هل ينبغى قول: " مفهوم" للآخرين.

سؤال أخير:

" هل ستنجبين طفلاً؟"

الإجابة: " نعم."

سؤال استطرادى:

" هل تخافين مما سيكون عليه: أصم أو يسمع؟

الإجابة:

سيكون كما يريد. سيكون طفلى. هذا كل ما فى الأمر.

فى تلك اللحظة، كنا نتحدث عن مشروع مستقبلى. وسواء كان أصما أو يسمع، ففى الحالتين سيكون مزدوج اللغة. وسيعرف العالمون مثلى، إذا كان أصما، فسيتعلم مبكرا لغة الإشارات، وكذلك، مبكرا أيضا، اللغة الفرنسية. وإذا كان يسمع، فسأحترم لغته الطبيعية، وأعلمه لغتى. سيسمع صوتى. وسيعتاد عليه. مثل أمى، وأختى، وأبى. سيسمعنى. وسأكون أمه النورس.

وسأكون أما نورس لطفل ثان. فمن المهم أن يكونا اثنين. فكم أريد أن يتشاجرا، وأن يعبرا عن نفسيهما، وأن يتشاركا، ويحبا بعضهما بعضا. مثل أختى وأنا. فيما بعد، سأصبح جدة نورس.

فى يوم ما، وأنا صغيرة، حكت لى جدتى لأمى قصة، كم أحب حين تحكى لى القصص. كانت جدتى شديدة الإيمان، وفى هذا اليوم حكت لى "قصتى"... ولن أنساها مطلقاً. قالت لى:

" أتعرفين، لقد اختارك الرب. واختار أن تكونى صماء. مما يعنى أنه يتمنى أن تحملى شيئا ما للآخرين، للذين يسمعون. إذا كنت تسمعين ربما لا تكونين أى شىء على الإطلاق، فتاة صغيرة تافهة، غير قادرة على حمل شىء للآخرين. ولكنه اختارك لتكونى صماء ولتحملى شيئا للعالم.

الرب، لا أعرف الكثير عنه. فلم أتلقّ تعليما دينيا، لم يُرد والدى ذلك. لأن أمى قد عانت منه كثيرا. ولكن جدتى تتحدث عن الرب كما لو كانت تعرفه عن قرب. بيقين، إنه اختارنى صماء. وربما سأحمل شيئا للعالم. لقد منحتنى جدتى بُعدا فلسفيا للوجود. وصلابة. وإرادة.

ولكن أنا من تجاوزت ذاتى، يا جدتى. ولم آخذ قوتى من الرب، ولكن أخذتها من نفسى.

أشعر أن هناك روحا ما فى مكان ما، أشعر بشىء ما، أعلى منّا. ولكننى أجهل إذا كان هو الرب. فهو ليس له اسم بالنسبة لى. ولكنه قوة عليا. أحيانا أكلمه. حين أرغب بشدة فى شىء ما، لم أعد أخاف، حين أنجح، وأبلغ الهدف، وأتجاوزنى، حينها أكلمه كما لو كنت ألقى خطبة على أحد ما. على نفسى ربما. أو على أحد يهتم بأمرى. إنه حوار داخلى، فى الحقيقة.

فأنا نورس له إرادة، أقول:

"توقفى عن الشعور بالخوف، والرهبة، ستصلين إليه. هيا! انطلقى!"

ويجيبنى صوت آخر، صوت النورس الفيلسوف:

" هيا، كل شىء سيكون على ما يرام، فأنت لا تشعرين بالخوف، ولا بالرهبة. ستنجحين، كل شىء سيكون على ما يرام، ها قد نجحت بالفعل!"

صحيح أننى لست إلا فى الثانية والعشرين من عمرى. وهذا يعنى أننى لم أتناقش مع نفسى، ولا مع أى شخص آخر إلا فى أمور تتعلق بسنى.

أوقفى تلك الحماقات. وواجهى الحياة.

اجتازى ثانويتك، ستحصلين عليها. لا تخافى.

اعتلى خشبة المسرح، اجتهدى، ستصبحين سارة.

كنت أناقش أشكال الكفاح الصغيرة والكبيرة فى حياتى القصيرة، على هذا النحو. كانت هناك نجاحات وإخفاقات. لحظات كنت أشعر فيها بأننى معزولة أكثر من أى وقت آخر، وأكثر وحدة، وأخرى أقل بكثير.

لا يزال هناك الكثير لأتعلمه. ولا أزال أطرح على نفسى الكثير من الأسئلة.

أن أتعلم، ينبغى أن يتعلم المرء طوال حياته. وإذا توقف المرء عن التعلم، يكون بائسا. لا بد للحياة من الاستمرار، يوما بعد يوم، بشغف متجدد، لتعلم أشكال مختلفة من التعليم. وهكذا يستفيد المرء حقيقة من الحياة. إن فلسفتى، هى الكفاح. والصراع من أجل العيش. وعدم الاستسلام. والالتزام. القيام بكل شىء. وكذلك المتع البسيطة. لحظات السعادة القصيرة اليومية. أن أعرف كيف أشعر بها. وكيف أحافظ عليها.

أحيانا ينتابنى الشك. هل الحساب الوقتى لحياتى إيجابى أم سلبى؟ هل قمت بأشياء مهمة؟

لست كهلة، ولكن مر فى حياتى منذ لحظة ميلادى العديد من الأشياء. لقد "كبرت" قبل الأوان. ومررت بخبرات مبكرة جدا، بل مبكرة للغاية. وأشعر بأننى أتقدم بسرعة كبيرة. وأننى لم أمتلك الوقت لأستدير على الطريق الذى قطعته. قال لى أحدهم:

" كيف كان لديك تفكير يتعلق بذاتك وأنت فى السابعة؟ كنت تتحدثين عن روحك؟

كنت مجبرة على ذلك. ومن قبل، لم يكن هناك شىء. وفجأة تحقق التواصل. فاختلقت لنفسى هوية، وتفكيرا، هكذا بسرعة. ربما لأعوض الوقت الذى ضاع. وفى الثالثة عشرة، كنت أشعر أننى نضجت.. وفى الثانية والعشرين أعرف أنه لا يزال أمامى طريقا أقطعه لأبلغ ذلك.

أحتاج للآخرين، للتبادل. أحتاج لمحيط اجتماعى. لم أكن لأستطيع العيش دون الذين يسمعون، ولا الصم. فالتواصل ولع.

أحيانا أحتاج للهواء، فى كلا العالمين. فأعتزل. وأطوى جناحى. ولكن ليس طويلاً.

فلابد لى من التواصل. وإذا لم أستطع التواصل، كنت سأصرخ، وأخبّط، وأنبّه الأرض بمن عليها.

لكنت أصبحت وحيدة على الأرض.

بدأت قصة جدتى تتحقق. فها أنا أحمل لعالم الصم وعالم الذين يسمعون ماهيتى. كلامى وقلبى. إرادة التواصل التى أمتلكها، فى أن أجمع بين العالمين. من كل قلبى.

فأنا نورس يحب المسرح، ويحب الحياة، ويحب العالمين. عالم أطفال الصمت وعالم أطفال الضوضاء، ويحب أن يحلق فوقهما، ويحطّ عليهما بسعادة غامرة. ويحب أن يتكلم إلى هؤلاء الذين لم يحظوا بهذه الفرصة. الإنصات للآخرين. والحديث إليهم، وفهمهم.

منذ فترة، حين شرعت فى هذا الاختبار الصعب المتمثل فى هذا الكتاب كنت أرتعد من الخوف. ولكننى كنت أريده. فالكتابة تعنينى بشكل كبير. فهى وسيلة التواصل التى لم أطرقها بجدية حتى اليوم.

يكتب الذين يسمعون كتبا عن الصم. فقد درس جون جريموان، أستاذ الفلسفة، ورجل المسرح، والصحافى، لسنوات عدة عالم الصم كى يكتب مؤلفه الرائع، كوكب الصم، حيث يقول على وجه الخصوص: " ينبغى للذين يسمعون أن يتعلموا من هؤلاء الذين يتكلمون بأجسادهم؛ فالثراء فى لغتهم الحركية يعد أحد كنوز الإنسانية."

فى فرنسا، وحتى فى أوروبا، لا أعرف كتابا ألفه أحد الصم. قال لى البعض: " لن تستطيعى..."

أما أنا، فكنت أريده. من كل قلبى. لأتحدث لنفسى أكثر من أن أتحدث إلى الصم أو إلى الذين يسمعون؛ كى أشهد على حياتى القصيرة، بأكثر قدر ممكن من الأمانة.

وأن أكتبه بلغة حضراتكم. لغة والدى. ولغة اختيارى.

لقد كبِر النورس، ويطير بجناحيه.

إننى أرى كما لو كنت أستطيع أن أسمع.

فعيناى هما أذناى.

وأكتب كما أستطيع الإشارة.

فيداى مزدوجتا اللغة.

وها أنا أقدم لكم اختلافى.

إن قلبى ليس أصمّ أمام أى شىء فى هذا العالم المزدوج.

يشق علىّ كثيرا أن أترككم.

إيمانويل لابورى

ربيع ١٩٩٤

المؤلفة فى سطور:
إيمانويل لابورى

ولدت إيمانويل لابورى صماء فى ١٨ أكتوبر ١٩٧١ لأب يعمل طبيبا نفسيا وأم معلمة. قبل سن السابعة لم تكن تتحدث إلا إلى أمها بلغة بدائية تتكون من بعض الحركات. تعلمت لغة الإشارات وهى فى سن السابعة، وهى اللغة التى أتاحت لها الانفتاح على العالم. عملت ممثلة، وحصلت على جائزة موليير فى المسرح فى عام ١٩٩٣ عن دورها فى مسرحية «أطفال الصمت»، وهى أول ممثلة صماء تحصل على هذه الجائزة، كانت عضواً بالمسرح المرئى العالمى، ثم أصبحت مديرته منذ عام ٢٠٠٣. كتابها الوحيد هو «صرخة النورس» وهو سيرة ذاتية ونشر فى عام ١٩٩٤. شاركت فى العديد من الأفلام والتمثيليات والمسرحيات، ولكن من أهم القضايا التى سخرت لها حياتها الدفاع عن استخدام لغة الإشارات، وعن هوية الصم بوصفها جزءاً من النسيج الإنسانى للمجتمع.

المترجمة فى سطور:

دينا فتحى مندور:

ولدت عام ١٩٧٨، وتخرجت فى كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية (١٩٩٩)، أتمت دراسة اللغة الفرنسية أثناء تخرجها بالمعهد الفرنسى فى القاهرة (٢٠٠٠)، اهتمت أولا بالصحافة فعملت صحفية بالأهرام إبدو التى تصدر باللغة الفرنسية بالقاهرة (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٢)، ثم آثرت الترجمة فترجمت رواية «فاديت الصغيرة» للكاتبة جورج صاند وصدرت فى عام ٢٠٠٨، كما ترجمت كتاب «مذكرات حمار» للكونتيسة دى سيجور فى عام ٢٠٠٩ حاصلة على دبلوم إدارة الموارد البشرية بالجامعة الأمريكية فى القاهرة عام ٢٠١٠، وعلى منحة المركز القومى للكتاب بباريس ٢٠١١، وأتمت التدريب «بمصنع المترجمين» بالكلية الدولية للمترجمين الأدبيين فى مدينة آرل الفرنسية، كما صدر لها كتاب «المرأة الثالثة» للفيلسوف الفرنسى جيل ليبوفتسكى فى عام ٢٠١٢ عن المركز القومى للترجمة.

التصـــحيح اللغوى: **خالد العنــانى**
الإشــراف الفنــى: **حســـــن كامل**

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



كنت أطلق الصرخات، كثيراً من الصرخات، صرخات حقيقية. ليس لأنني كنت جائعة، أو عطشى، أو خائفة أو مريضة، ولكن لأنني كنت قد بدأت أرغب في "أن أتكلم"، ولأنني كنت أرغب في أن أسمع نفسي، فالأصوات لم تكن ترتد إلى مسامعي.

كنت أهتز. فأعرف أنني أصرخ، ولكن الصرخات لم تكن تعني شيئا بالنسبة لأمي أو أبي. بل كانت، على حد قولهما، صرخات حادة لطائر البحر، مثل نورس يحوم فوق المحيط. وهكذا، أطلقوا علي اسم النورس.

كان النورس يصرخ فوق المحيط مطلقا جلبة لا يسمعها هو، ولا هم يفهمون صرخة النورس.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح